

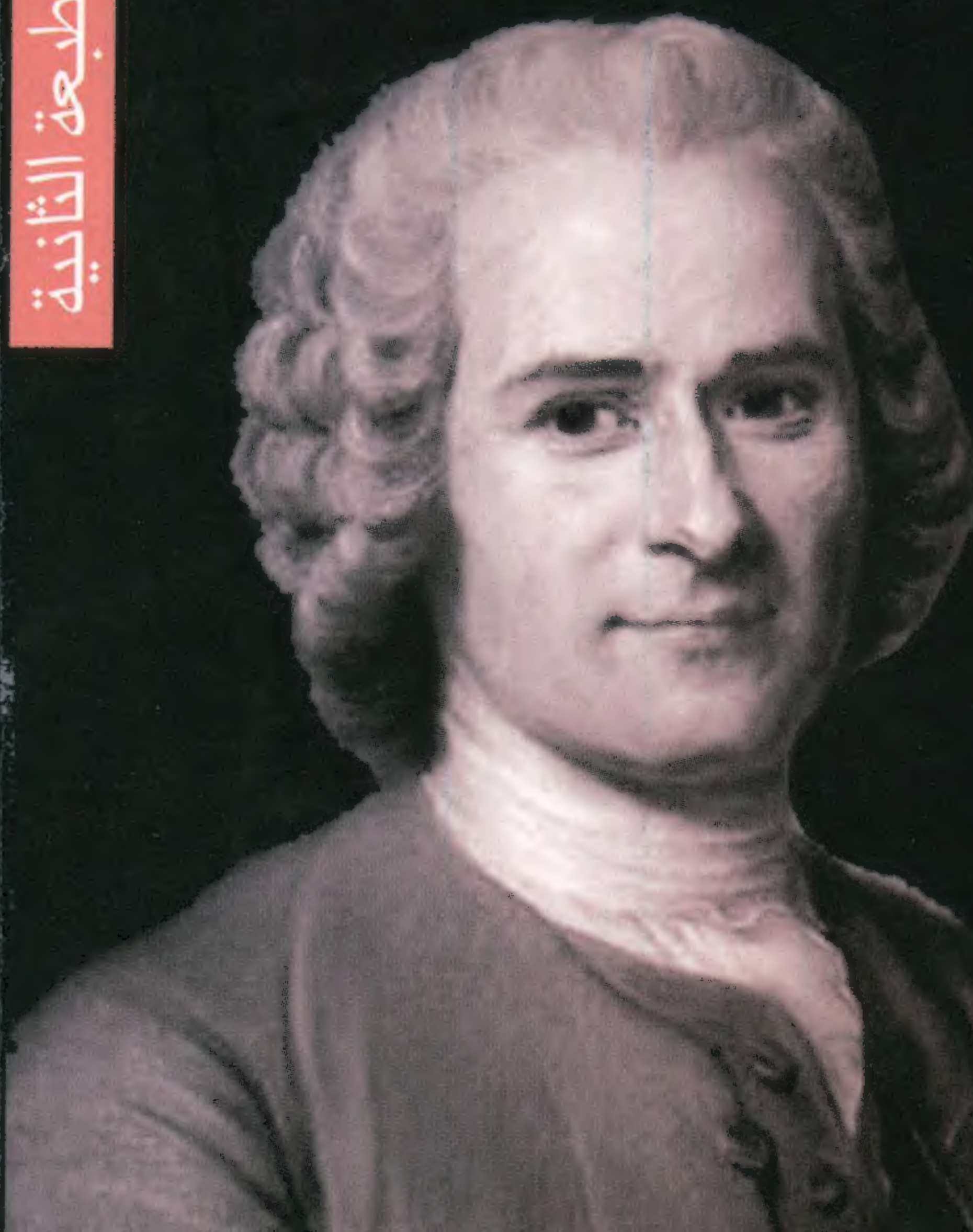
جان چاک روسو

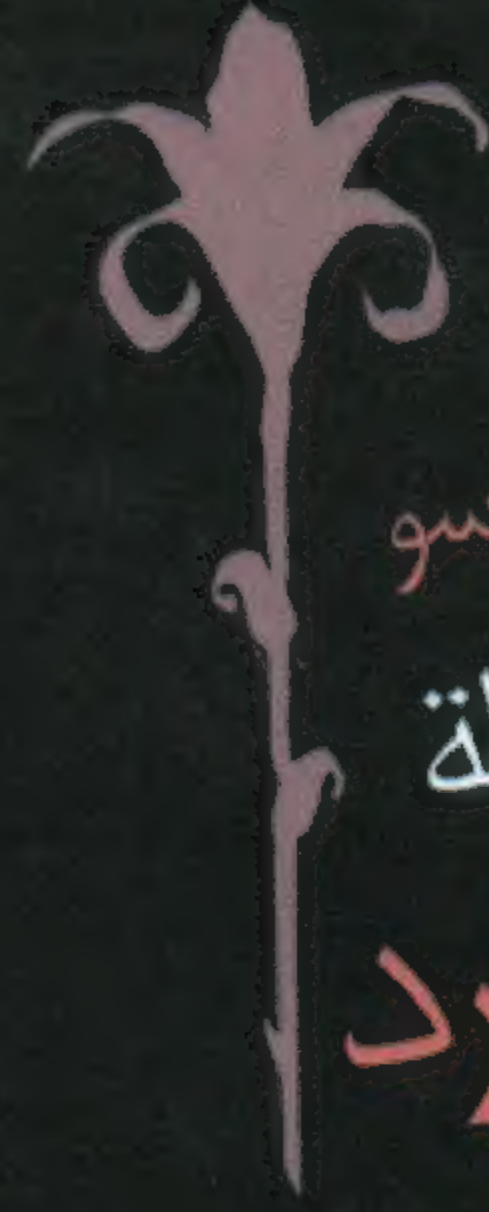
ميراث الترجمة

أعلام يقظة جواك منظر

ترجمة وتعليق: ثريا توفيق
مراجعة: صالح جودت

الطبعة الثانية





چان چاک روسو
أحلام يقظة
جوال منفرد

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب چان چاک روسو الجولة العاشرة من "أحلام يقظة جوال منفرد"، ولم يقدر له أن يكملها، كان ذلك في الثاني عشر من أبريل عام 1778 في يوم "عيد الفصح المزهر"، أي قبل وفاته بما يقل عن ثلاثة شهور؛ إذ إنه قضى في شهر يوليو من العام نفسه. هذه الجولات إذن هي مؤلفه الأخير، وآخر ما سجل من خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام 1776.

أحلام يقظة جوال منفرد

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٢ / ٩٤٥

- أحلام يقظة جوال منفرد

- جان چاك روسو

- ثريا توفيق

- صالح جودت

- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Les Rêveries du Promeneur

Par: Jean - Jacques Rousseau

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أحلام يقظة جوال منفرد

تأليف: جان چاك روسو

ترجمة: ثريا توفيق

مراجعة: صالح جودت



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٦٥٣ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولي: 1 - 389 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

تمهيد

يشير «جورج سارتون» (١) George Sarton الى انه « مما أفسد فهم العلم القديم كثيرا من الاحيان ظاهرتان من الاهمال الذي لا يمكن التسامح فيه. اما الظاهرة الأولى: فتتعلق باهمال العلم الشرقى فمن سداجة الاطفال ان نفترض ان العلم بدأ في بلاد الاغريق ، فان « المعجزة اليونانية » سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرها من الأقاليم ، والعلم اليونانى كان احياء اكثر منه اختراعا . والظاهرة الثانية: اهمال الاطوار الجغرافى الذى نشأ فيه العلم ، لا الشرقى فحسب ، بل اليونانى ذاته كذلك وكفانا سوءا اننا أخفينا الاصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعا بدونها » .

والواقع أن « سارتون » لم يحد عن جادة الصواب ذلك لان مشعل الحضارة فى الشرق الادنى القديم كان يرفعه ساعدان : بلاد ما بين النهرين من يمين ومصر من يسار ثم معبر فى الوسط . . هو سورية ازدوجت فيه الحضارتان وامتزجتا فأشعرتا على العالم القديم دهرا طويلا حتى أذن الله ان تنتقل الشعلة الى يد اليونان الذين نقلوها بدورهم الى اوربا . .

وقصة العلم — اذن — قصة واحدة طويلة لانستطيع ان ندرك فصولها الاخيرة ما لم نتفهم تماما المراحل التى مرت بها منذ البداية فنستوعبها ونتابع تطورها . وهى ليست قاصرة على قطر من الاقطار أو بلد من البلدان بل هى مشاع للانسانية قاطبة تنتقل بين شعوبها بوساطة الحروب حينما وعن طريق الهجرات والارتحال أو التجارة أحيانا أخرى ومن ثم كان «نقل العلوم على هذا الوجه وترجمتها من لغة الى لغة الوسيلة المشتركة دائما الناجحة أبدا » (٢). وقد شهد تاريخنا الثقافى ثلاث موجات من الترجمة

(١) راجع « تاريخ العلم » الجزء الاول — التمهيد ص ٢٠ و ٢١ ترجمة الاستاذ محمد خلف الله أحمد وآخرين .

(٢) تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ص ٥ : الدكتور جمال الدين الشيبان . .

الى العربية اولها في العصر العباسي . . وثانيتهما في القرن الماضي وآخرها
وهي التي نخوض غمارها اليوم .

اما الاولى (في العصر العباسي) فقد جاءت على دفعتين متلاحقتين،
اولاهما: قبل عصر المأمون وكانت تتضمن مجهودات فردية ، وثانيتهما : من
عصر المأمون وخلفائه وقد تمت الترجمة خلال هذه المرحلة تحت رعاية
الدولة عن اليونانية والسريانية والفارسية ، وكان ما نقل عن الاخيرتين
مترجمة أصلا عن اليونانية والسنسكريتية (الهندية) - كان معظم ماتمت
ترجمته علم وفلسفة ، ولم يظفر الادب الا بقسط ضئيل لعل أبرز ما فيه
كتاب «كلية ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية (وهذه بدورها
عن السنسكريتية) ولعل السر في ان حركة الترجمة لم تبدأ قبل العصر
العباسي - بصورة واضحة على الاقل - انه حين بدأ الاسلام ينتشر في
أنحاء العالم المعروف في القرن السابع الميلادي بدأ العرب يتزاجون مع
الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ولم تحدد معالم العصر الذهبي
للحضارة الاسلامية الا في عتقوان الدولة العباسية حين أقبل العلماء على
الترجمة عن اللغات الاجنبية(١) وعند هذه المرحلة بدأت معالم الحضارة
الاسلامية تتضح وبدأت شخصيتها تبرز فنشأت علوم اسلامية نتيجة لذلك
أضافت للعلم المعروف في هذه المرحلة الشيء الكثير وثبتت من دعائم ما كان
موجودا منه فعلا أو عدلت فيه طبقا لمقتضيات الظروف . . وعلى أثر ذلك
انتقل العلم الاسلامي - بفضل بروز المسلمين على العالم - يمد أشعته في
كل الآفاق حتى نهلت منه أوروبا فكان مبعث نهضتها . . وأما وسيلة ذلك
مرة أخرى فكانت الترجمة عن العربية ذلك لان مؤلفات المسلمين في مختلف
العلوم ترجمت في هذه المرحلة الى اللاتينية بخاصة (وهي لغة العلم في
أوروبا اذ ذاك) ، بل ودرست كتب العرب في جامعات أوروبا واعترف
بها كمرآة علمية لها قدرها . . هذا الى ان بعض علماء العرب كانوا
يقومون بالتدريس فعلا في بعض هذه الجامعات وبخاصة في ايطاليا -
وبرزت الاندلس بعلمائها قبيل هذه المرحلة وخلالها فظهر بها الكثيرون من
العلماء والمترجمين والناقلين الذين ترجموا من العربية الى مختلف اللغات
الاوربية وبخاصة اللاتينية كذلك .

وأما مصر فقد كان لها شأن آخر . . ذلك أنها كانت تمر - وبخاصة
في أعقاب الفتح العثماني - بمرحلة تدعو الى الأسى فضعفت الحركة
العلمية - أو خمدت - ويرجع ذلك الى أن القوة العثمانية « حالت بلا شك

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٧ - ١٦٢ .

دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الاجنبية عموما وبالحضارة الاوربية خصوصا ، (١) لا عن قصد بل لان الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الاعياء لم يكن الحكم العثماني قادرا على أن يزيله عنها فالعثمانيون كانوا قوما يأخذون ولا يعطون . . وكان تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح مما أضعف الصلة بين مصر وأوربا في هذه المرحلة اذ لم يعد يتردد عليها الا قلة من التجار همهم الاكبر كسب المال . . وأما نقل العلوم فقد توقف نهائيا . . وقد دعا هذا كله الى أن يسود الجهل جميع نواحي الحياة فلم يبق سوى الازهر يقوم على رعاية الدين وما يتصل به من علوم . . وهي ضئيلة قليلة بالغة التأخر مختلفة عن نظائرها في أوروبا . . بل أخذت تسيطر الخرافات على العقول حتى أصبح الايمان بالمعجزات يقوم عند الشعب - بل وعند العلماء مقام الدين . .

وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر وضاعت الدولة العثمانية بهذا الأمر وانزعج المماليك فقاوموا مقاومة المستيئس . . ولكنهم غلبوا على أمرهم . . ثم تدخلت إنجلترا حين عز عليها أن تترك مصر للفرنسيين لقمة سائغة . . وأما الشعب فقد تحرك كذلك فثار على الحكام الجدد ممن لا يرعون حرمة الدين ويمعنون في ارتكاب المساوي والشرور . . وقاوم الفرنسيون مدى ثلاث سنوات ثم اضطروا للانسحاب . ولكن هذه السنوات الثلاث كانت بالغة الأثر في حياة مصر :

صحبت الحملة مجموعة من العلماء توافرت على دراسة مصر وكانت ثمرة هذه الدراسة كتابها المشهور Description de l'Egypte واستطاعوا ان يجذبوا اليهم بعض شيوخ الازهر ويطلعوهم على جانب من علومهم وبحوثهم وأدواتهم وآلاتهم ثم عقدت بعض أوامر الصداقة بين بعضهم وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة ومن أشهرهم الشيخ العطار الذي كان « من أكبر علماء مصر الممتازين والذي لم يكن تضلعه في العلوم الدينية كتضلعه في الدراسات الادبية » (٢) والذي قال عنه علي باشا مبارك (٣) « واتصل بناس من فرنسا وكان يستفيد منهم الفنسون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية » وهو صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوي

(١) دكتور جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عهد الحملة الفرنسية ص ١٢٠ نقلا عن مقدمة كتاب « الشرق الاسلامي في العصر الحديث » للدكتور حسين مؤنس وهي المقدمة التي كتبها الاستاذ محمد شفيق غربال .

(٢) Lane: The Manners and Customs of the Modern Egyptians, P. 27

(٣) علي مبارك : الخطط التوثيقية ج ٤ ص ٢٨ .

زعيم النهضة العلمية الحديثة . وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون امام البعثة المصرية الى فرنسا ثم هو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه « تخليص الابريز فى تخليص باريز » .

كانت الحملة الفرنسية اذن - برغم قصر أمدها - نقطة تحول فى الحياة المصرية وكانت تحمل معها مطبعة هى « المطبعة العربية » أو « مطبعة جيش الشرق » أو « مطبعة الجيش البحرى » - كما كانت تسمى وهى فى طريقها الى مصر - وبدأت عملها والحملة تشق طريقها الى مصر بطبع منشور نابليون المشهور . . بالعربية . . وسميت هذه المطبعة فيما بعد بالمطبعة الأهلية وكان مقرها الاول دار عثمان بك الأشقر بالازبكية ثم نقلت الى الجيزة فالقاعة وأخذها الفرنسيون معهم عند ارتحالهم وحلت محلها فى عهد محمد على مطبعة عربية أخرى فى بولاق .

كانت الترجمة فى خلال الحملة أمرا ضروريا لضرورة التفاهم بين رجالها وبين المسئولين من قادة الشعب ورجال الديوان . وكان المترجمون من المالمطين أو المقاربة أو السوريين كما تعلم بعض شبان الاقباط الفرنسية وصحبوا الحملة فى عودتها ومن بينهم الياس بقطر صاحب القساموس الفرنسى العربى (١) .

وكان من رجال الحملة متخصصون فى الترجمة وكانت مكتبة المجمع عامرة بالآلاف الكتب ومن بينها كثير من الكتب الاسلامية مترجمة بلغتهم وقد طبعت بمطبعة الحملة مجموعة من الكتيبات القليلة المترجمة هى « وصايا لقمان الحكيم » وقد طبعت بالعربية ومعها ترجمة بالفرنسية ثم « محضر محاكمة سليمان الحلبي » وكذا « أجرومية اللغة العامية » ورسالة فى مرض الجدرى لكبير أطباء الحملة وترجمة الأب « رفائيل زاخور » وقد طبعت كذلك بالفرنسية والعربية .

وابتداء من عام ١٨٠٥ بدأت مصر تمر بمرحلة كانت ثمرة اليقظة الجديدة - وتمثل الموجة الثانية - فأنشئت المدارس ودعى المتخصصون لنشر العلم الاوروبى كما أنشئت المدارس الفنية وبدىء فى ترجمة الكتب المدرسية من الايطالية والفرنسية . ثم أنشئت مدرسة الألسن وعين رفاعة الطهطاوى أول ناظر لها وكان أول أهدافها القيام بأعمال الترجمة وتخريج مترجمين ليعملوا فى ادارة الحكومة ثم أوقدت البعثات الى فرنسا بخاصة

(١) الشيال : المرجع السابق ص ٦٣ .

ليعود منها المبعوثون ويتوافروا على ترجمة خيرة الانتاج العلمى هناك الى العربية . . وفى عهد عباس الاول حدثت نكسة فأغلقت مدارس الطب والهندسة واللغات كما ألغى مكتب الترجمة . . وبعد موته تابعه خلفه سعيد فى فكرته من ناحية « أن الشعب الجاهل يسهل حكمه » فألغى كذلك وزارة المعارف ومدرسة الهندسة ثم مدرسة الطب بعد ذلك بقليل لفترة ما . . . ولم يكن ليشجع حركة الترجمة . . . ودفعته الظروف بعد ذلك الى اعادة تعيين رفاعة الطهطاوى مديرا لقسم الترجمة بوزارة المعارف ثم لم تعد مدرسة الألسن مستقلة فأدمجت مع مدرسة الادارة التى عرفت فيما بعد باسم مدرسة الحقوق . . وكانت اللغة الفرنسية فى هذه المرحلة هى اللغة الاوربية التى تدرس فى المدارس الابتدائية والثانوية والخاصة وكانت ترجمة الكتب العلمية مهمة عاجلة فأنشئ مكتب للترجمة ووضع قاموس للمصطلحات الفنية بالعربية والفرنسية والانجليزية . . وأنشئ مكتب للترجمة بوزارة الحربية مستهدفا ترجمة القوانين العسكرية الفرنسية كما تمت ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب . . ولعبت مدارس الارساليات الدينية الاجنبية دورا هاما فى حركة الترجمة فى مصر وكان خريجوها يعملون فى الشركات والبنوك والادارات الحكومية . .

وقد بلغ عدد الاجانب المقيمين فى مصر عام ١٨٧٩ مائة ألف مما دعا الى انشاء مكتب للاوربيين عين به عدد من المترجمين المصريين . . وأسهمت المحاكم المختلطة فى حركة الترجمة مما دعا الى ترجمة القسطنطين المدنى والتجارى وقوانين الاجراءات والعقوبات . . وترجم رفاعة الطهطاوى - قطب رضى هذه المرحلة - كتابا فى الجغرافيا وآخر فى الرحلات وثالثا فى القانون التجارى الفرنسى وغيرها . وترجم غيره كتباً فى الرياضة والشئون العسكرية أو مختلف العلوم كالكيمياء والطبيعة والحيوان والتاريخ ثم الروايات والمسرحيات . . وترجمت قصص لافونتين La Fontaine الى الشعر العربى كما ترجمت رواية بول وفرجينى لسان بيير Paul et Virginie de Bernardin de Saint-Pierre وروايات اولييه Molière وروايات راسين Racine ولو أن ذلك كان تعريبا أكثر منه ترجمة دقيقة . . ويلاحظ انه بعد عام ١٨٨٠ سارت حركة الترجمة بخطى واسعة فتناولت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والادبية والعلمية .

وقبل الاحتلال الانجليزى كان التعليم فى المدارس بالعربية وكانت مدرسة الألسن مفتوحة الابواب لمن يريد اتقان اللغات الاجنبية . . وفى ظل الاحتلال أغلقت مدرسة الألسن وتوقف ارسال البعثات الى الخارج وتحول التعليم الى تعليم باللغتين الانجليزية أو الفرنسية وقل الاهتمام

بالعربية ثم نجح الانجليز في الغاء اللغة الفرنسية كلفة رسمية للتعليم في المدارس الابتدائية . . وان ظلت كذلك في مدارس الارساليات الدينية الاجنبية .

وظل الأمر كذلك حتى انكشفت الفحة قليلا فعادت اللغة العربية الى مكانها من التعليم كما ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى مجموعة من الأدباء دأبت على النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فترجمت مئات الكتب في مختلف العلوم والفنون والآداب مما تتطلبه حالة الدراسة بالمدارس أولا ، ومما تحتاجه الثقافة الشعبية ثانيا . وبرز في هذا المضمار جماعة ممن أتيح لهم حظ السفر الى الخارج فعادوا يقدمون للبلاد ثمرات دراساتهم .

وكان انشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ خطوة جديدة في هذا المضمار فدأب أساتذتها على محاولة القاء دروسهم باللغة العربية برغم ما لقوا في سبيل ذلك من عنت حتى أصبحت الكليات النظرية تقوم الدراسة فيها أساسا بلغة البلاد .

وبقيام الثورة دخلت البلاد في مرحلة جديدة من هذا التطور الفكرى والثقافى فكان من بين ما استحدثته في هذا المضمار مشروع « الألف كتاب » الذى يستهدف نقل أمهات الكتب الى العربية وتشجيع الترجمة على أوسع نطاق واعادة فتح مدرسة الألسن لتعليم اللغات الاجنبية ثم التوسع فى ايفاد البعثات الى الخارج، وأخيرا تكوين لجان من اساتذة الجامعات لترجمة أمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون توطئة لتعميم التعليم فى الكليات العملية باللغة العربية . . . وشجعت البلاد أخيرا حركة الترجمة اذ أنها أمر ضرورى ولان العالم وحدة متكاملة وأن علينا أن نطلب « العلم ولو فى الصين » وأن الشعوب التى تطمح الى المجد يجب أن تكون على اتصال وثيق بمختلف ألوان الحضارات وأن هذا لا يكون ميسورا الا بمطالعة ما ينشر باللغات الاخرى وهكذا نجد المطابع لا تفتأ تقدم ألوانا من الثقافات والمعرفة تيسرها أحيانا للعامه من ذوى الثقافات المتوسطة فى كتيبات رخيصة غزيرة المادة ميسرة الاسلوب وأحيانا أخرى للخاصة فى مجلدات ضخمة تنشر نواحي العلم الحديث حتى يفيد منها المجتمع بمختلف طبقاته .

ولكن اذا كانت ترجمة العلوم فى العهد الحاضر لم تكد تخطو خطوة الا على أيدي أساتذة الجامعة الذين أرادوا أن يقدموا لطلابهم موادهم العلمية مطبوعة فى كتب ، والا عن طريق وزارة الثقافة التى من أهدافها الكثيرة الكبيرة نقل أمهات المصادر العلمية كلها فى خمس سنوات . . فان ترجمة

الآداب لم يكثر هذا شأنها دائما اذ نهض بجزء كبير منها هواة . . . وهو أمر طبيعي . . . فلا ينقل الادب الا محبوبه . . . ومع ذلك فالنارق واضح بين ترجمة أدبية يقدمها محب لها شغوف بهسا وبين ترجمة أدبية تجيء عن تكليف فتخرج باردة ، أو فاترة على الاقل ، ومن ثم اختلفت الموازين في ترجمة كتب الادب بخاصة اختلفا بينا . . .

والترجمة من لغة أوروبية الى أخرى أيسر من غير شك من الترجمة من لغة أوروبية الى لغة شرقية ذلك لان أصول اللغسات تتقارب في الاصل وتباين في الثانية فالترجمة من الفرنسية الى الاسبانية أو الايطالية مثلا أيسر من الترجمة من الفرنسية الى الانجليزية أو الالمانية وكلاهما أيسر من الترجمة الى العربية . . . ذلك لان الفرنسية والاسبانية والايطالية يمكن ارجاعها الى أصول لاتينية حتى أن مفرداتها تكاد في أحيان كثيرة تكون واحدة بل وكذلك التركيبات والصياغة . . . والانجليزية تجمع بين الاصول اللاتينية والجرمانية . وأما مجموعة اللغات الغربية فبعيدة كل البعد عن مجموعة اللغات الشرقية من ناحية الالفاظ ومن ناحية التراكيب معا .

واللغة العربية لغة عرفت بأنها غنية بمفرداتها غنى يستلفت النظر وهذه صعوبة جديدة لان تحديد اللفظ المناسب الدقيق في هذه الحالة من العسر بمكان كبير في أحيان كثيرة ومن الاستحالة في أحيان أخرى ولكن برغم وفرة الالفاظ نلتقى في اللغة العربية بصعوبة بارزة فالتواحي المعنوية الفنية أو العملية تشح فيها الالفاظ حتى لتكاد تستحيل التفرقة بينها . وبرغم ذلك فقد حرصت تماما وبقدر ما وسعني ذلك على المحافظة على روح النص ومعناه بل ومعناه أيضا وهو قصده في هذه الترجمة فهي ليست ترجمة حرة أقدم بها النص على الصورة الميسرة التي قد يلجأ اليها المترجم أحيانا بل هي ترجمة مقيدة بروح الكاتب ملتزمة بأسلوبه بقدر الامكان .

هذا الى أن روسو نفسه يميزه عن غيره من الكتاب أسلوب خاص به ومفردات معينة . . . فأسلوبه يتسم بصيغ فعلية يداب على استعمالها أحيانا حين لا تدعو الضرورة الى ذلك . . . وهو أسلوب تنعكس عليه في مظهر واضح العاطفة والحساسية المرهفة التي هي من خصائصه ككاتب . كما انه ينحو ناحية التعبير عن الماديات بالفاظ معنوية أحيانا لا تتفق مع المادية التي يتناولها في تعبيره عنها أو هو يسوق أحيانا صفات بعيدة كل البعد عن المنطق التحليلي للفكرة التي يقدمها وما تستلزمه من ألفاظ محدودة حتى نلتقى ببعض هذه الالفاظ

التي تبدو متعارضة مع بعضها لأول وهلة أو التي تقدم صفات لا يمكن أن تعطى صورة حقيقية – بمعناها اللفظي – لما يراد التعبير عنه . وقد حرصت برغم ترجمتي لهذه الالفاظ على الصورة التي أوردتها الكاتب على أن أنتقى أقربها مما يحقق ما يريد التعبير عنه بقدر الامكان .

وأرجو بذلك أن أكون وفقت لترجمة « أحلام يقظة جوال منفرد » على الوجه الذي يرضى روح الكاتب وأن أكون بذلك قد أضفت الى (الترجمة العربية) صفحة من الادب الفرنسي لم تسبق ترجمتها من قبل .

منذ أكثر من مائة وثمانين عاما كتب جان جاك روسو
 Jean-Jacques Rousseau الجولة العاشرة من
 « أحلام يقظة جوال منفرد » ولم يقدر له أن يكملها .
 كان ذلك في الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .
 في يوم « عيد الفصح المزهر » ، ٠٠٠ أي قبل وفاته بما
 يقل عن ثلاثة شهور اذ أنه قضى في الثاني من شهر
 يوليو من العام نفسه .

هذه الجولات اذن هي مؤلفه الاخير وآخر ما سجل من
 خواطر وخلجات سجلها ابتداء من ربيع عام ١٧٧٦ .
 كتب الاربعة الاولى منها في عامي ١٧٧٦ و ١٧٧٧ (١)
 وكتب الاربعة التالية في عام ١٧٧٧
 وكتب الجولتين الاخيرتين فيما بين يناير ١٧٧٨ حتى
 الثاني عشر من ابريل من العام نفسه .

(١) اختلف من تناولوا التعليق على حياة روسو في التحديد
 الزمني لكتابة هذه الجولات ولكنني ارى ان ما أورده M. Monglond
 في كتابه P. 30 Vies Préromantiques برغم محاولة L. Courtois
 Chronologie de Rousseau تصحيح بعض هذه التواريخ
 يتفق وما أورده Henri Roddier في كتابه عن جان جاك روسو
 (وهو آخر ما ظهر في هذا الصدد) على الاقل من ناحية تاريخ البدء
 في كتابة هذه الجولات وتاريخ الانتهاء منها .

وترجمة هذه الجولات والتعليق عليها من ناحية الظروف التي أحاطت بكتابتها ومن ناحية موضوعها ومغزاها ومن ناحية أهميتها كعمل أدبي هو ما أعرض له في هذا البحث .

لما كانت « أحلام يقظة جوال منفرد » *Les Rêveries du Promeneur* آخر ما كتب روسو في حياته تتصل اتصالا وثيقا بهذه الحياة وتبين عن نواحي نفسية الكاتب الكبير بما فيها من قوة وضعف ، من بساطة وتناقض ، هي خلاصة خمسة وستين عاما قضاهما بين مد وجزر يتأرجح بين السعادة والشقاء ، يتنوق حلاوة الاستقرار حينما ويتشرد ضاربا في الأرض أحيانا كثيرة ، تسلط عليه أضواء الشهرة والمجد مرة وسيطاط الاضطهاد والاذلال مرات ، فقد وجدت لزاما على ، إذ أقدم للقارئ العربي هذا المؤلف مترجما الى اللغة العربية ، أن أستعرض معه مراحل صاحبها المختلفة بحلوها ومرها ، بما تخللها من أحداث شكلت ذاته وتركت انطباعاتها غائرة في نفسه عميقة الأثر وبما أنتج خلالها من كتابات هي وليدة تلك الانطباعات وتلك النفس .

حياة روسو وأثرها في إنتاجه الأدبي

نشأته وطفولته :

أما طفولته فمريرة قاسية : منحته أمه الحياة ثم لقيت ربها بعد ذلك بثمانية أيام حتى أن روسو كان يقول فيما بعد « كان مولدي أولى تعاساتي » فكفله أبوه اسحق روسو *Issac Rousseau* وكان صانع ساعات فكان يرى في طفله صورة زوجه التي فقدتها يذرف الدموع سخية كلما قبله وكلما ذكرها . ولما بلغ روسو السادسة أخذ أبوه يعوده القراءة فكانا يقرآن الروايات والقصص يصرفان الليل جله في ذلك حتى شروق الشمس فينهض الأب خجلا من نفسه ويعتذر لابنه في استحياء بأنه « أشد منه طفولة » . كان لتلك القراءات غير المنتظمة ومن بينها قراءة بعض مؤلفات مولير *Solitaire* وتاريخ الأباطورية والكنيسة وحياة مشاهير الرجال لبـلوتارك (١) *Plutarque* كان لها أثرها في اذكاء خيال روسو الطفل وبخاصة كتاب « بلوتارك » الذي تأثر به أيما تأثر وأورد ذكره في مستهل « الجولة الرابعة » إذ يقول « من بين الكتب القليلة التي لا تزال أقرؤها

(١) بلوتارك مؤرخ يوناني قديم كتب عن حياة مشاهير الرجال وترجمت كتبه الى اللغة الفرنسية .

أحيانا كتاب « بلوتارك » الذى يشدنى اليه ويستغرقنى أكثر من غيره لقد كان أول ما طالعت فى طفولتى وسيكون آخرها فى شيخوختى . وهكذا كان قلب روسو وعقله يتفتحان على عالم عظيم يجده فى ثنايا تلك الكتب العظيمة فى حين الصغار من سنه يمرحون ويلعبون . وكانت له عمه أيضا تحنو عليه تعنى به وتعنى له وكانت « ذات صوت عذب رخيم » فكان لأنغامها الرقيقة الحنون وأثرها فى أرهاف حسه بل انه يقول : ان ذلك كان مبعث ولعه بالموسيقى فيما بعد . وهكذا شب روسو وقد تهيأت له عوامل تذكى خياله وتوقد حساسيته : قراءات وأنغام وحنان ، فظل طيلة حياته يبحث دون طائل بين الناس عن المثالية والفضائل العظيمة التى طالعتة فى أبطال « بلوتارك » ويفتقد حنانا دافئا تفتحت حواسه وقلبه عليه . .

ولكن كان الأب على شىء من الاستهتار بالمسئولية وعلى شىء من النزق فارتكب مخالفة خشى أن يسجن على أثرها فاضطر الى الهرب من جنيف Genève بعد أن عهد بالطفل الى خاله برنار Bernard وهكذا حرم الطفل المسكين أباه وأمه . ولكن ذلك الحال ما لبث أن ضاق بروسو فعهد به وبابن له كان يناسب روسوسنا الى معلم يدعى لامبرسييه Lambercier وهو قسيس بروتستانتى يقيم بالريف فى قرية بوسى Bossey

قضى روسو فى كنف ذلك القس عامين يعدهما أسعد سنوات طفولته تعلم فيهما كيف يصلى لله ويمجده الى جانب مبادئ الدين التى ميزته فيما بعد عن فلاسفة القرن الثامن عشر الملحدون . . وفيهما أيضا استيقظ فى نفسه المرحفة حب الطبيعة الحلوة المنعزلة ذلك الحب الذى جعل منه « أكبر مصور للطبيعة عرفته فرنسا حتى نهاية القرن الثامن عشر » (١) فكتب فيها أجمل صفحاته وأخلدها لاسيما فى أحلام اليقظة Les Rêveries

وكان للقس أخت تخطت سن الثلاثين كانت تعنى بتهذيبه وتعهد الى الضرب أحيانا ولكن روسو كان يجد فى عقابها على هذا النحو لذة فتعلق بها تعلقا لا يدرك هو نفسه له تفسير كما كتب فى الاعترافات Les Confessions بعد خمسين عاما من ذلك . أفكان يبحث فى شخصها عن الأم وحنانها ولذة عقابها وقد حرم ذلك كله ؟ أم هى حواسه تفتحت واستيقظت قبل الأوان ؟

وعلى أية حال فان ذلك النوع الخيالى من الحب ، ذلك النوع غير المحدد منه ، هو الذى تخلل حياة روسو وكان له اثره فى علاقاته مع النساء وفى كتاباته على السواء .

لكن لم يطل مقامه هناك بعد أن اتهم بكسر مشط للآنسة « لامبرسييه Melle Lambercier وكان ذلك نذيرا بتسركه للذمار اذ أصر على الانتكار فاعتبر ذلك كذبا من ناحيته واضطر الى العودة الى خاله وكان ذلك مبدأ نحس طويل . . ظل فترة دون عمل ولم يكن هناك من يهتم به ويرعاه . ثم أرسله خاله الى أحد الكتبة العموميين لكنه لم يفلح ، ثم وجهه الى حرفة النقش على المعادن ولكن معلمه كان قسيسا غليظ القلب بثت معاملته الفظة للطفل فى نفسه بعض الرذائل كالغش والكذب والسرقة ، كان يعاند ويغالى فيها ، كلما زادت تلك المعاملة سوءا . . وفى ذلك الوقت أيضا أخذ ينتج من جديد نحو الكتب : الطيب منها والخبيث على السواء ويتفق فى ذلك ما يحصل عليه من معلمه من تقود زهيدة كما كان يخرج للتنزه مع رفاق له خارج المدينة كان يعود منها متأخرا فيشبعه معلمه لظما ولكما . ولكنه لم يصبر على الضيم والمهانة وأخذ يتحين أول بادرة للخلاص . . فما أن غاد يوما من الغابة ليجد أبواب المدينة وقد أوصدها الحراس حتى أقسم ألا يعود ، وقضى الليل خارج الاسوار . . وفى الصباح قرر الفرار الى غير رجعة . . وفى تلك اللحظة انتهت مرحلة من عدم الاستقرار . . طابعها التشرد والحرمان . . حرم فيها الابوين وحياة الأسرة . . وذاق من متاعب الفاقة والنحس ما يتوء به رجال أشداء . . وهو لا يزال فتى طرى العود فى عامه السادس عشر . .

ها هو ذا روسو وحيد فى بيداء الحياة . . أما خاله برنارد Bernard فقد ارتاح لخصه منه وأما أبوه فقد شرع فى البحث عنه لكنه كف بعد قليل كرجل لا يهتم من الدنيا الا أمر نفسه .

أفمن الغريب بعد أن قاسى الفتى ما قاسى أن يرتكب فيما بعد ما ارتكب من هفوات حيننا ومن أخطاء جسيمة أحيانا . . أو ليس ظلما أن نحاسبه عليها ، كما نحاسب من تهيأت له سبل الحياة وسارت به سهلة ميسورة فانحرف ؟ أياكون ذلك عدلا منا ازاء من ترك لنفسه فى تلك السن الباكرة بلا هاد ولا مرشد أمين يتيما فقيرا شريدا خاوى الوقاض الا من قلب ذكى وحس مرهف ؟

شبابه :

سأقته قلبها عبر الريف الى قس يدعى دوبونتفير De Pontverre فتلقاه مرحبا وأكرم وفادته ثم حدثه عن «الكاثوليكية» ودعاه الى اعتناقها مبينا مزاياها ومساوى البروتستانتية ، دين أهل جنيف ثم بعث به الى سيدة محسنة كانت قد تحولت هي الأخرى الى الديانة الكاثوليكية وأخذت على عاتقها « انقاذ بعض الارواح المخطئة »

تلك كانت مدام دو فواران Mme De warens التي خصها روسو بـ « الجولة العاشرة » من « أحلام اليقظة Les Rêveries والتي اعتبر روسو الإقامة في كنفها وبخاصة في « الشارميت Les Charmettes » أسعد فترة في حياته ، بل أيامه التي عاشها حقا .

ويعتبر ذلك اليوم الثاني عشر من ابريل من عام ١٧٢٨. كما يذكر روسو في تلك الجولة « يوم عيد الفصح المزهري ، نقطة البداية .. بداية كل شيء .. بداية الشباب وفورته .. بداية الآمال .. بداية الآلام .. أى بداية تعلم الحياة ومعرفتها .. »

ذهب إليها كما أوصاه دوبونتفير De Pontverre متوقفا أن يلقي عجزا متعصبة لكنه ذهل اذ أبصرت عيناه سيدة في الثامنة والعشرين ذات حسن وضاء وعينين زرقاوين جميلتين ولون باهر وعنق ساحر .. ذات ابتسامة ملائكية وفم صغير وشعر نادر نوع جماله .. وعندئذ اعتقد في يقين ان « دينا يدعو اليه مثل أولئك الرسل لا بد مؤد الى الجنة .. »

أما هو كما يسجل في « الاعترافات » فيما بعد فكان يومئذ في « منتصف السادسة عشر من عمري ومن غير أن أكون شابا جميلا كنت منتظما القامة جميل القدم دقيق الساق حي الوجه صغير الفم فاحم لون الشجر صغير العينين غائرهما ولكنهما كانتا شديدتى البريق تقذفان كل ما في دمي من حرارة »

علق روسو بالسيدة منذ النظرة الأولى وارتاح اليها ورغب من صميم نفسه لو انه أقام لديها لكنها لم تتركه سوى أيام نصحته بعدها بالتوجه الى تورين بإيطاليا Turin الى دير يجد فيه الملاذ .. فقصده الى هناك مزودا بنصح السيدة وبمبلغ يسير من المال .. ما لبث أن نفذ بعد قليل فدخل الدير ليفقد ثقته بالوعاظ ورجال الدين لما لقيه من غرائب تنفر منها النفوس فكرههم كرها نصحت به كتبه وخاصة « الاعترافات » Les Confessions « وأحلام اليقظة Les Rêveries » واعتبر الدير

سجننا لا بد من الأقلات منه وفعلا انطلق منه ولم تتجاوز اقامته فيه شهرا واحدا بعد أن كفر بتعاليمه وبمن فيه .

خرج من الدير باحثا عن مأوى وعن مورد يعيش منه . . فتدرج في ألوان من العمل منها الخدمة في المنازل ومنها خدمة سيدة ايطالية جميلة تدعى مدام بازيل Mme Basile سرعان ما أعجب بها وأحبها فلما أحست منه ذلك صرفته ، وبعدئذ انتقل الى دار سيدة تدعى مدام دوغرسليس Madame De Vercellis وهناك أخفى شريطا القى تهمة اخفائه على خدام تدعى ماريون Marion ، وهذه احدى الحوادث التى ظلت تؤرقه طيلة حياته حتى ليذكرها فى الصفحة الأولى من « الجولة الرابعة » اذ يسميها « الأكتوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى شبابه الباكر والتى ظلت ذكرها تكدر صفوى طوال حياتي . . » وكان من نتائجها أن طرد هو وتلك الخادم من تلك الدار . .

ومن بعدها التحق بخدمة الكونت دو جوفون Co mtre De Gouffon فى مدينة تورين Turin ما لبث أن غدا صديقا لابنه وكاتب سره وساعده . ذلك على اتقان اللغة الايطالية وعلى اكتساب معلومات كثيرة نافعة . . وكان موضع الرعاية فى تلك الدار فعادت اليه ثقته بنفسه حتى أنه أضحى يدرك أنه لم يخلق ليخدم فى المنازل . . فترك عمله به عائدا أدراجة الى آنسى Annecy بسويسرة فاستقبلته مدام دو فواران فى ود مرحبة فقر قراره عندها تدعوه صغيرى ويدعوها « أمى Maman ، يلاطفها ويحبها بل ويقدمها ولا غرو فقد أصبحت له أما وحببية على السواء . . وعوضته حنانا فى أمه فقدته وحبا ملاً عليه فراغ شبابه وحسه .

عاش روسو مع « أمه » يتعلم الموسيقى وينهل المعرفة من الكتب من جديد . . ويراه قس هو قريب لمدام دو فواران فيقضى بأنه لا يصلح الا أن يكون « قسا فى قرية » فترسله الى معهد دينى فى البلدة ليخرج منه بعد قليل دون فائدة تذكر ثم تعهد به الى رئيس موسيقى كاتدرائية البلدة ويدعى مسيو لومتر M. Lemaître ولم يستفد منه كذلك وكأنما لم يقدر لروسو أن يتلقى العلم على معلم طوال حياته . . وحدث أن اختلف لومتر Lemaître مع رجال الكاتدرائية فاضطر الى السفر الى باريس وصحبه روسو فى سفره يعينه على نقل متاعه لكنه تخلى عن أستاذه فى منتصف الطريق على أثر نوبة عصبية كانت تعاود الموسيقى نتيجة لأذمانه السكر . وبعد روسو حادثة تركه له جريمته الثانية بعد حادثة سرقة الشريط ، أنه ضميره طويلا عليها . . وهكذا كان روسو

متضاربا في تصرفاته يأتي الخطأ ليعذبه بعد ذلك نفس ذلك الخطأ . . وهو يفسر ذلك بقوله : « يجتمع في شيئين متضادان أو يكادان ، لا يستطيع أن أعقل اجتماعهما : فاحساس شديد وعواطف قوية وشهوات متحكمة تقابلها أفكار بطيئة التبين لا تظهر الا بعد زمن فكانما في قلب رجل وعقل رجل آخر ، . ويعود بعد ذلك الى آنسى Annecy فلا يجد «مدام دوفواران» فيأخذ في التجول وسط الطبيعة مستغرقا في أحلام لا تنتهي . . ويتعرف بفتيات وينساء لم يكن لهن أثر قوى في حياته .

ويهم روسو في الحياة طارقا أبوابها ، فقيرا خالي الجيب ، فيعمل مترجما لقسيس ايطالى ثم سكرتيرا لأحد الشبان المشتغلين بالوظائف العسكرية ثم ناقلا للموسيقى . وأخيرا يعلم بمقام مدام دوفواران تشامبرى Chambéry فيعود اليها ملتقيا في الطريق بفلاحين بلغ بهم البؤس أقصاه ، أثقلتهم الضرائب وظلمهم نظام اجتماعي فاسد فتأثرت نفسه وقدر لهذا التأثير أن يجد متنفسا في كتاباته فيما بعد . .

عاد روسو « أمه » ليجد عندها كلود آنيت Claude Anet خادما وخليلا . . ومع ذلك فقد أقام عندها سنوات ، يموت أثناءها كلود آنيت ويصبح هو الصديق والمدبر لشئونها بعد أن وهبته نفسها ، « درءا له عما قد توقعه فيه سنة عندئذ في هاوية الشهوات ، على نحو ما قال .

كان روسو في تلك الفترة سعيدا قرير العين . . وكانت حياته بالريف داعية لاستسلامه للطبيعة والاحلام وحب النباتات الى جانب سعيه في ميدان الموسيقى والعناية بدراستها . . ولعل الصفحات التي كتبها عنها هي من أبداع ماسطر خياله وقلبه معا فهي « جنته التي عاشها على الأرض » وكذلك في « الاعترافات » : هنا تجيء اللحظات السعيدة الهادئة التي تجعلني أقول اننى حييت . . ايه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها . . الا عودى فيعود معك الهناء . انسايبى في ذاكرتى ان استطعت أكثر بطئا مما كنت في سرعة مرك . ما عساي أعمل لأطيل كما أريد هذه الذكرى البسيطة المؤثرة ولأقول وأعيد الأشياء نفسها ولا يعل قارىء من اعادتها كما لا أمل أنا من استعادة ذكراها .

واستقر رأيهما بعد ذلك على الاعتزال في الريف فأقاما في الشارميت les Charmettes في ربوع الطبيعة التي أحبها ينهل من محاسبتها فتغذى خياله واحساسه ، يجنى الزهور ويرتاد الغابات والوديان كما يقرأ في الفلك والنجوم والطب والفلسفة .

لكن انغمسه في تلك السعادة لم يمنع عنه زائرا بغيضا . . وهو

المرض .. وهو لما يزل في الخامسة والعشرين انتابته بعض العلل الحقيقية وبعض الآخر توهم أنه مصاب به ، كمرض القلب ، فسافر للعلاج .. وتقابل في الطريق بمدام . دولارناج ، Madame De Larnage وهي سيدة قاتنة عطفت عليه فأصاب عطفها القلب فهام بها حبا وقال فيها « لولا مدام دولارناج لمت من غير أن أعرف اللذات ، مما أنساه مرض القلب فكر راجعا بعد أن نسي حبه أو تناساه ، وهكذا حال الفنانين لا يثبت لهم حال ولا يقر لهم قرار .. عاد ليرى مدام دوفواران وقد استبدلته برفيق آخر وتقابله ببرود وجفاء لكنه بقي حتى لقي من الاغضاء عنه والامتعاض ما نفذ معه صبره فسافر مزودا بتوصية منها الى ليون Lyon بفرنسا حيث عمل مربيا ثم استقال ليعود الى السيدة ليجدها وقد تدهورت حالتها المالية وتراكت عليها الديون . ففكر في مشروع جديد يعبر فيه عن السلم الموسيقى بالأرقام لعله بذلك ينال مالا يعين به «أمه» ثم سافر الى باريس حتى يعرضه على الاكاديمية هناك .

روسو في باريس :

كان في التاسعة والعشرين عندما قدم باريس مزودا بخطابات توصية الى جماعة من كبرائها ولم يكن يملك سوى خمسة عشر جنيها واقتراحه بشأن رقم الموسيقى ورواية مسرحية سماها نارسيس Narcisse ... فشل مشروع الموسيقى بعد أن فحصته لجنة من أكاديمية الفنون .. لم يدر عليه مالا ولكنه جعله يتعرف الى عدد من رجال الادب المشهورين مثل ماريفو Marivaux وديدرو Diderot وفونتنيل Fontenelle ثم عرف طريقه الى نساء المجتمع لعله ينجح عن طريقهن كما أوصاه البعض فتعرف على مدام دوبين Mme Dupin التي كتب باسمها رواية موسيقية أسماها عرائس الشعر الرقيقات Les Muses Galantes ثم شق طريقه بوساطة صديقاتها الى العمل بالبنديقية في سكرتيرية القنصلية هناك ولكن لم يرق له العمل فعاد الى باريس ليلتقى في نزل بامرأه جديدة هي « تريز لوفاسير Thérèse Levasseur » التي شاء سوء طالعه أن تعايشه وترزق منه بأطفال ، في بعض الآراء .. كانت تمتهن تنظيف الملابس وغسلها وكانت أمها تاجرة صغيرة في أورليان Orléans وكانت لها بساطة أهل الريف وسذاجتهم .. ومن عجب أن جان جاك روسو وجد فيها من تكمله وهي التي قال عنها « ولست أخجل حين اعترف أنها لم تحسن أبدا القراءة وان كانت تكتب كتابة مقبولة .. ولما أقمت في شارع (..) كان مقابل نوافذى ساعة كبيرة جهدت أكثر من شهر لأعلمها

فيها معرفة الوقت وهي الآن لا تكاد تعرفه .. وما استطاعت يوما أن تفهم نظام الاثنى عشر شهرا السنوية .. وهي لا تعرف رقما واحدا برغم المجهودات التي أنفقت لفهامها الأرقام .. فلا تعرف عن النقد ولا ثمن شيء ما .. والكلمة التي تنطق بها هي في أغلب الأمر عكس ما تريد أن تقوله على أنها برغم مبلغها هذا من الغباء بل ومن البلادة ، اذا شاء القارىء، فلها نصائح ثمينة في أخرج الاوقات .. »

تلك هي المخلوقة التي شاء القدر أن يضعها في طريق روسو لتعاشره ما بقى من حياته وليعزى اليها أنها هي التي ساقته الى ما بلغه من اضطراب نفسى وذهنى وأنه لولاها لما بلغت حاله تلك من السوء ما بلغت .. وكانت أمها تستغل علاقتها بروسو فلا يكاد تحس بالمال بين يديه حتى تغير على البيت مع أخوتها وبناتها وأبائها وحفدتها لتستنفد رزقه الضئيل .. وقد رزقت تريز بخمسة من الابناء التي بهم في ملجأ اللقطاء ، واعتذر روسو عن جريمته بمعاذير شتى منها.. انه كان يخشى أن ينشأوا في كنف أم هي تريز ، وبين عائلة هي عائلتها فتساء تربيتهم وذلك لعجزه عن القيام على تربيتهم بنفسه ، كما دافع عن نفسه في « الجولة التاسعة » من « أحلام اليقظة » ، اذ يسرد مثلا ما فعله محمد مع سعيد ولكننا لا نعرف من هو سعيد هذا ولم يرد في السيرة النبوية ما ينسب بآن محمدا صلى الله عليه وسلم حرض شخصا يدعى سعيدا على اتيان ما يخالف الشريعة والأخلاق .. لكن محمدا ظلمه الكتاب المتعصبون فكتبوا عنه مفترين ويبدو أن روسو الذي استقى كل معلوماته عن طريق القراءة السريعة بلا تمحيص ولا سعى وراء حقيقة .. يبدو أنه ساق المثل ، قاداته اليه باطيل وافتراعات ، محمد الرسول منها براء .

ومهما كان من أمر روسو ومن دفاعه عن نفسه في « الجولة التاسعة » وفي غير « أحلام اليقظة » كذلك فإن ذكره أمر أطفاله وإهماله الشنيع لهم وهو على شفا الموت يستعد لملاقاة ربه . كان بلا ريب صادرا عن أسف عميق وندم واحساس بالجرم أليم ..

ولكن المؤرخين والنقاد لم يعفوه رغم ذلك .. بل ذهب البعض الى القول بأنه كان كاذبا لأنه كان مريضا باحتباس في المثانة ومن ثم فإن مرضه أعقمه فهو لم يتورط في هذه الجريمة ولم يرزق بأطفال .. وانما ألجأه للكذب شدة ميله للنساء اللواتي ان عرفن عنه العقم انفضضن من حوله .. وقال آخرون انه لم يشر في « الاثراقات » ولا في « أحلام اليقظة » الى أنه رأى أبناءه وانما قال ان أم تريز هي التي كانت تخبره بحمل ابنتها

وتأخذ على عاتقها ايداع الطفل في « ملجأ اللقطاء » .. ويعزز هذا القول أن واحدة ممن اتصلن بتريز لم تشر مرة الى حملها وانما كن يعلمن بأبناء روسو منه نفسه وليس من طريق آخر .. والرأى الثالث هو أن تريز حملت فعلا ولكن ليس من روسو ومن ثم فجريمته أقل نكرا .. ومهما يكن من أمر فان روسو نفسه يكاد يكون لقيطا .. لم يعرف أمه .. ولم يستظل بعطف أبيه فهو يتيم مشرد في طفولته .. لم يحس بعاطفة أبويه .. فلئن صح أنه كان أبا فليس بعجيب أن يودع أبناءه « ملجأ اللقطاء » لأنه نفسه لم يتنوق طعام « البيت » .. كما أنه يشير الى أنه كان يلقي شبانا في مطعم الأوبرا فيفخر الواحد منهم بأنه « أكثر من غيره الهاما في تعبير « ملجأ اللقطاء » .. وكان هؤلاء الشبان موضع الاعجاب .. فقلت في نفسي : ما دامت تلك عادة البلاد ففى وسع الانسان اتباعها ما دام يعيش فيها .. وكذلك اخترت هذه الطريقة وصممت على تنفيذها بلا اكتراث ومن غير أن يعرفونى هم ..

ولكن من عجب أن حياة روسو انتظمت نوعا ما فى قرب تريز فاستسلم للعمل المجدى .. وأنتج أعماله الأدبية جميعا ..

تعرف روسو بعد ذلك الى مدام دابنای Mme D'Epinaى وكانت موسيقية قادرة .. وسهل له ذلك التعرف بـ مدام دودتو Mme D'Houdetot

كانت صلات روسو بهذه الطبقة الجديدة أمرا ذا أثر ملحوظ فى حياته .. كان الأدب الدينى قوام أمهات الكتب فى ذلك العصر وكانت الاشادة بالكثلكة هدفه وكان الملك رمزا للتدين وكان هم الشعراء والكتاب امتداحه والزلفى له .. ولكن لم يكد يمضى عصر الملك لويس الرابع عشر حتى دب الفساد فى البلاد بعد أن أرهقتها الترف وداخل الكنيسة الضعف .. وجاء القرن الثامن عشر فى أعقاب هذه المرحلة معاديا للدين قاتلا لكل العقائد السابقة نائرا ضد سلطة الفرد .. غير أن البناء الاجتماعى لم ينله الانهيار فظلت « الصالونات » كما هى بل اتسعت دائرتها بعد أن انفض عن البلاط من كانوا يقفون عند بواباته .. وذهب روسو البروتستانتى الأصل الكاثوليكيى الانقلاب المتوقد الخيال الميال للوحدة العاشق للطبيعة البكر العاجز عن الظهور فى المجتمعات المصاب بالآفات والعلل وصل ليجد من حسن الاستقبال ما أذهب عن نفسه بعضا مما كان بها من اليأس وفتح أمامه متنفسا من الأمل فى الحياة .. وكانت صلته « بديدرو Diderot » قد توطدت فاتفق معه على نشر صحيفة هى « الساخر Le persifleur » لم يظهر منها سوى العدد الأول اذ سجن ديدرو بعدها على أثر كتابه فى

« الآثار الفلسفية » وكان روسو يتردد عليه سيرا على الأقدام .. لأنه لم يكن يملك أجر العربية .. وهو يطالع دائما في كتاب ..

وبينما كان ذات يوم ذاهبا لزيارة صديقه .. فتح جريدة « ماركيز دو فرانس، Mercure De France وهو مستند الى شجرة يستريح وإذا بنظره يقع على سؤال جاء بالصحيفة طرحه مجمع ديجون L'Académie de Dijon ومؤداهل ساعدت العلوم والفنون على تطهير العادات Discours sur les Science et les Arts وانفعل روسو أشد الانفعال وعول على نشر رأيه وعضده في ذلك ديدرو .. فأدلى رسو بدلوه ونال الجائزة في يوليو عام ١٧٥٠ .

ويقول روسو بعدئذ في اعترافاته « ولكن ذلك كان سبب ضياعي طوال حياتي وكان سبب تعاستي » .. وذلك لأنه قضى حياته بعد ذلك يبحث عن الحرية والفضيلة والحق .

كان ذلك أول فوز لروسو في حياته .. وأول خطوة له نحو المجد .. ذلك المجد الذي وافاه - كالتقدير - على غير موعد - ودون أن يدبر له .. بعد أن بلغ الثامنة والثلاثين .

كان رد روسو يتضمن الطعن في المجتمع المدني والمناداة بالرجوع الى الحالة الطبيعية واعتبار العلوم والفنون مصائب وأهوالا انصببت على رأس الانسانية، بل انها تقتل فراغ الرجال وتعودهم البطالة وهي المسئولة وحدها عن الانحطاط والفساد . والواقع أن هذا أمر طبيعي بالنسبة لروسو ، فالعلوم والفنون اثر من آثار المجتمع الذي لم يلق روسو فيه نجاحا ، والفنون مصدر ثراء لبعض الناس وهو لم يلق منها سوى النحس والتعاسة . وقد نقد كثير من المفكرين مقاله ومنهم فولتير سنة ١٧٥١ فأجابه روسو على نقده .

وحتى يكون روسو منطقيا مع نفسه أدخل تعديلا على طريقة عيشه وملبسه .. فعمد الى البساطة وتخلي عن كل زينة .. وانصرف الى التقشف .. وهو يشير الى ذلك في « أحلام اليقظة » في « الجولة الثالثة » : « هجرت الحياة الدنيا بمفاتها وزهدت كل زخرف قلم يعد لي سيف ولا ساعة ولا جوارب بيضاء ولا حلل ذهبية ولا زينة شعر بل شعر مستعار بسيط جدا ورداء سميك من الصوف .. بل - وخيرا من هذا كله - فرزعت من قلبي كل اشتهااء لجمع المال وكل مطمح في كل ماله قيمة ثم هجرت الوظيفة التي كنت أشغلها اذ ذاك والتي لم آكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ للموسيقى نظير أجر معين للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديدا الميل اليه دائما »

ثم ألف بعد ذلك أوبرا عراف القسرية *Le Devin du Village* مثلت أمام الملك ورضى عنها فطلب مقابلة روسو لكنه أبى مؤثرا حرته ومبادئه .. وهي لمحة أخرى من لمحات تلك الطباع الأبية العزيزة الزاهدة .. ثم مثلت رواية « نارسيس Narcisse » فشلت كل الفشل .

وفيما هو يتأرجح بين الفشل والنجاح أعلن مجمع ديجون *ersifleur de Dijon* عام ١٧٥٤ سؤالا لمسابقة موضوعها « أسباب عدم المساواة بين الناس » *Discours sur l'inégalité parmi les hommes* . فكتب روسو وكانت كتابته هذه المرة أقوى وأبلغ : ومع ذلك فلم ينل عنها الجائزة .. صاح روسو صيحة مدوية في وجه الملكية الفردية .. ودعا الفقراء الى التمرد على النظام الاقطاعي .. قال: « ان الحرية لا تكون مع عدم المساواة فمن عدم المساواة تنشأ الثروة والثروة تولد الترف والفراغ والترف أصل وجود الفنون ، والفراغ أصل وجود العلوم . واذا كان التخلف الحضاري يدرأ هذا الظلم فلنعد اليه راضين .. » . وكانت تلك جراحة نادرة وشجاعة تستحق الإعجاب من جانب روسو .. وهذا المقال يعالج مشكلة سياسية واجتماعية معاصرة .. مشكلة الانسان في السعادة والشقاء .. فجاء عملا أدبيا رائعا اهتزت له أفكار القرن الثامن عشر .. وجاءت الثورة الفرنسية لتقدسه فقد كان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الأسس التي قامت عليها .. وسراجا منيرا .

وفكر بعدئذ في أن يزور وطنه جنيف *Genève* ومهد صباه .. فسافر تصحبه « تيريز » وعرج في طريقه على « مدام دوفواران » وكانت تتجرع حينئذ كأس الفاقة والشقاء .. فترك لها بعض ما معه من نقود .. ثم دخل جنيف محتفى به مستقبلا أجمل استقبال .. خرج منها يتيما .. شريدا .. كسير الخاطر .. ليعود ترمقه العيون في اكبار بعد أن غدا عبقريا طبقت شهرته الآفاق .

لبث روسو بجنيف أربعة اشهر يتمتع العين بالماء والخضرة .. ثم غادرها الى باريس في خريف عام ١٧٥٤ راضيا عن مقامه فيها .. وشتان بين مغادرته اياها هذه وبين المرة الأولى .. تركها وفي قلبه حنين الى العزلة الهادئة .. الى الجمال الحق .. الى الطبيعة البديعة مرتع صباه وملهمة يراعه لذلك ما أن عرضت عليه مدام دابنای *Madame D'Epina* المقام في الأرميتاج *L'Ermitage* على مقربة من قصرها ومن غابة مونفرنسي *Mont Morency* حتى قبل متلهفا سعيدا .. فترك باريس مرة أخرى في ابريل عام ١٧٥٦ ولم يقدر له دخولها بعدئذ الا في أواخر أيامه .

الكهولة :

. واذا كانت الاعوام التي قضاها روسو في « الشارميت » مرحلة دراسة وتحصيل فان السنين التي قضاها في مونترنسي ستكون مرحلة تعبير وانتاج غزير . عاش في صومعته راضيا قريير العين بنسخ الموسيقى لأنها مورد رزقه ويهرع إلى الغابة فتحنو عليه الطبيعة . . الام . . التي تعطى ولا تأخذ . . الطبيعة التي تجرى دائما وأبدا على لسان عاشقها روسو . . الطبيعة التي تهدي المؤمن . . وتلهم الفنان . . وكذلك ألهمته روايته الطويلة الخالدة « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse » وقد بلغ الخامسة والأربعين ، ولا عجب فقد عاش روسو ما عاش بقلب شباب وعواطف متقدة . . كانت الطبيعة بسحرها وخيالاتها ملهمته . . ولكن كانت هناك أيضا مدام دودتو Mme d'Houdetot زوج أخ مدام دابنای وصديقة سان لامبير الشاعر Saint-Lambert صديق روسو الحميم . . تعلق بها تعلقا بلغ حد الهيام . . تعلقا عذريا طاهرا . . ولكنه أوجع صدر مدام دابنای غيرة وحقدًا . . فسعت للوقية . . وكانت صديقة « لجریم ، Grimim وديدرو Diderot فتألب عليه الجميع واضبطهدوه . . وانتهى به الأمر إلى الخروج من صومعته بعد أن طردته منه مضيفته في خطاب شديد اللهجة . . خاصة بعد أن رفض روسو السفر معها إلى سويسرا لزيارة الطبيب ترونشسان Tronchin واستشارته . فشهرت به وناصرها في ذلك جریم وديدرو فأصبح روسو يعتقد اعتقادا راسخا في اضطهاد أصحابه جميعا له ورغبتهم في إلحاق الشر به .

خرج روسو اذن من صومعته على أسوأ حال بعد أن كان يحلم بالإقامة فيها ، يتخيل في عزلته ، وينصرف إلى التأليف . وكانما أفاق مذعورا من حلمه فيرى فيمن حوله عصبية تتأمر على راحته وسمعته مستهدفة القضاء على صحته وحياته . . خرج منها وقد كفر مرة أخرى بالناس وبأصدقائه وبخاصة جریم وديدرو . . وأضحى شعوره بالاضطهاد يلزمه وينغص عليه حياته بل ويتفاقم كلما زادت الصدمات والمصائب مرة واحدة . . وما أكثرها في حياة روسو المسكين ، ومع ذلك فان تلك الفترة كما قلنا كانت فترة انتساج أدبي غزير كتب فيها قسما من هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse . وآخر من العقد الاجتماعي Le Contrat Social .

وأما هلويز الجديدة فهي في ذاتها « حلم بقظة » طويل . . رائع . . قوامه الحب العذري والطبيعة ، رسم روسو فيها الإحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقتين . فهي اعتراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية كما أن

فيها فلسفة لحب الله على طريقة روسو . . وكان روسو وفيا لوطنه فجعل
جوها بحيرة جنيف فهي من أجمل بحيرات العالم في نظره فعرف روسو
الناس بسويسرا وربوعها وكان من أثر كتابته تلك أن وفد السواح
من كل صوب على سويسرا ينهلون من مفاتها ويحتلون الطبيعة التي
مجدها روسو فيها . . ومن أجلها أيضا استحق روسو لقبه الرائد الأول
للعصر الرومانتيكي .

وكانت علاقة روسو بفولتير *Voltaire* حتى ذلك العهد طيبة ولكنها
ساعت بسبب ما كتبه الفيلسوف دالمبير *D'Alembert* بإيعاز من فولتير في
الانسيكلوبيديا عن وجوب بناء مسرح بجنيف إذ تصور روسو أن فولتير يريد
انتعاش وطنه جنيف واقساده فكتب رسالة إلى دالمبير *Lettre à D'Alembert*
معددا مساوىء المسرح مدلا على عدم حاجة جنيف إليه منددا بمسرحيات
موليير *Molière* ، وهو أعظم كوميدي في القرن السابع عشر ، فهي
مدرسة للذائل والعادات السيئة إذ لا تعتمد الا على المكر والحيلة . .
ولكن فولتير غضب من تلك الرسالة فكانت القطيعة بينه وبين روسو . تلك
القطيعة التي ظلت قائمة حتى الموت .

وهكذا كان اعداء روسو وحساده يتزايدون كل يوم . وفي تلك الاثناء
كان روسو قد انتهى من كتابه «هلوينز الجديدة» في شتاء ١٧٦٨ وبعث
به الى الناشر في امستردام فعرض عليه هذا وظيفة محرر في جريدة
العلماء فرفض بقوله : لقد كنت أعلم أن امتيازى في الكتابة راجع الى حرارة
في النفس تحسن ما أعالجه من المواضيع وانه حب العظيم والحق والجميل
هو الذى يحرك عبقريتى . . لكنهم ظنوا أنى أستطيع الكتابة بالحرفة كما
يكتب سواى من الادباء . . والحق أنى ما كتبت الا تحت دافع شهوة
الكتابة والفكرة .

وفي ربيع ١٧٥٩ سكن في القصر الصغير الملحق بقصر الدوقة
دو لوكسمبرج *Duchesse de Luxembourg* في طرف الغابة بناء على الحاجها
وساعدته الإقامة هناك على الاتصال بالمارشال زوجها وبها وبجميع أصحابهم
وأصدقائهم من الكبراء وأكسبه هذا الاتصال هناء داخليا كان منبته المتواضع
يكبره في عينه .

وأما ثالث انتاجه في تلك الفترة فهو كتاب *Emile* انتهى
منه وأودعه المطبعة ثم سقط مريضا في خريف عام ١٧٦١ وكان شديد
القلق على مصير ذلك الكتاب يخشى أن يتلفه أعداؤه وكانما كان يستطلع
الغيب .

وصدر بعد ذلك كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social وكان قد بدأ كتابته منذ خمسة عشر عاما . . . واذا كانت هنريز الجديدة هي حلم الفرد في الحب والسعادة فان العقد الاجتماعي كان حلم المواطنين جميعا في العدالة والسعادة . . . يقول فيه : « ان ثمة عقدا بين أعضاء المجتمع هو للعقد الاجتماعي ، وقد ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف في القيود في كل مكان ، فلا بد للشعوب من رفض الازلال ، فليس لرجل من سلطان على آخر بالقوة فالقوة ليست حقا ، واذا استغنى الانسان عن حريته فانه بذلك يستغنى عن صفته كاتسان فيضيع حقوقه وواجباته ، والسلطة التي تنبعث عن حب الشعوب هي اعظم سلطة ، » .

ويعرج روسو على الدين فيقف في وجه النظريات المسيحية جمعاء يناصب الكنيسة العداة قائلا : ان الناس كانوا سعداء متساوين قبل حلول الاديان . . . واما الديانة الحققة فهي التي بين الخالق والمخلوق وعنها يخدم الاخير الاخلاق ويخدم الوطن . . .

كان روسو جريئا ثوريا في كتابته وهو وان كان في ذهنه اذ ذلك ان يكتب من اجل جنيف وحكومة جنيف الا أنها صادفت فترة في فرنسا طابعها الاستبداد والمظالم وكانت حرية الكتابة معدومة ، لذلك اهتزت جنبات القرن الثامن عشر وارتعدت حين نهض ذلك الكاتب الجريء مطالبا بالحرية متعرضا للحكم وللكنيسة وكان ذلك الكتاب ضمن ما مهد لثورة فرنسا عام ١٧٨٩ من أمور . قال فيه ميرابو (١) Mirabeau « لقد علم روسو المبادئ النظيفة في الحرية ، » .

أما كتاب « اميل » Emile أو « أنجيل المعلمين » كما سماه الشاعر الالماني الكبير « جوته » Goethe فهو حلم الكاتب في تربية سليمة مثالية للطفولة . . . ويعتبره بعض النقاد تكفيرا عن الجريمة التي ارتكبها روسو في حق أطفاله . . . وسخر منه آخرون مستنكرين من روسو أن يعلم ويهذب ويكتب في التربية وهو الذي لم يحظ من كل ذلك بشيء وهو الذي أهمل أطفاله فأودعهم في قسوة « ملجأ اللقطاء » .

وأيا كان الجواب فان الانسان كثيرا ما يستفيد من الاخطاء التي ارتكبها في حياته والا فما فائدة العقل والضمير اذن ؟ . . . والكتاب في خمسة أجزاء يتتبع فيها الطفل من ساعة ولادته حتى زواجه . . . ويعنى في شتى المراحل من حياته بوضع أسس طبيعية يهتدى بها المربون . . . ولعله بقوله

Edmé Champion : J.J. Rousseau et la Révolution Française

(1)

فى مستهل الكتاب الاول منه « ان كل شىء يخرج خيرا من يدى مبدع الاشياء ولكنه يفسر ويشوه بين يدى الانسان ، لعله بقوله هذا يلخص طريقته تلك فى التربية.. تلك الطريقة التى تعتمد على العودة الى الطبيعة والبساطة والفضيلة ..

ولم يكن روسو اول من كتب فى التربية فقد سبقه من قبل مونتاني Montaigne وفنلون Fenelon الذى كتب فى تربية الفتيات ، ذلك فى القرن السابع عشر واما الجديد هنا فى كتاب روسو الامر الذى الب عليه الحكام ورجال الدين وكان كما يقال « القشة التى قصمت ظهر البعير » فهو ما كتبه فيه عن الناحية الدينية فى تربية الطفل اذ الحق بالكتاب جزءا هو « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » تناول فيه معجزات الرسل بأسلوب مشكك ، وكذلك « مسألة الاديان الثلاثة » ومسئولية البشر جميعا فى الأخذ بواحد منها دون الآخر ..

طبع الكتاب فى هولنده فى شهر يونيه ١٧٦٢ وظن الكاتب بذلك انه بلغ هدفه .. ولكن نائبا بالبرلمان صرح بأن الكتاب خطر وأنه لا فائدة من احراق الكتب وانما يجب ان يحرق مؤلفوها .. قلم يكثرث روسوفى مبدأ الامراذ ظن أنه فى حماية الدوق دو لو كسمبرج Duc De Luxembourg ولكن صديقا معجبا هو اليرنس دو كونتى P rince de Conti حذره بعد ذلك بأن من الجائز اصدار قرار بالقبض عليه ومحاكمته .

وفعلا أوقظ من نومه فى ليلة ٩ من يونيو ليتمكن من الهرب اذ كان القرار قد صدر فى اليوم نفسه واصدرت حكومة جنيف أمرا مماثلا فى ١٨ من يونيو ١٧٦٢ وصادرت السربون La Sorbonne الكتاب وطعن فيه رئيس كهنة باريس وطعنه قرار من البابا وقضى عليه بأمر صادر من حكومة هولنده .. كل ذلك بحجة « نشر آراء تخالف العقيدة المحترمة فى المملكة » وساعد عليه وضع اسمه على الكتاب الذى نشر تلك الافكار فيه ولو أنه لم يضع اسمه عليه لما مسه أحد بسوء ولا تعرض له القانون .

هربه :

ركب روسو حتى الحدود وتغافل عنه الجنود الذين بعث بهم للقبض عليه ومر بباريس ونزل من عربته بعد أن عبر الحدود ثم قبل تربة بلاده سويسرة بعد غيبة عشرين عاما فى فرنسا دخلها شريدا يسعى وراء العيش وخرج منها طريدا بعد أن بلغ قمة الشهرة وأجيز عليها ... وحسب أنه عاد الى وطن الحرية ولكن وطن الحرية نبذه بل وأصدر أمره بحرق

« اميل » لانه ضد الدين وكذلك اتلاف « العقد الاجتماعي » لانه ضد الحكم
.. فلم يكن الوطن أبر به من فرنسا .. وطلب اليه الرحيل عن البلاد
فسافر الى جبال انجورا Jura وكتب يناقش الكتلثة وينقد البروتستانتية
ومن بين كتبه ما سماه « رساقل من الجبل » Lettres de la Montagne كان
ذلك في موتيه ترافير Motiers-Travers بعد طلب الحماية من فردريك
الثاني Frédéric II وكان الفضل في ذلك يرجع الى صديق لروسو
يعرف باسم ميلور مارشال Milord Maréchal وكان من أشد المعجبين
بروسو وأكثرهم تقانيا في عونه .. وافق فردريك الثاني على ايواء روسو
كلاجي اضطهدته حكومة لويس الخامس عشر Louis XV ولو انه لم يكن
يتفق معه في أفكاره بل على العكس كان الملك من المعجبين بفولتير Voltaire
نقيض روسو في كل شيء .. وأراد ملك بروسيا أن يتعهد روسو بعدم
العودة الى الكتابة .. لكن هذا أبى في أنفة وعزة نفس ، انما وعد فقط
باخترام « القوانين والملك والنبلاء وكل ما تمليه عليه واجبات الضيافة »
ولكن قدر روسو كان له بالمرصاد فعلى أثر مشادة له مع الراهب
مونمولين Montmollin هجم الفلاحون المتعصبون على بيته فرجموه بالحجارة
فهرب الى جزيرة « سان بيير Saint-Pierre » في قلب البحيرة من أراضي
سويسرة وذلك سنة ١٧٦٥ .. وكان المقام في هذه الجزيرة ملهما للجولة
الخامسة من « أحلام يتقظة جوان متعزل » فقد قال في مستهلها : « لم تكن
هناك من بين الديار التي أقمت فيها - وكانت لي من بينها ديار بديعة -
واحدة أسعدتني حقا وخلفت في نفسي تلك الحسرات المرهقة سوى جزيرة
سان بيير « Saint-Pierre » انه لم يسمح لي قط بأن أقضى سوى شهرين
في تلك الجزيرة وكنت أستطيع أن أقضى بها عامين بل قرنين بل والى
الأبد دون أن ينال مني السأم لحظة واحدة .. »

حقا فان روسو المسكين الذي كتب عليه التشرد والملاحقة وعدم
الاستقرار ، صدر ضده من مجلس شيوخ جمهورية برن Berne
مرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التي ود لو ترك فيها بقية العمر
.. كان ذلك في شهر أكتوبر عام ١٧٦٥ .. ولم يقدر له أن يرى ثانية
وطنه الجاحد منذ ذلك التاريخ ..

توجه روسو بعد ذلك الى ستراسبورج Strassbourg ووصل باريس
في ١٦ من ديسمبر من العام نفسه ليملك فيها أياما قليلة ضاق فيها
بفضول الباريسيين الذين كانوا يحضرون ليشاهدوا الطريد المشهور
فغادرها في أوائل يناير عام ١٧٦٦ الى انجلترا حيث استضافه الفيلسوف
الانجليزي دافيد هيوم David Hume ولحقت به تريز وكتبه .. أعجبه

المقام فى بادىء الامر فلبث فيه ثلاثة عشر شهرا يستعشب وينسخ الموسيقى .. ويكتب ذكرياته .. وهى سجل حياته « الاعترافات » .
Les Confession تصور فيها مآسى حياته الكثيرة وأفراحها القليلة
ويكشف عن نفسه لا يخفى عيبا ولا ضعفا بل يسردها جميعا فى جراءة
وشجاعة منهلتين .

ولكن روسو ما لبث - بما جبلت عليه طبيعته من عدم استقرار
- أن مل طبيعة انجلترا .. تدفع بالكآبة الى نفسه بسماؤها يحجبها
الضباب .. وبردها وأشجارها العارية .. اللهم الا بعض زهور البنفسج
.. كما ذكر ذلك لصديق له فى شهر مايو ..

كما أنه ما لبث أن اختصم مع هيوم Hume صديقه ومضيفه.
ولا عجب ، فقد ظل دائما فى خصام مع الفلاسفة ، ثم غادر انجلترا عائدا
الى فرنسا وانتحل اسما مستعارا ، وظل شريدا مدى ثلاث سنوات تارة.
ضيفا على أصدقائه وتارة فى عزلة .. وعقد فى تلك الأثناء على تيريز أمام
شاهدين مصححا علاقته بها .. فكافأ تلك التى تشردت بتشرده ..
وقاسمتة الحياة والمصير مريرا قاسيا .. ويعسد ذلك الزواج أول زواج
مدنى فى فرنسا ، وكان ذلك بعد خمسة وعشرين عاما من تعرفه بها ..

العودة الى باريس :

وبعد أن هذه الترحال .. عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ليقطن فى
شارع بلاتريير Platrière الذى حمل اسمه منذ ذلك الحين ..

بلغ روسو ذروة التعاسة .. ولا عجب فقد توالى الضربات على أم
رأسه بلا هوادة ولا رحمة .. فغدا يظن العالم غاصا بأعدائه ، يحكون له
المؤامرات ويدبرون الخطط للقضاء عليه .. وأحس بالظلم الفادح عليه
وبرغبته فى الدفاع عن نفسه فما أن انتهى من كتابه « الاعترافات » حتى
أخذ يتنقل من بيت الى بيت ومن صالون الى صالون .. يقرأها على مجموعات
قليلة من الناس لعله يكذب ما يشاع عنه وليستدر عطف من يستمعون
إليه .. ولكنه لم يلق آذانا صاغية بل حرمت عليه القراءة فقد كان صريحا
جريئا فى « اعترافاته » فذكر ضمن ما ذكر أسماء الناس وبخاصة السيدات
اللواتى كانت له معهن أحداث .. فخاب أمله وزاد عنذابه .. واعتزل
الناس فى يأس .. ينسخ الموسيقى .. ويهتم بالنبات ..

ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير فى الحال التى انتهى إليها ..

وفى الناس وكيف ان « الاعترافات » التى قال فى أولها « .. لقد صورت
نفسى على حقيقتها : فى ضعتها وزرايتها .. وفى صلاحها وحصافة عقلها
وسموها .. تبعاً للحال التى كنت فيها ، لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسى
كما كنت أنت تراها أيها الخالد السرمدى .. فاجمع حولي الحشد الذى
لا حصر له من أبناء جنسى ودعهم يصغون الى اعترافاتي فيرثون لخستى
ويخجلون لمثالبى . ثم ادع كلا منهم الى أن يكشف بدوره - وبعين الصراحة
- أسرار فؤاده عند قوائم عرشك وليقل ان جرؤ « لقد كنت خيراً من ذلك
الرجل » كيف أن هذه الاعترافات لم تكف لإقناع الناس بصلاحه وبأنه
المظلوم المفترى عليه .. لذلك فكر فى طريقة أخرى .. عليها تكون أصوب
وأنجع . . فأنشبت حواراً Les Dialogues أو « روسو يحاكم
جان جاك » Rousseau Juge de Jean-Jacques وهو حوار وهمى يجرى بين
رجلين هما جان جاك وفرنسى هو عدو لجان جاك دون أن يقابله مرة واحدة
أو يقرأ سطرًا واحدًا مما كتب .. أما روسو نفسه فيجهد فى أن يتبين
الحقيقة وألا يكون متحيزًا .. وإنما كان جل همه - كما أسلفنا - أن يبرر
مسلكه وأن يغدو إنسانًا خيرا صالحًا فى أعين معاصريه .

كان يعتز بهذه المحاورات وكان كذلك لا يثق بأصدقائه ويتشكك
فيهم حتى بأقربهم اليه فكتب منها نسخا عديدة من المخطوط ثم عن له أن
يودعه مذبح كنيسة النوتردام Notre Dame فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ ..
ليرفعه الى العناية الالهية ويؤكد أنه ظلم فى كل شئ قال فيه : « يا حامى
المظلومين يا اله العدالة والحق تقبل هذه الوديعة التى يضعها على مذبحك
غريب تعس، ووحيد من غير سند ولا نصير على الارض، معذب مضطهد .. »
وما أن تقدم ليضع المخطوط حتى ارتد على أعقابيه وقد انتابته لومة هى
أقرب ما تكون الى الجنون .. اذ اصطدم بالحاجز وقد أوصد . فظن أن
ذلك من عمل الله .. غير راض عن فعلته .. فخرج هائما على وجهه فى
الطرق طيلة النهار يقسم أن لن يطأ الكنيسة ثانية ما عاش ..

ثم كتب مقالة يوزعها على من يصادفهم فى طريقه بعنوان « الى كل
فرنسى لا يزال يحب العدالة والحق » A tout Français aimant encore la
justice et la vérité. ولكن أضحكه أن المارة رفضوها بحجة أنها موجهة الى
سواهم ..

وهنا تحدث المعجزة .. فيشاء الله لهذه النفس المعذبة أن تهدأ بعد
فورة وأن تدعن لمشيئته بعد ثورة هى الى الجنون أقرب .. وروسو عندئذ
كالجندي ألقى السلاح بعد أن أبلى وناضل ومل الكفاح .. ومن قمة المنزوع

والهذيان الى سكينه مطلقه سباقته اليها فكرة طرات له وهى ان الله
جلت قدرته انما اراد بعدم ايداع روسو مخطوطه فى النوتردام Notre Dame
ان ينقذه من ايدى اعدائه المتربصين .

كتابة احلام اليقظة :

وحينئذ وفى استسلام تشوبه مع ذلك. المرارة أخذ روسو يسجل
« احلام يقظة جوال متعزل » وفيها يجتر الذكرى اجترارا ويعيش فيها وبها
ويسلم امره للقوى المنتقم الجبار .

تلك الخطرات هى آخر ما كتب اذ انه بعد ان ترك مسكنه بشارع
بلاثريير Plàtrière لعدم ملاءمته لصحته عام ١٧٧٧ استضافه مسيو
دو جيراردين M. De Girardin فى ارمنفيل E:menonville فى منزل بديع له
بالريف يحيط به الماء والخضرة . . الطبيعة التى احبها روسو وعاش لها
. . ولكنه لم يستمتع بمقامه هذا طويلا اذ ما لبث ان قضى فى الثانى من
يوليه عام ١٧٧٨ غريبا فقيرا . . مريضا ، ودفن بارمنفيل فى جزيرة الحور
L'île des Peupliers وهى جزيرة ساكنة يلفها الهدوء الذى كان يحبه
فى حياته . . حيث زار قبره الزائرون ومن بينهم الملوك والعظماء والادباء
ورجال الدين .

نقل رفاتة :

حتى كان يوم ١١ من اكتوبر سنة ١٧٩٤ فنقلت رفاتة الى البانثيون
Pantheon فى احتفال كبير - فدفن اخيرا فى مدافن العظماء ليحج اليه
الناس من اقاصى المعمورة فيحيون ذكرى ذلك الكاتب العظيم . . رسول
الانسانية والداعى الى خريتها وخيرها . . مما أحله مقاما عاليا بين من
أسدوا الخير للبشرية .

هل الاحلام تنمة لـ « الاعترافات » و « الحوار » ؟

كانت قراءات روسو للروايات من كل نوع ولبلوتارك Plutarque
بخاصة فى طفولته أثرها فى حلق ذلك العالم المثالى الذى عاش فيه روسو
طيلة حياته فجعله عاجزا عن تقبل الواقع يرنو دائما نحو آفاق عالية
تتجاوزه . ولقد سجل روسو على اول البطاقات (١) التى كان يدون عليها

(١) Henri Doddier : Les Réveries du Promeneur Solitaire, P. XXI

خواطره « لم تكن حياتي كلها سوى حلم يقظة طويل تقسمه الى فصول جولاتي اليومية » .

والواقع أن كتب روسو جميعا كانت أحلاما . . . كان روسو حساسا والانسان الحساس لا تترجم انفعالاته الى أعمال ولكنها تولد عنده طائفة من الخواطر والتأملات والأحلام وهذه - على ضوء ما يقوله رينيه لوسن René Le Senne (1) تولد في الروح طموحا الى الرفعة واستنكارا للأوضاع مما يجعله دائب البحث عما يبرر شعوره ذلك . وفي الواقع أن روسو الذي وصفه « لوسن » بأنه حالم حساس استخدم طموحه في الدفاع عن هذا العالم الخيالي المثالي الذي كان يعيش فيه منذ طفولته محاولا إشراك معاصريه في هذا الحلم جاءت كتاباته كنتيجة لذلك تستهدف المثالية وتدعو اليها واذن فإنه يمكن القول بأن أحلامه لا تنقسم الى فصول بل الى كتب كل منها ثمرة لسلسلة من الجولات والقراءات . وإذا نحن أخذنا مثلا حديثه في « عدم المساواة بين الناس » أو حديثه عن « العلوم والفنون ودورها في تطهير أو انفساد الأخلاق » أو « العقد الاجتماعي » Le Contrat Social أو « اميل » Emille نجد أن روسو فيها جميعا ينشد مثالية عالية فهو إذ يحلم بالقضاء على الظلم ويحلم بالعودة الى حالة الطبيعة الأولى التي تكفل وحدها اسعاد الانسان وتطهير روحه ويحلم بمجتمع سليم يقوم بناؤه على أسس صحيحة متينة من الاخاء والمساواة والمحبة ويخلو من تفاوت الطبقات ثم يحلم أخيرا في « اميل » بتربية مثالية للطفولة تلك التربية التي حرم منها وحرّم أولاده منها فكفر عنها بهذا الحلم الطويل لاسعاد الاطفال جميعا .

وأما في « هلويز الجديدة » La Nouvelle Heloise فهو يحلم أيضا ، يحلم بالحب العنيف الصادق الذي لم يكن له منه في واقع الحياة نصيب ، فإن روسو لم تكن له مع النساء جولات حقة لان طبيعته غير المستقرة وعدم قدرته على تنفيذ ما يصبو اليه في حياته بعد أن يكون قريبا منه جعله دائما عاجزا عن تحقيق ذلك الحب الذي صورته في « هلويز الجديدة » والذي يعتبر حلما من أحلامه الرائعة . . . والانسان الخيالي الحالم يتفكس دائما لكل شيء جديد ولعل ذلك كان دافعه الى تحويل تعليم الموسيقى باستعمال طريقة رقمية .

الإحلام تمة للاعترافات والحوار :

كانت الظروف جميعا مهيأة لاسعاد روسو الا ظرفا واحدا . . . فقد كان يظن أنه محاط بأعدائه يتابعون في عناد مؤامرتهم ضده . . . ولهذا كتب

(1) Traité de caractérologie : Presses universitaires de France, 1945, pp. 269 - 76 et 779 - 88.

« الاعترافات » و « الحوار » و « الاحلام » ليتخلص من تلك الفكرة التي استبدت به ، ذلك لان هجمات أعدائه -بالإضافة الى هجمات بعض أصدقائه القدامى - ولدت الشك في نفسه ولو انه كان يحس في قرارة نفسه بالرغبة في التأكد من ذلك الشك فكان يقول « اننى أخشى أن أكون مذنباً في قرارة نفسى » فى خطاب له الى « دافيد هيوم » Hume . سنة ١٧٦٦ .

هذا ولم تجعله كتابة « الاعترافات » يعيش طفولته وشبابه فحسب بل أنها أعطته شيئاً من الثقة بنفسه وبمستقبله انلك يصيح فى مستهلها قائلاً « فليكشف كل بدوره عن قلبه عند قوائم عرشك وبنفس الصراحة أسرار فؤاده وليقل ان جرؤ : لقد كنت خيراً من هذا الرجل » ولقد كان مقتنعاً اذ ذاك بأن هذا الكتاب سوف يقشع الغيوم التي جمعها أعداؤه من حوله وبلغ اعتقاده حدا جعله يفكر فى شىء واحد هو العودة الى باريس تحت رعاية البرنس دوكونتى Prince De Conti آملاً أن يدافع عن نفسه عن طريق اعترافاته . . . ولما كان قد تعب من حياة كلها عدم استقرار منذ عودته من انجلترا فقد فكر أن يعيش فى بلد بعيد ولكن رأيه استقر أخيراً على الإقامة فى باريس اذ كان يأمل أن ينتصر على أعدائه فيستعيد هدوء نفسه . وفى ربيع ١٧٧٠ عاد الى باريس لينتصر على المؤامرة التي كان يعتبر نفسه ضحية لها . . . فقام بقراءات خاصة لـ « الاعترافات » وكانت الستة الاولى منها لا تحوى تعريضا بأحد فمرت بسلام أما الكتب الستة الاخيرة فقد تناولت بعض ذوى المكانة من أمثال مدام دابنای بالتعريض وسعت هذه لدى السلطات المختصة لايقاف تلك القراءات وكان لهذا لمنع عواقبه الوخيمة على نفسية روسو فأسلمته الى أزمة طويلة . . . كتب خلالها الحوار . . . بعد أن فقد الأمل فى تعريف الناس بالاعترافات فى حياته . . . وهكذا نراه يلجأ الى طريقة أخرى يظهر بها انه ضحية ظلم صارخ . . . فتخيل ذلك الازدواج الذي كان يبرز جانبا من شخصيته فى « الحوار » . . . وهذا العمل الادبى الطويل ليس - كالأعترافات - سرداً متصلاً لتاريخ حياته بل هو يعرض ثلاث محاورات من جان جاك بين رجل فرنسى وروسو تشير الى أن هذا الفرنسى برغم أنه لم ير الكاتب فى حياته ولم يقرأ له فانه يكرهه لا لسبب الا لانه يثق ثقة تامة فى الفلاسفة وافتراءاتهم اما الآخر ولو ان اسمه روسو فانه ليس روسو تماماً بل هو عقل مستقل يمتزج لايعرف عن روسو سوى كتبه ويريد مع ذلك أن يدرس روسو نفسه . . . وخلصاً الأمر أن روسو يحلل نفسه وأن روسو يحاكم جان جاك ويستمر الحوار حتى يبدو جان جاك تقى الصفحة ظاهراً فى نهاية الامر . . . وفى هذا شفاء لقليله عن تلك الصورة المشوهة التي صوره بها أعداؤه . . .

ويتضح من ذلك أن كلا من « الاعترافات Les Confessions ومن
« الحوار Les Dialogues كانتا تستهدفان تبرير تصرفاته وتوضيح موقفه
وكذلك كانت « الاحلام » ومن ثم فإن « احلام اليقظة Les Rêveries تعتبر
بحق متابعة لهما وتنتمى . . انها تبدأ حيث انتهتا . . وهو يشير أكثر من
مرة في « الاحلام » الى ذلك كما يشير الى صدق « الاعترافات » أو يحاول
تصحيح بعض وقائعها أو يعتذر عن بعض اخطاء جاءت بها معللاً اياها
بضعف ذاكرته . . لقد جهد روسو في أن يهرب من مخاوف الاضطهاد
وقد نجح الى حد كبير فقدت له بعد ذلك سداجة الاطفال وبراءة مباحثهم
. . . كان ميالا بفطرته الى العزلة فطغى هذا الميل على نفسه حتى غدا غير
صالح للحياة في المجتمع . . بل ان مخالطة الناس اوضحت بالنسبة اليه
شيئاً كريهاً يخزمه أحلى المتع وهي التأمل في الطبيعة والانفراد بنفسه .

تقديم للجولات

« أحلام اليقظة » Les Rêveries هي آخر أعمال روسو الأدبية إذ كان لا يزال يكتب مستهل الجولة العاشرة في الثاني عشر من ابريل عام ١٧٧٨ قبل مغادرته باريس للمرة الأخيرة بزمن قليل . . ويرى بعض النقاد أن الفكرة الأولى في تسجيل « أحلام اليقظة » ترجع الى خريف عام ١٧٧٦ بعد مضي بضعة شهور على الحالة الصحية والنفسية التي استبنت به وغدا فريسة لها حين حاول أن يودع مخطوط الحوار Les Dialogues في كنيسة نوتردام Notre Dame ولكنه لم يفلح إذ حالت الحواجز دون ذلك . .

وكان يعلم ان أحلامه في سبيل الأقول إذ كان يحس . .
« بالبرودة تسرى فيها ، وأنه كان يقترب من النهاية . . . »

وقد كتب السبعة الأولى منها في خط صغير وان كان مقروءا . . وشاء كرم صديقه المركيز دوجيراردين De Girardin الذي استضافه في آخر حياته بارموننفيل Ermenonville حيث مات - أن يجمع في حرص وعناية كافة الأوراق التي خلفها روسو وسهل للناشرين بعد وفاة الكاتب الكبير نشر ثلاث جولات أخرى استخلصها من مسودات مجموعة في كراسه تشبه الأولى تماما . . هذا بالإضافة الى سبع وعشرين ورقة من أوراق اللعب مودعة في مكتبة نيوشاتل Neuchatel

بسنويسرا كان يسجل عليها روسو افكاره خلال جولاته وتعد مرجعاً
للاحلام كذلك .

ولقد تدرج روسو خلال اعوام حياته في مختلف الحرف والاعمال . .
واحفظ لهذه الاعوام الطويلة بذكريات مريرة قاسية . . ثم أنتج خيرة
ثماره العقلية . . وكانت له شهرة واسعة لها دور .

كان ينسخ الموسيقى وكان يكتب وكان يربط الاوراق بشرائط
جميلة وكان يرتب النباتات بعناية كان يحيا بحواسسه ولكنه الآن في
اخريات العمر أصبح يعيش على لون جديد من الحياة لم يمارسه في عمق
من قبل وان اعتاده . . بدأ يحس احساساً قويا بالاصوات الرائعة والسماء
الجميلة والريف البديع والبحيرات الفاتنة والازهار والاعطور والعيون
الساحرة والنظرات الحلوة البريئة . . انه لا يزال يذكر زوايا مماثلة من
ماضيه البعيد . . تنتابه الحسرة أحياناً على فواتها ويشده الألم أحياناً
أخرى لأنه لم ينهل منها بقدر ما يطيق أو لأنه لم يدركها الا بعد فوات
الأوان . .

كانت الاستثارة الحسية تسلمه الى نشوة عاطفية . . وكانت الطبيعة
تبدو له وكأنها هي كائن حي يزخر بالجنان فيرتمي بين احضانها ليجد
أجمل العزاء . . كان الخيال في صغره يلعب الدور الهام من حياته ، أما
بعد أن تقدمت به السن فلم يعد له سوى أن يستسلم للذكريات .

ولئن تخللت هذه الذكريات بعض مظاهر الشنوذ العقلي فانه كان
يستشعر فيها الهناء المطلق . . كان يحسه في هذه اللحظات القصار
التي يجمعها فيها كما كان يحسها في أعماق عقله الباطن تتصاعد فجأة
في لذة غامضة تستدعيها أمور عدة . .

ولئن قصر خياله أحياناً فانه أدرك كيف يحيى الذكريات أحياناً
أخرى . . ولئن ضاعت الاحداث في غمار النسيان بفعل الزمن فان تداعي
المعاني وبعض صفات معينة وبعض مظاهر الحرارة والضوء كانت كقيلة
بأعادتها الى ذهنه : والواقع ان « احلام يقظة جوال منعزل » هي في مجموعها
مذكرات .

أهي ذكريات شيخ لماض بعيد غير كثيراً من نواحي الصورة فيه حتى
لتبتزج الاسطورة والخيال بالحقيقة ؟

أم هي اعتذار عن بعض أخطائه ومحاولة لتبريرها أو الدفاع عنها ؟

أم هي تفسير لبعض ما مر به ؟ أم هي تسجيل لخواطر وخلجات هي ثمرة تجارب وتفكير رجل قدر له أن يفرض نفسه على الفكر الانساني ؟

لقد كان يلذ لروسو أن يستمد من آلامه متعة وكان يردد أنه يعيش حقا في « أيام الاضطراب والقلق » ان أشد الساعات ألما تحل في النفس أعمق الآثار ومع الزمن تغدو ذكراها وهي تحمل فرحا لاذعا . . . وتعاسة مع ذلك . . .

ومن عجب أن ذاكرة روسو تتوقف كذلك طواعية عند أيامه السعيدة وليس في شيخوخته سعادة أكثر من الشهرين اللذين قضاهما في جزيرة سانت بيير Saint-Pierre وكذا في الشارميت Les Charmettes

لقد كف روسو بعد كتابة « الحوار » Les Dialogues عن الدفاع عن نفسه أمام مهاجميه وأعدائه فاستسلم لقدره . . . ثم مال . . . كعادته . . . الى العزلة . . . الى الهدوء والاعتكاف . . . كان يعلم أنه يقضي أيامه الاخيرة مستشعرا دنو أجله . . . فظل ينتظر الموت في وقار ، يتجهز له ويعد ، للمرة الأخيرة حسابا يمثل به أمام الله ويستعيد ماضيه بما تخلله من لحظات سعيدة فيعيشها بذلك مرتين . . .

عاد اذن يمسك القلم ويباود الكتابة دون ان يكثرث بالناس ودون أن يهتم بما يدبرون بعد أن اعتزلهم الى عالم هو عالمه وحده لانه من خلقه . . . فسطر بذلك صفحات رائعة في موضوع جديد يتفق أولا ومزاجه الطبيعي ويعد أخيرا خيرة انتاجه قاطبة . . .

بل ان عنوان هذه الصفحات التي اتناولها بالترجمة والتعليق تكشف عن روحه تماما . . . ان فيه لوما وعزاء . . . لوما يوجهه الى من اكرهه على الانفراد والعزلة . . . وعزاء له في تلك الاحلام الحلوة يحلق فيها في حله وتجواله فتعوضه في سخاء عما حرمه منه معاصروه من هناء وراحة . . .

لقد ضاق المسكين بقسوة الناس فاعتزلهم وباعد ما بينه وبينهم وراح يضرب في الخلاء منفردا بنفسه ، مستمتعا بالطبيعة مدركا للخالق مستغرقا في أحلام طويلة يسترجع بها بعض أحداث ماضيه ، مناقشا ايامها في ضوء الهدوء الذي بلغه والسكينة التي تحيط به . . . لقد أعادت هذه الذكريات الشيخ الى نفسه فكانت تعبيرا عن حقيقة حياته . . . وهي حياة حواسه وقلبه . . . أما الاحداث والعالم الخارجي فلم تعد بعد شيئا مذكورا بالنسبة له ، انها لم تعد سوى فرصة للاستمتاع ووسيلة للتفكير . . . وهكذا

تحققت له أخيرا الحياة المثالية التي طالما تاق لتحقيقها وهي العالم الذي
صاغه لنفسه .. خياله ..

بالاحلام على هذه الصورة ليست موضوعا واحدا بل هي مجموعة
من الخواطر والخلجات ترابطت أحيانا وتباعدت أحيانا أخرى شأنها في
ذلك شأن الخواطر دائما حين تقوم على نبش بعض أحداث الماضي البعيد .
وهاك الجولات مرعبة كما جاءت في مختلف المراجع أقدمها معلقة على
فجواتها :

الجملة الأولى

تعد هذه الجملة مقدمة للكتاب كله . . . فيها يبدو روسو راضخا لحكم الأقدار وقد عادت اليه السكينة والهدوء - وهما نسييان اذا ما قورنا بما كان عليه من اضطراب ويأس . . . سيدافع مرة أخيرة عن نفسه ويبررها أمام مضطهديه ويدرس نفسه . وهو يسجل احلام يقظته التي تعرض له اثناء جولاته المنفردة . ولكنسه يقرر هنا أنه انما يكتب رغبة في الكتابة ورغبة في قراءة ما يكتب فيما بعد فيجد متعة في ذلك ويحيي بذلك مرتين . . لا من أجل أجيال قادمة وفي ذلك تختلف في اعتباره عن الاعترافات *Les Confessions* وعن الحوار *Les Dialogues* ولو أن الاحلام *Les Rêveries* تعتبر ملحقا للأولى . .

« هانذا وحيد في هذه الدنيا لم يعد لي أخ أو قريب أو صديق أو صغيلة سوى ذاتي » . بهذه الكلمات التي تفيض حسرة وألما بدأ روسو بناء مؤلفه وهي تكاد تكون عتابا يوجهه إلى الانسانية التي ألجته إلى الانفراد والعزلة . . انها صرخة نفس معذبة جريحة يتنازعها الألم والكبرياء . . ولكنها الآن

فى سكينه لم تخل تماما من آثار العاصفة، فان تلك السكينه لم تمنعه من ان يتحسر على مصيره ومن ان يتذكر المحن التى قاستها نفسه المرهقة . . .
اما وقد انفصل عن الناس رغما عنه فهو يسائل نفسه « امن اكون انا نفسى ؟ » اى انه عن طريق اعدائه يود التوصل الى معرفة ذاته . . .

ماذا كان ينشد لدى الناس ؟ لقد كان ينشد فى كل منهم اخا واذا لم يوجد هذا الاخ فقريب والا فصديق او على اقل تقدير صاحب . . . وهو اذا فقد كل امل فى الصلح مع الناس يدعن ويرضخ للأقدار ولكن تتخلل هذا الاذعان ذكريات أليمة تعود به خمسة عشر عاما الى الوراء ، ولما كان روسو يكتب هذه الجولات عام ١٧٧٧ فهو اذن يشير الى عام ١٧٦٢ أى الوقت الذى أحرق فيه كتابه اميل Emile وحكم بالقبض عليه والى ما كان من رجم بيته وهربه بعد ذلك وعدم استقراره . . . وهى مرحلة كلها خوف وقلق وآلام واذلال لا يستطيع ان ينساها هنا . . . هو الذى يزيد ان ينسى الناس وشروورهم . . . لقد جعلوا منه سفاكا وقائلا وأهالوا عليه كافة ألوان المهانات والاذلال . . . هو من خلق أشد الناس حبا للناس . . . ولكنهم بذلك استنفدوا كل حيلهم دفعة واحدة ولم يعد لديهم من مزيد . . . لذلك هو مطمئن بما داموا « قد فعلوا كل شيء » بل انه سيهزأ بهم ومن بغضائهم . . . فلا سلطان لهم عليه بعد . . . ولكن من هم مضطهدوه ؟ أولئك الذين جعلوا الحياة فى عينيه سوداء قائمة . . . وهل كان هناك حقا اضطهاد قبل روسو ؟ فى الواقع انه اذا ما كان للخيال نصيب فى هذا الاعتقاد فان نصيب الحقيقة فيه كبير فلا يجب ان ننسى ديدرو Diderot وتذيراته ، وجريم Grimm ومدام دابنساى Mme d'Épinay التى انسقت له والتى رمت روسو بالجحود والانانية ، وفولتير Voltaire الذى كان ينتهز المناسبات لغمزه والتندر بأرائه والتشهير به . . . والكنيسة فى جنيف Genève ومجلس شيوخ برن Berne والأطباء الذين غرض بهم فى كتاب اميل Emile . . . والسلطات التى حرمت الاستمرار فى قراءة الاعترافات . . . كل ذلك بذر الشك فى نفسه من ناحية كل من يحيطون به حتى أصدقائه . . . وجعله يرى من حوله مؤامرة عريضة محبوكة الاطراف لهدمه والقضاء عليه . . .

وهو يشير فى هذه الجولة الى أنه - فيما مضى - كان يأمل فى الناس ولكن قضى على هذا الأمل منذ شهرين حادث مؤسف غير متوقع . . . مشيرا الى محاولة ايداعه مخطوط الحوار فى الكنيسة . . . وفشله فى ذلك مما

أسلمه للهباج والاضطراب. ثم أخيرا ، وبما يشبه المعجزة ، الى الهدوء والسلام بعد أن أقنع نفسه أن الله تدخل لمنع وقوع مخطوطه في ايدي أعدائه المتربصين به ..

ولكنه يمضى في انفصاله عن الناس فيقول : « لم يعد هناك ما آمله. أو اخشاه في هذه الحياة ؛ كائنا مسكينا تعسا لكن صامدا كالاله نفسه » أى انه في غروره يشبه نفسه بالله تعالى .. وهو بعدئذ يشير الى الهدف من كتابته .. السجل الذى يتقدم به يوم الحساب الى الله ... وهو فى ذلك يختلف عن الفلاسفة المجددين .. انه يؤمن بالله وباليوم الآخر وهو « يكتب لنفسه ليعيش مرتين » ولكن أصحح ما زعم ؟ اننا اذا سلمنا ان أحلام اليقظة *Les Rêveries* هي المتعة الحقة لروسو وأن التخيل سلوته الوحيدة لكان من الممكن أن نرى روسو يكتب يوميا .. كتابة ينقصها هذا التكامل والجمال والموسيقية التي امتازت بها الأحلام .. ولما كان هناك الحذف والكشط والتصحيح ووضع كلمات مكان أخرى كما وجد المخطوط الأصيل للأحلام بنيوشاتل بسويسرا ، ولكنها الرغبة المستترة التي دفعتها الى الدفاع عن نفسه وتبرير مواقفه هي التي وجهته الى هذه الناحية .. انها تكلمة للاعترافات ولكنه لن يستطيع أن يعطيها العنوان نفسه لانه لم يعد لديه ما يعترف به ومن يعترف اليه .. وقد انقطعت صلته بالناس جميعا .. لا .. بل انه سيجرى التجارب على نفسه ويسبر أغوارها بعناية ويدرسها ويعمل مثل مونتاني *Montaigne* ولكن «مونتاني» كان يكتب للآخرين أما هو فلنفسه .. وهو أخيرا لن يهتم بمصير هذا المخطوط .. الأحلام .. كما اهتم بمصير الاعترافات *Les Confessions* والحوار *Les Dialogues* حينما اراد ان يخفيهما عن أعدائه ومضطهديه .

وهكذا نجد فكرة الاضطهاد ترد على لسان روسو مرات كثيرة في هذه الجولة . ان فيها من الحوار *Les Dialogues* الكثير ، تتردد فيها نفس المعانى والافكار .. تلك حالة روسو النفسية في هذه الجولة : ان الكاتب الذى اعتزم أن يقضى بقية أيامه فى عزلة ووحدة والذى يؤكد أنه يكتب هذه المرة لنفسه لا يستطيع أن يمتنع عن أن يبحث عن أسانيد وأسباب تبرر هدفه .. وهو الذى بالرغم من جهوده فى مخالجة نفسه وعزله .. لاقتفى ذكرى-الناس وصور حقدهم تعاوده وتشقيه .

ومما يجعل للأحلام وبخاصة فى هذه الجولة هذه اللهجة المؤثرة هو امتزاج الدفاع فيها بالتحليل النفساني وبالذكريات .

الجمولة الثانية

وأهمية هذه الجمولة كبيرة لامن ناحية قصة حادث منيلمنتان - وهو منحورها - فحسب بل من ناحية الحالة النفسية لروسو على أثر الحادث .

أثناء عودة روسو من إحدى جولات الاستعشاب اصطدم به كلب دنمركي كبير بجميع جسمه وهو يجري في سرعة فائقة فوق روسو على الأرض وأصيب إصابات جسيمة في وجهه ويديه .

كان ذلك الحادث في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٧٧٦ في ضاحية منيلمنتان Menilmontant من ضواحي باريس . أما هذه الجمولة فقد كتبها في ديسمبر أو يناير ذلك لان زوسنو ينوه بما كتب عنه في كورييه دافنيون Courier d'Avignon في يومي ٣ و ٢٠ من ديسمبر أي بعد الحادث ، بعد فترة نقاهة وبعد أن انقضت أسابيع طويلة لكنها مع ذلك ليست بعيدة جداً عن الحادث فهو يستطيع أن ينقل إلينا الحوادث بدقة

كما أنها بعيدة عن الصدمة نفسها بما يكفي لان يحلل روسو الانطباعات التي خلفتها وترتيبها وتنظيم كتابتها في هدوء .

بدأها من حيث تنتهي الأولى . . . بمقدمة طويلة يصف لنا مدى استعداد نفسه للمشروع الذي عرضه في الجولة الأولى وهو ملاحظة نفسه « علمياً » اذ يثبت « البارومتر » على أعماقها ولكنه يأسف اذ لم يفتن الى عمل ذلك من قبل ، قيل ان تختفى ملكته الخالقة وبعد ان بات يحس « بروح الحياة تدوى فيه تدريجياً » فهو يدرك أنه شارف تلك السن التي يضعف فيها التخيل لتقوى الذاكرة فالإنسان يعيش اذن على رصيده من الماضي لعجزه عن ان يتجدد . وان يخلق . . . وهو يتحدى أعداءه ومضطهديه بل يمضي في سخريته بهم فيقول : انه لولاهم لما استمتع بتلك اللحظات من السعادة ومنتعة التأمل وبالتالي لما نسي تعاسته وشقوته وهو يبدو هنا وكأنما يقول لهم « موتوا بغيظكم لن تنالوا مني بعد ولن آبه بكم » . . .

ولكن لئن ترتب على ذلك الابتعاد عن الناس والاحساس بالهدوء بعيداً عنهم شيء من السكينة وشعور بالانتصار فان فرحته بهما تمنعه من ان يلاحظ حالته النفسية كما اراد وعجزه عن الخلق والتجديد يجعله حزيناً أيضاً عن ان يحلل نفسه . وهو يصف لنا تلك الحالة بدقة في جملة واحدة فيقول : « واني اذ اريد ان استرجع أحلاماً حلوة اراني أستسلم لها مرة أخزى بدلاً من ان أصنفها » وهو في ذلك يشبه رجلاً يريد ان يسجل آثار الكحول عملياً مثلاً فيشربه حتى لا يعود يتذكر شيئاً بالمرّة .

ولكن الجديد هنا هو تحليله لآثار الحادث وإشارة الى بعض ما قيل عنه بعده وما انعكس من ذلك على حاله المعنوية . انه يذكر كل شيء في كثير من الدقة ، يذكر بخطر سيره ويذكر التاريخ كما لا ينسى أسبغاً الزهور وفصائلها ولا الانطباعات المختلفة التي سبقت الحادث والتي أعقبته وفي كل ذلك شيء من التعارض مع ما قرره لتوه من عجزه عن الملاحظة الذي يشكو منه .

ان حادث اصطدام روسو بكلب كبير ، نتجت عنه بعض الاصابات ؛ حادث عادي في ذاته لكنه ولا شك يحتل حيزاً كبيراً هاما في ذهن انسان كروسو يحس اضطهاد البشر له فيعذبه ويظلم حياته . . . ولعل ما لا بأس تلك الحادثة من قصص وأقوال وكثير منها ان دل على شيء فانما يدل على روح شامخة ساخرة مما يزيد الطين بلة اذ يبلغ تشكك روسو ذروته فلا يعود يثق بأحد حتى بأولئك الذين يودون ان يقدموا له الخدمات ، فقد

تشييع انه مات ، وقيل انه احسن اذ فعل كنا اختلفت الآراء في تفاصيل الحادث نفسها ولعل بعض الشامتين الساخرين كانوا اولئك الذين ينتظرون في قلق بالغ ظهور مؤلفه « الاعترافات Les Confessions وفيها الكثير مما يكشف نواحي يحرسون علي اخفائها .

نشرت جريدة الكورنيه دافنيون Douvier d'Avignon في ٣ ديسمبر عام ١٧٧٦ خبر الحادث فقالت « لقد أوقع كلب دانمركي روسو منذ بضعة أيام وهو مريض جدا نتيجة لسقطته » وفي العدد التالي كانت تكتب عن موته قائلة « لقد عاش فقيرا ومات حقيرا » ثم تصفه ككاتب فصيح لا يجب أن يتكلم الانسان عن مواهبه لانه « أساء استعمال تلك المواهب » .

قد تثير هذه الكلمات أكثر الناس هدوءا فما بالناس بروسو وقد زادت صدماته واحدة بفضل كلب يملكه أحد الاغنياء .

أرسل له من يدعى مسيو لنوار M. Lenior يعرض عليه خدماته عن طريق سكرتير له ومعجبة هي مدام دورمو Mme D'Ormooy بعثت اليه كتابا يتضمن مديحا لشخصه فرفض عروض الاول وكانت القطيعة بينه وبين الثانية .

وقد كان من الجائز أن تتغير نظرتة للناس ولو قليلا لو انهم أبدوا نحوه في تلك المناسبة شيئا من الود والعطف والرعاية فهو انسان حساس طيب القلب ، ولكنهم لم يشاءوا الا أن ينفروا بقسوتهم عليه . انه يتألم ولكنه يتقبل «الألم» تقبل المؤمنين بالله فيقول «ان الله عادل ولكنه يريد أن أتألم وهو يعلم أنني بريء» .

- ومع ذلك فقد كتب رونسنو لنا تلك الجولة المرتجئة في افكارها الصادقة في تحليلاتها اذ تعد نموذجا للانشاء القوي البديع المنظم .

الجولة الثالثة

كما ان هناك فكرة تصل الجولة الاولى بالثانية ، هناك واحدة تصل هذه بالثالثة مما يجعل من هذه الجولات الثلاث موضوعا يكاد يكون مترابطا تماما . . . وعنوان هذه الجولة «انى اشيعخ ولا ازال اتعلم» يشير بذلك الى بعض ماجاء بها .

ونحن اذ نجد فى نهاية الثانية هدوءا لم يصل اليه روسو من قبل ولكنه انتهى اليه فى احساناته وذهنه واستمدته من استسلامه لكل أنواع الاضطهاد ولشبيثة الله نرى هنا الهدوء الفكرى والنفسى الذى استقر عليه نتيجة لاعتناقه بعض المبادئ الاخلاقية ولصلاحه لنفسه ووضع أسس لعقيدته وسلوكه . . . ومن هنا كانت هذه الجولة على قدر غير يسير من الاهمية .

يستهلها بمقدمة هى تأمل فى الشيخوخة عموما وفى شيخوخته خاصة وفى نوع المغانم الفكرية أو المعنوية التى تلائم تلك الشيخوخة ويشفعها بحقائق عادية لكنها تغدو هامة اذ يطبقها روسو على نفسه فتتخذ بذلك طابعا شخصيا . .

منها ان الانسان يتعلم معرفة الناس متأخرا فهو لذلك لا يفيد من تلك المعرفة ، وانه يجدر به حتى يسعد في حياته ان يجهد ما قد يحزنه ، وان الوهم خير من حقيقة رهيبة ، وان علم الحياة تهيئة للموت . . . وأخيرا ان الشيوخ يتعلقون بالحياة أكثر من تعلق الشباب بها .

تلك الوقائع وان كانت عادية كما قلنا الا انها تلقي الضوء على فلسفة روسو في الحياة . . . انه يرى ان الشيخوخة هي وقت تعلم أشياء مفيدة هادفة ، فلا يترجم بعضهم مثلا كتابا أو يقوم بأبحاث في الرياضة . انه هو ذاته حين يمارس جميع النباتات فلانه يطبق ذلك تطبيقا مفيدا ويتريض في الهواء الطلق في الوقت نفسه . وهو اذ يرى في سعادة الانسان جهله بما قد يحزنه يطبق ذلك على نفسه فيقول : «لقد كنت مغفلا وكنت ضحية لهم لكني كنت اظنني محبوبا منهم وكنت أستمتع بتلك المحبة التي أوحوا بها الي» .

واذا ما قال ان الوهم خير من حقيقة رهيبة نجس أنه لا بد وقد بذل جهدا كبيرا ليقول ذلك هو الذي يقرر أنه أشد الناس حبا ومراعاة للحقيقة مهما كانت. ونذكر مع ذلك تأله البالغ لتلك الحقيقة وعمده الى الهروب منها . . .

وأما الحقيقة الرابعة فهي تنطبق عليه الى حد كبير فانه برغم ايمانه العميق يلاحظ بنفسه أن فكرة موته لا تحتل الا حيزا صغيرا من تأملاته . والحقيقة الخامسة مصداق لما يفعله روسو نفسه في هذه «الجولات» انه يحاول العودة الى الماضي يستعيده «لتجيا بذلك مرتين» كما يقول .

ثم هو يتناول بعد ذلك ثلاث مراحل من حياته مرحلة قبل اصلاحه لأمور نفسه وأخرى خلاله وثالثة حين تم ذلك الاصلاح . . .

فهو يتكلم عن نشأته بين اناس يدينون بالتقوى أي أسرته ومعلمه (مسيو لامبرشينييه M. Lambercier) ثم مدام دوفواران Mme de Warens التي أنارت له طريق المعرفة وملأت قلبه بمشاعر الوجد والتقوى . والواقع ان تلك النشأة لم تكن دائما تسليمة لا تشوبها شائبة فنحن نعرف أباه وكيف أنه علمه كيف يقرأ القصص والروايات قبل الكتب الجادة وهو لما يزل طفلا صغيرا ثم لم يلبث ان هجره . . . وأما القسيس لا مبرسييه Lambercier فلم يكن دائما فوق مستوى الشبهات ومع أنه علم الطفل تعاليم الدين

انبروتستانتى الا ان هذا سرعان ماتحول الى الكاثوليكية فى يسر على يدى مدام دوفواراز Mme de Warens التى كان سحرها وعطفها اقوى لديه اذ ذاك من كل دين فنجده يقول فى «الاعترافات» Les Confessions «وقلت فى نفسى ان دينا يدعو اليه مثل هؤلاء الرسل لابد مؤد الى الجنة» .

وهنا عبارة تستحق التفسير انه يقول : «لقد تحولت الى كاثوليكي ولكنى بقيت مسيحيا» لاريب انه يعنى هنا بالمسيحية الايمان اى انه لا يجد تفرقة بين الكاثوليكية والبروتستانتينية . وعلى ذلك يمكن القول ان ديانة روسو كانت فى قلبه فحسب وهى دين طبيعى لا يتقيد بمراسيم ومظاهر ولا بهم فيه ان يعتنق مذهباً بعينه .

يقول روسو انه كان قد حدد سن الاربعين كمرحلة لاصلاح حال نفسه خارجيا ودخليا ، ولما كانت تلك الفترة من حياته هى التى تلى حديثه عما «اذا كانت العلوم والفنون قد ساعدت على تطهير العادات» فقد احس ضرورة تطبيق آرائه على نفسه اولا ليكون متمشيا معها وحتى لا يبدو امام الناس متناقضا مع ما يكتب . فتخلى عن كل زينة «فلا ساعة ولا سيف ولا حلى ذهبية بل رداء سميكاً من الصوف» . ولكن للإسف لم تزد تلك الخطوة الفلاسفة الا دهشة وتعجبا بل انهم اعتبروه مجنوناً وبخاصة ديدرو Diderot اذ يبدو على تلك الحال من التقشف وهو على اعتاب الشهرة :

وكان ذلك احد اوجه الخلاف بينه وبين الفلاسفة الذين يسميهم بـ «السفسطائيين» والمعروف ان السفسطائيين Sophistes وهم قوم اشتغلوا بالفلسفة قديما كانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وينادون بانه يجب ان يتحرر الانسان من القانون الاخلاقى وان يساير الطبيعة وهى عندهم الشهوة . . ثم جاء من بعدهم سقراط Socrate وافلاطون Platon وارسطو Aristote الذين هاجموا تلك الطبقة من الـ «سفسطائيين» وكان الاخير - اى ارسطو - يعتبر الانسان عقلا وحسباً ، وعلى العقل ان يسيطر على شهوات الحس والجسم وان يضع القانون الخلقى الذى ينبغى ان يسير بمقتضاه سلوك الانسان ولعل روسو هنا وقف من فلاسفة عصره موقف ارسطو من السفسطائيين قديما .

لقد احس فى تلك الفترة بثقة فى نفسه جعلته يؤمن بمواهبه فى الكتابة وكانت العزلة بعيدا عن صخب المجتمع ضرورية لتنمية تلك المواهب ومساعدته على التفكير فى هدوء وتامل فابتعد عن الناس واعتكف . . ولكن انار ذلك فضولهم لمعرفة سر اختفائه . ولقد بين لنا روسو فى «الاعترافات» Les Confessions الظروف الخارجية لهذا الاضلاع الخلقى . فقال انه كان

يعيش طيلة الوقت في القابة « كنت أبحث فيها وكنت أجد فيها صورة العصور الأولى التي كنت أسجل في فخر تاريخها .. وتكنت أقارن بين الانسان صنعه الانسيان ، والانسان صنعه الطبيعة » .

وفي تلك الاثناء كتب حديثه عن عدم المساواة بين الناس
Discours sur l'inégalité parmi les hommes.

كانت الطبيعة والعزلة عنده ميبذرا للفضيلة وعن طريقهما يلتقى بالله وبصنعه .. ولكن كان هناك أيضا ميله الى العزلة اذ ذلك لانه كما قال هنا « بدأت أحس (بالمؤامرات تحيط بي) تدريجيا » .

ولكننا هنا حيا ل نفسية معقدة هي نفسية روسو التي أسهم في تعقيدها البشر والاقدار على السواء لذلك كان من العسير سبر أغوارها وتبين دوافعها الخفية في وضوح .

وأما نتائج ذلك الاصلاح فقد ضمنها كتابه « اشهار عقيدة كاهن من سفوا La Profession de foi du Vicaire Savoyard ولكن على أي أساس اقام تلك العقيدة ؟ .. » انها مبادئ يملئها على روسو احساسه الذاتي . هذا الحدس المستتر فيه ، ذلك الالهام الذي ينبعث من أعماق قلبه والذي طبعت الطبيعة بحروف لاتمحي » .

انه يعتقد في وجود اله منظم للكون وفي أن الانسان حر واذن ففي مكانه أن يذنب وان يجلب الفوضى والاضطراب في عالم كان كل شيء فيه مهيا لسعادته .

وهو يعتقد في خلود الروح ويفترض أنها لاتموت فيقول « ما دام ذلك الافتراض يعزيني ولا يتضمن شيئا من عدم التعقل فماذا أخشى من تسليمي به » ولذلك يتعلق بأهداب عقيدته تلك التي تقول له « كن عادلا تكن سعيدا » .

وعنده أن الوازع الأخلاقي لا ينفصل عن العقيدة الدينية وهو لا يؤمن بالوحي ولا بالمعجزات .

وهكذا نجد روسو في حاجة الى أن يعتمد على احساسه الذاتي وعلى منطق قلبه حتى تتكامل أركان عقيدته .

وفي نهاية هذه الجولة نجد روسو وقد عاد الى الفكرة الأولى التي

استهلها بها .. انه يكرس أخريات أيامه لدراسة أكثر فائدة وأكبر قيمة
هي دراسة نفسه والتزامه لفضائل يساعده عليها تجرده من جسده الذي
يقش عينيهِ عساه أن يخرج من الحياة بميتة هادئة طيبة تكفر عما قاساه
في أيامه من شقاء .

ولكن هذه الثقة وهذا الهدوء نراهما وقد اعتراهما بعض القلق
والاهتزاز في الجولة التالية الرابعة .. حيث يعرض مسألة الكذب .

الجولة الرومانسية

في هذه الجولة جدال طويل حول الكذب والحقيقة وهي
تقل عن سابقتها فلسفة وعمقا ولكنها تعكس مع ذلك حالة
روسو الذهنية المعذبة . انه لا يزال يخاف عذاب الله فهو
يحاول أن يبرر اخطاء له فحواها الكذب في قالب دراسة
اخلاقية . ولهذه الجولة - كما لمعظم الجولات - نقطة بداية
هي في هذه المرة كتاب تلقاه من الاب روزيه L'Abbé Rozier
وترجع الصلة بين روزيه وروسو الى عام ١٧٦٨ . قام معه
بجولات استعجاب طويلة كان من شأنها تقوية الروابط بين
هذين الفيلسوفين^(١) . لما بينهما من توافق في الطباع
والميول . بدأ روزيه هذا الكتاب بفقرة جاء فيها : «الى الرجل
الذي يكرس نفسه للحقيقة، وبدلا من أن تمر هذه الفقرة
ببساطة يرى روسو فيها هزا وسخرية به وتعريضا بشخصه
ومنشأ ذلك بلا ريب هو الشك الذي استولى على نفس روسو
في السنين الاخيرة من ناحية اصدقائه جميعا . ولكنه لا يتشكك
في روزيه Rozier . فحسب بل يعتبره عدوا له . وهو في

هذا يلجأ الى كتاب من أوائل الكتب التي قراها. في طفولته يقول : انه لا يزال يتابع قراءته في أواخر أيامه . وهو بلوتارك Plutarque الذي كتب عن « طريقة افادة الانسان من أعدائه » .

وهو - على ضوء ما فهمه من كتاب الاب روزيه - يبدأ بفحص نفسه من ناحية الكذب . ويروي هنا حادثا وقع له في صباه سبق أن رواه كذلك في الاعترافات Les Confessions هو حادث سرقة الشريط واتهامه ظلما الحنادة ماريون Marion ذلك الحادث الذي ظلت ذكره تؤرقه طيلة حياته . وهو هنا أيضا يصفى نفسه من بعض ما جاء مخالفا للحقيقة في « الاعترافات » من ناحية التاريخ مثلا أو بعض التفاصيل الصغيرة مملا ذلك بأنه لم يكن يبغى الكذب عمدا وإنما صدر ذلك عن ضعف في ذاكرته جعله يضع بعض التفاصيل التافهة موضع تفاصيل أخرى مثلها .

ولكن لم كان روسو يولى مسألة الكذب كل هذا الاهتمام ؟ لانه على مبدئه في الحياة وهو « تكريس نفسه للحقيقة » يترتب تصديق كل ما جاء في دفاعه عن نفسه في « الاعترافات » وفي « الحوار » و « الاحلام » كذلك .

والواقع أن روسو في الاعترافات وفي الحوار أيضا لا نراه يكذب الا في القليل النادر وفي أمور صغيرة أو لاقيمة لها . بل انه في منازعاته مع الفلاسفة مثل فولتير Voltaire وديدرو Diderot وغيرهمنا كان يلتزم الصراحة المطلقة بل كان يلتزم الجانب المضاد لصالحه أحيانا ومثال ذلك مسلكه من مدام دابنای Mme d'Epinay نفسها حين أبي أن يصحبها في سفرها وما تلا من خروجه من عندها وحرمانه من العزلة التي كان يهواها في الأرميتاج L'Ermitage ويعزى ذلك الى حاجته الى الصراحة دائما من ناحية والى انه يجب أن يكون مستقلا حرا من ناحية أخرى .

ثم يستمر في تأملاته فيتابع جدلا منطقيًا حول الكذب يتناول فيه تفرقات وتقسيمات وتدابيرات على جانب من الإبهام أحيانا . وفي رأيه أن الانسان لايجب أن يكذب في أشياء ذات أهمية ولكن يمكنه أن يفصل ذلك فيما لاقيمة له وفيما لا يترتب عليه ضرر بنفس الشخص أو بغيره . ومع ذلك فالحقيقة عموما هي الفضيلة الأولى يجب اتباعها في كل الاحوال .

وروسو في هذه الجولة ليس مسوقا برغبته في ايجاد تعريفات مختلفة للكذب وظروفه فحسب بل انها الرغبة الخفية في تبرير تصرفاته والتخلص من تائب ضميره هي التي تدفعه دائما اليها .

وهو يقارن كذلك بين من يسمى نفسه بالإنسان الصادق :- وهو الفيلسوف . . وبين الإنسان الذي يعتبر في نظره هو صنادقا ومخلصا حقا ، الشغوف بالحقيقة والصدق . . انه يحاول هنا التخلص من خطاياها بالقائها على الفلاسفة وهو يواسي نفسه بقوله : ان العدالة والحقيقة في ذهنه مترادفتان وهو عادل يتوخى العدالة ، واذن فهو صادق يتوخى الحقيقة أيضا .

ولكنه برغم كل هذه الجهود يحس أن سكينته ليست كاملة فهو يقول : ولكن لا أزال أحس ان قلبي ليس راضيا عن هذه التفرقات لدرجة اعتقدي معها اني غير مذنب، ولكن يعزى نفسه بالفكرة التي استهل بها الجولة الثالثة كما اختبها بها وهي أن الشيخوخة هي وقت استكمال الفضائل . . فهو اذن ماض في اكتساب تلك الفضائل حتى آخر يوم له في الحياة .

وهكذا نجد أن هذه الجولة الرابعة متاهة منطقية مليئة بالتخريجات والملف والدوران وتنم عما يعتمل في قرارة نفسه من تدم واحساس بالذنب يلاحقه ويؤرقه .

وكأنما تعب من تلك الحيرة فنجدته يطلع علينا بالجولة الخامسة يستعيد فيها أياما سعيدة . قضائها في جزيرة سان بيير Ile de Saint-Pierre . معتزلا للناس بعيدا عن التفكير الذي يرضيه ويرهقه .

الجمولة الخامسة

قد تكون هذه الجمولة أهم الجولات جميعا سواء من ناحية الوصف الرائع لجزيرة سان بيير Saint-Pierre أو من ناحية فلسفة جان جاك روسو لفكرة السعادة .

وقبل أن نبدأ في تناول ما جاء بها نقدم بملاحظة صغيرة على أن هذه الجمولة من ناحية موضوعها تعادل تماما شطرا من «الاعترافات» Les Confessions (الجزء الثاني - الكتاب الثاني عشر) اذ يتناول تقريرا المعلومات التي ترد هنا بل وغالبا نفس الالفاظ ولو أنه سرد ذلك في «الاعترافات» بنظام يختلف تماما . ولكن لم فعل ذلك ؟ أهو جذب في تأملاته وتخيلاته ما جعله يعاود كتابة ما سبق أن أورده في أماكن فينقل عنه وعن نفسه مرة أخرى؟ ونحن نعرف أن روسو لا يحب أن ينقل شيئا سبق عرضه ، سواء كان له أو لغيره . . . إذ نراه يسرد أحيانا أقوالا لكتاب آخرين بشيء من التحريف معتمدا على ذاكرته دون أن يلجأ الى أصل ما كتب ذلك الكاتب لا شيء إلا لأنه لا يحب النقل والتقليد . . . ألم يكن يجدر به أن يحيا حتى

نفسه ذكريات أخرى سعيدة لم يطرقها من قبل؟ من هنا يتضح لنا عمق الأثر الذي خلفته في نفسه إقامته في تلك الجزيرة الحبيبة إلى نفسه بطبيعتها وعزلتها وهدوئها . . . انه لم يعد يذكر عنها إلا الخير والهناء . . . في حين أنه في « الاعترافات » يسوق وصفها في إطار من التنقل والاضطهاد الذي يميز تلك المرحلة من حياته .

واذن فالهدف من هذه الجولة الخامسة هو تعريف السعادة التي استمتع بها مستخلصا من وصفه للمكان الذي استشعرها فيه . وفي الجزء الأول من هذه الجولة يصف الكاتب الجزيرة وطبيعة الحياة التي كان يحيها فيها . . . أما في الجزء الثاني فخواطره وآراؤه عن السعادة ومعناها .

وهو يستهلها لا مستذكرا جزيرة سان بيير Saint-Pierre فحسب بل أماكن أخرى بديعة عاش فيها . ولا ريب أنه كان يفكر إذ ذاك في الشارميت Les Charmettes عند مدام دوفوران Mme de Warens والأرميتاج L'Ermitage عند مدام دابنای Mme d'Epinaى ومونتورنسى Montmorency عند المارشال دو لوكسمبرج Maréchal de Luxembourg وفيها جميعا ذاق جمال الطبيعة ومفاتها واستمتع بشبه عزلة ارتاحت لها نفسه . . . ولكنه يتوقف مأخوذا بسحر جزيرة سان بيير وهي جزيرة لم تكن معروفة تماما حتى في سويسرا ولكن ريشة الكاتب الساحرة وجهت اليها الأنظار وجعلتها مهبط السياح من كل فج منذ ذلك الوقت . والجزيرة بموقعها وسط بحيرة بين Le lac de Biènnه كانت تهيأ لحالة رؤسو النفسية إذ ذاك . . . انها « تبدو كأنما جعل موقعها خصيصا من أجل من يحب الإنطواء على نفسه » . . . وهل كان هناك من هو في حاجة إلى العزلة والإنطواء أشد من رؤسو في ذلك الوقت بعد أن طورد ورجم منزله وذاق عذبات السفر والترحال ؟

وهو يبدأ وصفه بمقارنة بين شواطئ جزيرة سان بيير وشواطئ بحيرة جنيف Genève وفي جنيف يقضي رؤسو مرحلة طفولته وعلى مباحج البحيرة تفتحت عيناه وثيقظت أحلامه . . . فالأولى تمتاز عن الثانية بالنظرة الرومانتيكية وكلمة romantique هنا تشير الدهشة في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر وهي كلمة إنجليزية من أصل ألماني لم تستعمل في اللغة الفرنسية إلا منذ ذلك القرن . ولا ريب أن رؤسو استعملها هنا لأنه كان بحاجة إلى التعبير عن احساس جديد وجدها تترجمه تماما أو بالأحرى لينبيء بطريقة أدبية جديدة في التعبير، ويعهد جديد وهي الرومانتيكية Le Romantisme وكان المترجمون الفرنسيون في منتصف القرن الثامن عشر لا يزالون

يعبرون عن كلمة رومانتيك *romantique* بـ *romanesque* أو *pittoresque* .
نرى ميل إلى الشعاعية والخيال . ولعل المعنى هنا ينطبق عليه تعريف
فينلون Fénelon في «حوار الموتى» *Dialogues des morts* (١٧١٢) حيث
قال «هذه أبداع صحراء يمكن أن يراها المرء . . ان الطبيعة هنا تبدو موحشة
رهيبة ولكنها تثير الإعجاب وتحمل على أن يحلم المرء في استمتاع» .

ولو أن روسو هنا يستعمل أيضا كلمة *Romanesque* في نفس هذه
الجملة وهكذا فتح روسو الطريق أمام هذه الكلمة فاستعملها فيما بعد كتاب
وشعراء مرديين كلمة *Romantique*

ويتحسر روسو لأنه لم يمكث في تلك الجزيرة سوى شهرين .
والواقع أن روسو بأعصابه المتعبة ونفسيته المرهقة وميله الدائم إلى العزلة
كان يود لو أنه «سجن هناك بقية حياته» سبجنا اراديا اختياريا يتفق أولا
وقبل كل شيء مع ميوله وحاجته إلى الراحة . . ولكن مجلس شيوخ برن
Berne أصدر أمره بنفيه من الجزيرة فخرج منها مكرها مغلوبا على أمره .

والآن فيم كانت سعادته في تلك الجزيرة ؟ انه كما يقول : « كانت
هناك صاحبتى (أى تيريز لوفاسور) والمحصل وزوجه وخدمة وكلهم في
الواقع أناس طيبون ولا شيء أكثر من هذا» ، اذن لم يكن روسو اذ ذاك
في عزلة مطلقة . . كما انه لم يكن كذلك متعطلا عن العمل تماما فلم يكن
الفراغ الكامل من ميول ذلك الكاتب ، بل كان يحب أن يتخلله عمل منسج ما
وقد سبق أن بين ذلك في «الاعترافات» (الكتاب الثاني عشر) . وكان يملا
حجرته زهورا وأعشابا جافة «لأننى كنت اذ ذاك في بدء ممارستى لدراسة
النبات تلك الدراسة التى غرس دكتور ديفرنوا *D'Ivernois* فى نفسى
اليها ميلا أصبح شففاء» . ثم هو يصف لنا بعد ذلك حلمه فوق صفحة الماء
انه يهرب خلسة من رفاقه فى الجزيرة «ليستلقى فوق زورق يبحر به
وسط البحيرة وقد أدار عينيه نحو السماء» ، وهو يحلم حلم اليقظة هنا
تحليلا له أهميته البالغة لأنه الاول من نوعه قبل أن يصف الزومانتيكيون
اندماج الانسان فى الطبيعة . . وهو يبين عناصر هذا الحلم :

أولا - ضرورة وجود حركة تؤدي الى اختلاجات النفس (وهى هنا
مد الماء وجزره) .

ثانيا - الحالة التى ينتهى اليها ، أى البساطة الكافية للاحتساس
بالوجود . كان ذلك كافيا ليجعلنى أحس بلذة وجودى دون أن يرهقنى
التفكير .

ثالثا - استنداؤه بعوامل خارجية « فلا أستطيع أن أنتزع نفسي
منها دون مشقة » .

ثم ينضم الى الجماعة فيلهون ويتحدثون ويتضحكون ولا عجب فهو
يحب البساطة في كل شيء : البسطاء من الناس والبسيط من اللهو كما
يحب الأغاني الخفيفة والموسيقى الايطالية المليئة بالاحساس والعاطفة
ويفضلها على موسيقى جلوك Gluck ورامو Rameau المعقدة في نظره .

من كل تلك الذكريات يستخلص روسو نظريته في السعادة :

« ليست السعادة في اللحظات القصار من المتع الشديدة والهوى
ولكنها حالة بسيطة دائمة » .

ولا ريب أن الصدمات التي لقيها روسو في حياته في المجتمع وفي
حياته العاطفية جعلته يجد السعادة في الهدوء الذي يحاول أن ينقله اليها
هنا أي في حياة تسمح لخياله بأن يجلق ويخلق ، والتي تتفق تماما هنا
وحالته النفسية والعقلية من جهة وسنه المتقدمة من جهة أخرى . إذ
كيف نستطيع أن نسمى سعادة «حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال
فارغ» أليست تلك هي الرومانتيكية بقلها وحيرتها ؟ ثم هو يستمر في
سرد خصائص وظروف ومراحل تلك السعادة الكاملة وقد تجمعت كلها في
جزيرة سان بيير بل إن تلك الأحلام الصغيرة السعيدة يمكن تحقيقها في
سجن الباستيل مثلا مادام المرء هادئا بعيدا عن المنغصات ولو أنها حينئذ
تكون أقل متعة منها في «جزيرة خالية حدودها طبيعية لاتعرض للنظر
فيها الا صور ضاحكة» .

ولكننا نراه أخيرا في هذه الجولة وفكرة الاضطهاد تلح عليه . . انها
تلاحقه حتى في أجمل ساعاته واسعددها فيتمنى أن يعود ليقضى بقية عمره
في تلك الجزيرة «ولكن الناس لن يدعوا لي مثل ذلك الملاذ البديع حيث
رفضوا أن يتركوني» . . ولكنهم مع ذلك لم يمنعوه من أن ينتقل اليها على
أجنحة الخيال . . في أحلام يقظته « حيث ثقلت الأشياء من حواسبي أثناء
نشوتي » وهو هنا في هذه النشوة يكاد يشبه شرقيا متصوفا في لحظة
اشراق .

ثم تأتي أخيرا الصرخة المتحسرة « وأسفاه ! » أسفا على لحظات يرى
نفسه ماضيا في سبيل الابتعاد عنها حيث يتمنى أن يعيشها من جديد .

الجولة السادسة

لئن كانت هذه الجولة أقل امتاعا من سابقتها الا انها لاينقصها أن تكون على شيء من الأهمية لما تلقيه من أضواء على استعدادات روسو من ناحية عمل الخير وحبه لاسعاد الناس وهي تشبه الجولة الرابعة من ناحية انها تعالج احساسا من احساس روسو في تعامله مع الناس . . وهذه الناحية تردت كذلك في « الحوار » ومررنا بها كذلك في الجولة الثالثة حين تكلم روسو عن اصلاحه لنفسه .

يعود بنا روسو هنا الى باريس . . حيث «وبالامس فقط» كان ذاهبا للاستعشاب على ضفة نهر ال « بييفر » Bièvre في ناحية « جنيني Gently واذا به ينمط متحاشيا المبرور ب « بوردانفير d'Enfer (أي باب جهنم) على تحسيرة عاداته فيتساءل لم اراد أن يتحاشى المواية ؟ انه يذكر أن ذلك كان بسبب طفل صغير لطيف لكنه أعرج دأب على تحيته يوميسا وكان يسره ذلك في مبدأ الامر ولكنه أصبح يضيق به في النهاية ويفسر ذلك في السطور الاولى من تلك الجولة اذ يقول

ليست هناك جرعة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا في قلبنا اذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بأحسين عن ذلك التعليل ، ومن ذلك نذكر كيف كان روسو يميل الى طبقة الشعب البسيطة وكيف كان يتوجس خيفة من المقابلات المنتظمة كما كان يخشى كذلك أن يتعرف الناس عليه . . . ولقد سبق ذلك في « الحوار » فهو يظن دائما أن أعداءه يرسلون من يتجسسون عليه ويطلعون على أحواله الخاصة .

« ولقد تحولت - ولست أدري كيف تحولت - هذه المتعة التي غدت عادة بالتدريج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ، »

من هنا تبدأ سلسلة تأملاته التي تسلمه الى تحليل خاصة في طباعه هي الخوف والهروب من كل ما يلزمه أدبيا . . . انه يحب عمل الخير وان يسعد الناس ولكن ما ان يحس انه أصبح مقيدا بواجب حقيقي أو مفروض وعندما يعتقد أن أحدا ينتظر منه تكرار خدمة ما حتى تثور الحرية فيه ويعمل جاهدا للتخلص من سلطان الناس عليه ، ولكن سرعان ما يجد لنفسه ظروفا منخفضة فهو يقول انه طالما عمل الخير ولكنه كان ينقلب ويفسر ضده وهو اذ يتكلم عن « مغامرين كانوا يأتون للتسلط عليه وارغامه » يردد مقاله سابقا في « الحوار » وخاصة في « الحوار الثاني » . وهو يقول : « اننى وان لم أكن فاضلا الا أنى رجل طيب القلب » وهو يردد هنا أيضا مقاله من قبل في الجولة الثالثة .

وأذن فقد انتهى الى أن الامتناع عن عمل الخير خير من التعرض لتسلط الناس عليه وهو في صراعه مع ضميره الذي ينخره يلقي اللوم أيضا على أولئك الذين تغيروا منذ عشرين سنة أى منذ القطيعة التي كانت بينه وبين مدام دإبناي Mme D'Epinaى فهو حين يشعر انه خدع لا يستطيع أن يتغلب على نفوذه ولا يستطيع بالتالى أن يقدم على عمل الخير فيعتبر « أى عمل صالح يقدم له كأنما هو شرك جديد ينصب له » .

ولكن روسو يخطئ اذ يقرر انه فى الوقت الذى يكتب فيه لم يكن له أصدقاء من بين الناس منذ عشرين سنة ، حقا انه أبعد الكثيرين عنه ولكن كان له مع ذلك أصدقاء مثل ديكلو Duclos وبرناردين ذو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre وديفرنوا D'Ivernois وهو الوحيد تقريبا الذى لم يجد ما يعتب عليه به حتى مات .

كأنا انه ليس صحيحا أنه لم يصادف فى العشرين سنة الاولى أيا اشخاصا كرماء شرفاء يعملون دائما لصالحه فكثيرا ما قابل منهم من تسببوا

له في اذى مادي او معنوي كالحفار الذي كان يعمل عنده ويسىء معاملته والقنص الذي عرفه بسر بعض الانحرافات الخلقية والشهبان المغامرين لغامدين الذين قابلهم في شامبرى Chambery وفي الشارميت Charmettes والتي كانت مدام دفوران تحاول التفرقة بينهم وبينه .

وأخيرا - وكعادة من يهيمنون في الخيال فيستحوذ عليهم ويفرهم بالابتعاد عن الواقع بأساليب خرافية - يتمنى روسو لو أنه أوتى خاتم جيغيس Gygis (الذي ذكره سيرون واذن لفعل كل ما يحلو له دون أن يراه أحد . . فهو ينعى شهرته التي ألبت الناس عليه ومنعته من اسداء الخير جهرا . . ولكنه يعود فيخشى لو انه امتلك ذلك الخاتم ان يفريه سلطانه يارتكاب مغريات لا قبل له على الصمود أمامها . . ولكن سيرون ينتهي إلى القول باننا يجب أن نفعل الخير ولو انه ليس هناك من يرانا . . وروسو يحب أن يرى السعادة تفرق على الجميع ، واذن لما لم يكن مخدوعا من أحد فلن يسىء استعمال الخاتم . . انه يتغنى بطيبته وبنواياه الحسنة نحو الناس . . ولكنه لن يكون غير مرثى فحسب بل سيستطيع أن يقرأ خفايا قلوب الناس واذن فهذا الحلم السعيد نتائج : منها أنه سيكون رايه متعلقا متزنا عن الطبيعة الانسانية «اننى اذ أقرأ في يسر ما في قلوبهم قد ألقى منهم بعضا ممن يستحقون محبتي وبعضا آخر ممن يستحقون بغضائي» .

ومن نتائج استعمال ذلك الخاتم أيضا انه قد يستطيع اتيان المعجزات وان يقيم العدالة السمحة الرحيمة بين الناس بدلا من العدالة المتزمتية القاسية . . وهو يشير هنا إلى معجزات القديسين كزيارة قبر سان ميدارد Saint Médard (وكانت باريس كلها سنة ١٧٢٨ تؤمن بذلك وتتسابق إليه ليشفى المرضى من الناس) .

وأخيرا . . ان الجسد ضعيف . . وهناك احتمال اتيان حماقة ما . . واذن «فبعد تأمل الأمر مليا . . اعتقد أنه من الحسير أن أطوح بخاتمي السحري قبل أن يتحتم على الاقدام على حماقة ما» .

وتنتهى به هذه الاحلام الحلوة إلى أنه يكون «مخطئا لو انه تأثر بالطريقة التي يرونها بها . . اذ لست أنا الذي يرونى على هذه الصورة ، وهذه الراحة في التفكير . . هي شأن الخياليين المصابين بالثيزوفرانيا (الفصام) - ومن بينهم روسو - الذين يعزودون من حلم خيالي حلو لاصلة له بالواقع على الاطلاق وهم في أحسن حالاتهم النفسية .

ويتنقل روسو بعد ذلك الى فكرة اخرى يعزو عن طريقها عدم تقبله
لحياة المجتمع الى ميلا الى الاستقلال ثم هو يورد تعريفا للحرية فيقول :
« لم اعتقد ابدا ان الحرية من شأنها ان يعمل المرء ما يريد ولكن في الا
يعمل ما لا يريد » .

ثم هو يقابل بين هذه الحرية وبين تعصب الفلاسفة الذين يكرهون
الحرية في الآخرين ولا يريدونها كذلك لانفسهم .

ثم يعود الى التغنى بقلبه الحير فيقول : « اما عن الشر فلم يكن لارادتي
منه نصيب في حياتي واني اشك ان هناك انسانا في هذه الدنيا ارتكب
منه اقل منا فعلت » . فهو يضع القدم هنا وهو مطمئن الى انه اراح ذهنه
وضميره مرددا انه وان لم يكن افضل الناس فهو احسنهم بل هو ربما
في راي نفسه - كان اقرب الى الملائكة منه الى البشر .

الجولة السابعة

تبدأ هذه الجولة بجملة تجعلنا نعتقد أن روسو كان يصدد كتابة مؤلف أكثر أهمية « لم يكذب يوماً سجل اعلامي الطويلة ولكنني أحس أنه مشرف على نهايته » واذن فمن الجائز أن يكون روسو قد توقف عن الكتابة وهو لا يزال في الربيع أو الثلث الأول من مؤلفه لانه كان ينوي المضي في كتابة « سجل طويل » .

والجولة ذات موضوع جديد أصيل ولو أنها مثل الأخريات من ناحية كونها تأملات خاصة محورها روسو نفسه .. انها - الى جانب هذا - دفاع عن روسو نفسه .. وان لم يكن دفاعه هنا في حرارة الدفاع التي جاء بالجولات الرابعة أو الخامسة أو السادسة مثلاً ..

فهي تتناول موضوع الاستعشاب ودراسة النبات ولا بد أن يجيء دفاع روسو عن نفسه امام من يهاجمون هذا اللون من العمل أقل حرارة من غير شك من دفاعه عن نفسه ضد من كانوا يتهمونه بالكذب أو بكراهيته للناس مثلاً ..

وليس روسو اول من دعا الى دراسة النبات وحبذها فقد سبقه فنلون Fénelon وبوفون Buffon (الذى كتب عن « التاريخ الطبيعى ») ولو ان كتابه كان لا يزال فى مرحلة الاعداد للنشر حين كان روسو يمارس الكتابة فى النبات اذ لم يتم نشره الا فى عام ١٧٨٨ أى بعد وفاة روسو بعشر سنوات . وكانت دراسة النبات من الدراسات التى شاعت بفضل لينييه Linné الذى أعجب به روسو كثيرا فى أول الامر (ولو ان إعجاب به فتر بعد ذلك) وكان يقوم بهذه الدراسة جماعة من العلماء الممتازين مثل آل جوسيو Jussieu (الذين أورد روسو ذكرهم فى الجولة التاسعة) . ومنذ منتصف القرن الثامن عشر . كانت ترد بالصحف عبارات مثل « التاريخ الطبيعى هو من بين العلوم جميعا العلم الذى يمارس بعناية بالغة فى عصر مستنير مثل عصرنا » . واذن فان روسو وجهوده فى هذا المضمار لا تمثل سوى دور العضو فى جماعة النارسين والباحثين وليس فيها فضل القيادة أو التوجيه . ويشير مورنيه M: Mornet فى كتابه عن علوم الطبيعة (١) الى دور روسو بقوله « ان روسو يبين أن دراسة العلوم الطبيعية واجبة ومفيدة لا فى ميدان جمال العقل فحسب بل فى جمال العاطفة » .

ويحدد روسو فى هذه الجولة بدء هوايته . . . لقد تلقى الانطباع الاولى لحب الطبيعة فى سويسرا حيث تفتحت عيناه على الخضرة والريف البهيج . ثم هو يذكر الدكتور ديفرنوا D'Ivernois الذى طالما صحبه فى جولات استعجاب الطويلة والذى امتدت صلته به وصادقته له حتى نهاية العمر ثم ينتقل بعد ذلك مباشرة الى أول محاولة للدفاع عن نفسه فى هذه الجولة . . . ولا عجب فان هذا الانسان المنعزل عن المجتمع يحس دائما بجأته الى أن أن يزود عن نفسه جميع الاتهامات التى تنهال عليه منه فتراه فى « الحوار » Les Dialogues مثلا يبرر هوايته لنسخ الموسيقى أما هنا فهو يبرر ميله لدراسة النبات . . . وهكذا كانت آراء الناس تشغله دائما ولا تفتأ تعاوده وتطارده حتى وهو هائم بين ربوع الطبيعة . .

وهو يعلل عدم قدرته على التفكير وضعف خياله عن التحليق فى أجواء الأحلام انسياقه الى التأمل الدقيق فى مشاهد الطبيعة . . . وهكذا يقابل ما بين نفسه وبين أولئك الذين لا يحسون بالطبيعة ولا يرون فيها سوى مورد للعقاير والوصفات الطبية . . . بل ان الطبيعة - الى جانب ذلك - تلهيه عن الكراهية وعن الرغبة فى الانتقام وهكذا « ينتقم من

مضطهديه على طريقته ، اذ يغدو سعيدا على الرغم منهم وهو ما سبق ان
أورده في الحوار Les Dialogues في الجولة الثانية من الاحلام Les Réveries
وبرغم هذا الميل لا نراه يستهدف نفعاً دنيوياً بل ان هذا الميل يدفعه الى
التقرب الى الله والتأمل فيه (ولعل في ذلك رداً على ما قرره من اتهمام
اعدائه له من قبل في « الحوار » Les Dialogues من أنه يجمع الاغشاب
ليصنع منها العقاقير) كما يجعله يزيد من معرفته بنفسه . . تلك المعرفة
التي كرس لها أيامه الاخيرة .

انه يحب الطبيعة ويتعشقها . . تلك الطبيعة الخضراء التي تكسو
الارض كحلة زاهية فلا شيء يوحش النفس أكثر من مشهد ريف مقفر عارٍ

ولقد وجد نفسه - في هربه من الناس وميله لاعتزالهم وفي عجزه
عن التفكير العميق - مضطراً الى أن يشغل بما يحيط به وماذا هناك أجمل
من الطبيعة. تحتو عليه وتلفه وتحيط به . . ووجد ذلك في مملكة النبات
لان مملكة المعادن تبدو شاقة منفرة ولان مملكة الحيوان تتطلب عمليات
التشريح التي تثير الاشمزاز وخاصة بالنسبة للنفوس المرهفة الحساسة .
وهو يعدد مزايا الدراسة التي فضلها على غيرها ولا يفوته أن يظهر عدم
ثقتة بالاطباء وكراهيته لهم فيقول . . « اننى الدليل الحى على بطلان فنهم
وعدم جدوى علاجهم » وينتقل بعد ذلك الى الذكريات فيذكر استعشابا
قام به في ناحية رويلا Robaila (وهو جيل يسمى اليوم Robela
على مسافة فرسخ من موتيه في مقاطعة نيوشاتل) وهو يذكر أسماء
النباتات هنا باللاتينية بعد أن ذكرها من قبل في هذه الجولة بالفرنسية
ولا ريب أنه وجد هذه المفردات في مؤلف « لينيه » الذى كان روسو معجباً
به . . وفي جولته في ناحية رويلا يصور لنا خيبة أمله اذ كان يظن نفسه
رحيداً وأنه أوغل في عزلته الى حد تخيل فيه أنه كريستوف كولومب
ونحن نقول - الى جانب ذلك - بل روبنسن كروزو (الذى أوصى بقراءته
في اميل) حيث يقول « لا شك اننى أول مخلوق توغل حتى هذا المكان » .

... ويشير هنا الى تذكره استعشابا آخر من النوع نفسه قام به خلال
اقامته في جرينوبل Grenoble وكان يصحبه مسيو بوفيه Bovier
(منحتم في الاقليم) الذى كان يلازمه ويسهر على سلامته ويروى قصة
تخواتها: : لأنه أكل من فاكهة أنبها أحد المارة الى أنها سامة ومع ذلك فلم
ينبس مسيو بوفيه بكلمة . . فرسو هنا - وان لم يتهم بوفيه اتهاماً

صريحاً - يدخل في روعنا مع ذلك رغبة الاخير في تركه يفتوت مستحوناً...
وأغلب الظن أن روح الشك والريب التي تسلطت على روسو في أعوامه
الاخيرة وجعلته لا يثق حتى في أصدقائه المخلصين هي التي صورت له
المسيو بوفيه على هذه الصورة ويؤكد ذلك أنه لم يجرؤ على إتهامه حتى
صراحة أو أنه بعد تاريخ الحادث (عام ١٧٦٨) جعل يخلط بين ذكرياته
بعد أن ضعفت ذاكرته - كما يعترف هو بذلك .

الجولة الثامنة

كان من الممكن أن تصبح هذه الجولة ذات أهمية بالغة لو أن الجولات بدأت بها .. وهي تكمل الجولة الخامسة من حيث التعبير عن السعادة لدى روسو وتكمل السادسة كذلك من حيث تبرير صلاته بالناس ولو أنه هنا لا يبرر وجود تلك الصلات بهم بل يفسر انقطاع هذه الصلات بينه وبينهم انه يتغنى هنا بالسعادة في العزلة والوحدة ..

كانت فكرة اعتزال الناس تهيم على روسو وتلاحقه .. وكان ذلك سببا من أسباب مهاجمة الفلاسفة له .. أما هو فكان يحس انه محوط بمؤامرات تحاك له في الخفاء .. وظل - كما يقول برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint Pierre (1) ، ظل روسو يمتدح مزايا العزلة حتى آخر لحظة من عمره لقد قال كاتب - ويقصد به هنا ديدرو - أن الشرير هو الذي يعيش وحيدا ولكن ماذا كان يمكنه أن يصنع في العزلة ؟ تعس هو ذلك الذي لا يعرف آلامه الخفية ،

(1) Bernardin de Saint-Pierre : La Vie et les Ouvrages de Rousseau (Edition Sourian, p. 84).

ولقد دافع روسو من قبل في « الحوار » عن تلك العزلة وهو هنا يبسط المشكلة ويدرسها مفصلة : فهو يبين أولا التعارض بين سعادته في الوحدة وتعسه وضيقة بالناس حين يكون بينهم وهو يدهش عندما يسترجع الساعات التي كان يظن نفسه سعيدا خلالها اذ يجد انها لم تترك له من حلو الذكرى ما تركته تلك التي ذاق فيها ألوان الآلام . . . واذن فقد كان ذلك هباء عابرا لا يمكن أن يسمى سعادة . . . وهو في ذلك يؤكد ما أورده في الجولة الخامسة « كيف يمكن أن نسمى سعادة حالة عابرة تتركنا والقلب منا خال فارغ ؟ » وهو يقارن هنا بين هباء ظاهري وتعس حقيقي في ماضيه ، وبين تعس ظاهري وهناء حقيقي في حاضره . . . ويكشف عن لون من الغرور حين يقرر أنه يفضل أن يكون هو نفسه بكل شقائه من أن يكون « واحدا من هؤلاء الناس بكل ما هم فيه من نعيم » وهو يتساءل : كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ وكيف غدا غير مبال وسط ما يحيط به من شرور ؟ وكيف اكتشف المؤامرة فقلبت كيانه كله رأسا على عقب ؟ انه يشير بذلك الى خصومته مع مدام دابنای Mme D'Epinaى وهو يقص ذلك أيضا في الاعترافات Les Confessions (فى نهاية الكتاب التاسع ومستهل العاشر) ولكن في ثبات وهدوء أكثر مما يفعل الآن . . . ولا ريب أن حالته النفسية التي بسأت بعد « الاعترافات » جعلت تلك الذكريات أشد سوادا واضطرابا .

ولقد حاول العثور على رجل عاقل يفهمه ويتوسط بينه وبين أعدائه ولكن عبثا فقد كانت المؤامرة شاملة . . . واذ ذاك - بدلا من اليأس القاتل - وجد السكينة والهدوء . . . بل السعادة . . .

ولعلنا نتساءل : أية سعادة تلك التي يحاول أن يقنعنا بها أو يقنع بها نفسه . . . تلك التي يذكرها وسط تلك الاوصاف والملابسات من اليأس والألم والاضطهاد والعذاب وجو المؤامرات . انه يصف عذابه فيجعلنا نحسه معه وكأنما حدث له للتو . . . أفكان المسكين سعيدا حقا ؟ أم انه تعب من الألم وتعب من تصارييف الاقدار معه فهو يمثل أولا على نفسه ويمثل ثانيا على الناس ليبدو - وذلك ما يناسب غروره - وقد انتصر على كل ذلك .

وهو يحتقر الآلام المادية ويبحث عن مصدرو لآلامه فيجدها في كبرياته . وفى « الحوار الثانى » يتناول روسو تلك الفكرة وتقريبا بنفس الالفاظ التي يكاد يسردها بها هنا . واذن فليخنق تلك الكبرياء مادامت ننص عليه حياته وتمنعه حتى من الاستماع الى عقله حين يوصيه بتقبل

الاقدار كما هي والمصائب كما تحل دون معاندة أو اصرار وعندئذ يمكنه أن يرى « الغنى والفقر والصحة والمرض والمجد والمهانة... كلها بلا مبالاة » وهو إذ بلغ هذه الحال من عدم المبالاة يرجع الفضل الى أعدائه لا الى حكمته وفي ذلك بعض التكفير عن كل ما سببه له .

انه يعيش منذ الآن مع كائنات من خلقه هو لا يخونونه ولا يسببون له حزنا .. كائنات من خلق خياله لا يخشى منهم ضرا أو هجرا ...

وبعدئذ يشرح روسو الحالة النفسية التي يكتب عنها فيقول « ولما كانت حواسي مهيمنة على نفسي فاني لم أستطع أبدا أن أقاوم انطباعاتها » وهذا هو الشرح الذي يقدمه عن خلقه وطبيعته في « الحوار الثاني » وهو يلاحظ انه عن تجربة متكررة يجد نفسه سعيدا في الاماكن التي لا يصادف فيها انسانا ولكنه يعود فيذكر انه لا يستطيع أن يصمد امام أمر يسبب له ألما فان « كلمة ، إشارة ، نظرة بغضاء المحها أو كلمة مسمومة اسمعها تكفي لان تجعلني اضطرب أشد الاضطراب » وهو يقارن ثانية بين اليوم والامس .. اليوم حيث يحس السعادة في عزلته عن الناس والامس - أي عندما كان يعاشر المجتمع - حيث كان يحس بالضيق وعدم الراحة .

ولتحليل روسو هذا أهميته : فهو تطبيق للنهج الذي أعلنه في الجولة الاولى حيث يريد أن يدرس نفسه بعناية ومعرفة ودراية .

من هذا كله .. ومن مكابرتة اذ يقول انه « سيد نفسه يفعل مايشاء » يتبين خوفه الدائم وقلقه .. فهو هنا كإنسان يخاف الظلمات فيغنى عساه يشجع نفسه على تحملها .

وخلال هذه الجولة كلها نحس بروسو وهو يحاول أن ينفي عن نفسه تهمة « الشرير هو الذي يعيش وحيدا » ويحاول أن يرد على ذلك الاتهام ويؤكد انه سعيد ويحاول أن يثبت تلك السعادة فيؤكد لها مرة أخرى ليقنع نفسه انه كذلك .

ولهذا كله وللحالة النفسية المضطربة الهادئة حيننا الشائرة أحيانا كانت هذه الجولة البديعة مؤثرة حقا تمس شغاف قلوبنا .

تري آكان روسو صادقا ؟ أم انه أحسن الدفاع فتحسب ؟

الجملة الخامسة

وهذه الجملة مثيرة لجذابة. يرجع ذلك الى أنها تتناول موضوعا مؤثرا ، بل يكاد يكون وهيبا ، هو مسألة هجر روسو لأطفاله ، وكذلك الى تنوع في موضوعها وخلوها من مناقشات مجردة أو عامة كما حدث في الجولتين الرابعة أو الثامنة مثلا . انها اذن تتناول مسألة أطفاله الذين لازمه الاحساس بالذنب من أجل اهماله لهم حتى آخر حياته وكانت سببا في انتقاد الفلاسفة والناس له وصيهم اللعنات عليه .

وفي هذه المرة تنبعث تأملاته من حادث غير ذي أهمية يرى فيه اصبح اتهم يشير اليه ويعرض به فيشك ويثور ويهيب مذعورا ليسسوق أدلته وبراهينه وليبرر مسلكه أمام نفسه وأمام الناس وتتسع تلك التأملات وتزداد اتساعا حتى لتنتهي الجملة على غير ما بدأت به .

أما الحادث الذي أثار احتياجه فهو مجيء السيد/ب عنده ليريه في تحمس بالغ مديحا من سبع صفحات في شخص مدام جيوفرين Mme Geoffrin وجهه لها الفيلسوف دالامبير

M. d'Alembert وأما مدام جيوفرين فصديقة للفلاسفة كانوا يجتمعون في صالونها حتى لكان ديدرو Didero يناديها « ماما » .

وأما الفقرة التي لم تعجب روسو فهي أن مدام جيوفرين « كانت تجد متعة في رؤية الاطفال والتحدث اليهم ، وكان ذلك كافيا كي يهيج روسو معتقدا أن دالامبير يخزّه في موضع الالم ويعرض به .. وخاصة وأن دالامبير كان عدوا له منذ عام ١٧٥٧ وانه وضع تلك الفقرة عامدا متهما روسو بعدم حبه للاطفال عامة مادام قد أودع اطفاله ملجأ اللقطاء . وينبرى روسو ليذود عن نفسه الاتهام مستشهدا بحوادث صغيرة تبرهن على حبه للاطفال ورعايته لهم وحده وعطفه عليهم .

وقد ناقش روسو هذا الامر طويلا في « الاعترافات » Les Confessions وعلق عليه في « الحوار » Les Dialogues ثم تناوله كذلك بطريق غير مباشر في « الجولة العاشرة » حين سألته إحدى السيدات وكانت حاملا عما اذا كان قد رزق بأطفال - وكان فولتير قد اثارها أيضا قبل ذلك باثني عشر عاما تقريبا حين كتب عن « مشاعر » مواطني جنيف Les sentiments des citoyens de Genève ويقال ان مدام دابنای والدكتور ترونشان Docteur Tronchin هما اللذان أخبراه بذلك كما أن روسو نفسه في كتاب « اميل Emile » اعترف ضمنا بذلك وكان يعتقد أن ذلك الاعتراف كان كافيا لان يوقر عليه لوم الناس .. وأما في « الاعترافات » فقد ساق تبريرا واهيا فحواه أن الشبان في ذلك الوقت كانوا يتباهون بمغامراتهم التي كانت ثمارها تودع ملجأ اللقطاء ببساطة مما جعله يفكر أنه « ما دامت تلك عادة البلد التي يعيش فيها فلا جرح من اتباعها » .. كان يتكلم اذ ذاك وكأنما تركه لأطفاله امر طبيعي .. أما هنا فهو متوتر الأعصاب نائر يتلمس مهربا من ضميره .

وأطفاله هؤلاء انجبتهم - كما نعلم - من أم جاهلة هي تريز لوفاسير Thérèse Levasseur تمت الى الطبقة الدنيا بصلة وثيقة اذ كانت تعمل خادما تغسل الملابس وتقوم بكيها في منزل بباريس وكانت - باعتراف روسو - غبية لا تحسن القراءة أو الكتابة ولا عد الأرقام ولا تعرف الشهور أو الوقت أما أمها فكانت امرأة شريرة نغصت على روسو حياته لفترة طويلة ويقال انها كانت تتآمر مع الفلاسفة على روسو وتمدهم بالمعلومات المختلفة عنه .

ويبرر روسو اهماله لاطفاله بقوله انه لا يستطيع أن يقوم بنفسه على تربيتهم وأن تنشئتهم وتربيتهم كانت تتم على أسوأ الصور لو أنه عهد بهم الى تيريز وأسرتها . . بل انه يرتجف اذ يفكر في المصير الذي كان ينتظرهم . . وهو يسوق هنا مثالا لـ « محمد وسعيد » وان ما كان ممكنا ان يصنعه اولاده معه هو ما صنعه سعيد بأبيه اذ حرضه محمد ضد أبيه فقتله . . ونحن لا ندرى مصدر القرية التي يوردها هنا روسو على سبيل الاستشهاد . . وأغلب الظن أن مسرحيات فولتير في ذلك الوقت - وكان يتناول فيها شخصيات دينية من الشرق مشوهة من غير شك - هي مصدر المثل الذي يورده روسو . . ويتم ذلك عن جهل بالديانة الاسلامية السمحة والاحداث التي تمت ابان الرسالة الاسلامية ويعزى ذلك الى أن أوربا في القرن الثامن عشر لم تكن قد نالت قسطا كافيا من المعرفة بالشرق ودياناته . . أو أن ذلك كان نقصا في معلومات روسو نفسه عنها . . وعلى اية حال فالمقارنة هنا لا محل لها اطلاقا فان محمدا صلي الله عليه وسلم لم يحرض شخصا يدعى سعيدا على قتل أبيه أو غير أبيه .

والاسباب التي يوردها روسو هنا تتلخص في أنه كان يحب الاطفال في شبابه ويلهو معهم ولم يكن لديه وقت لدراستهم . . أما الآن فيستطيع أن يجد متعة في ذلك . . ثم انه من غير المعقول أن يكتب روسو كتاب « اميل » Emile و « هلويز الجديدة » La Nouvelle Héloïse ثم يتهم مع ذلك بعدم حبه للاطفال . . ومن المعروف انه أبدى في « اميل » رعاية وعناية فائقتين بالطفولة عامة . . وفي « هلويز الجديدة » لوحة من أبداع اللوحات العائلية أظهر فيها روسو اهتمام الابوين وشغفهما وتضحيتهما من أجل الأبناء . . ويمضى روسو في دفاعه عن نفسه فيقول انه لا يتصل بالاطفال اليوم لانه لا يعرف كيف يحادثهم والى أنه قد يخيفهم بمظهره بعد ان أمسى عجوزا .

ويروي روسو ثلاثة من الحوادث الطريفة برغم انها واهية في الدفاع عن موضوع روسو نفسه وغريبة عليه .

أما الاولى - فتشير الى أنه تعرف على طفل في كليننكور Clignancourt وهي قرية صغيرة من ضواحي باريس - ولكن أباه بعد أن علم بذلك أبعده طفله عنه مما أسف له روسو وترك في نفسه أثرا أليما . . وهذه لمحة من نواحي الاحساس بالاضطهاد لديه .

وأما الثانية - فهي دفاع عن مبدأ المساواة الذي كان يتنادى به أكثر منه دليلا على حبه للاطفال - اذ يقابل - هو وزوجته رهطا من الفتيات في

رفقة راهبة . . وتصادف مرور بائع حلوى فاشترى للجميع منها وهو يحرص على المساواة بينهم فيما يحصلن عليه من حلوى - ويبين روسو كيف انه بنقود قليلة حصل على سعادة غامرة اذ ادخل السرور الى نفوس الصغيرات والراهبة .

وأما الثالثة فكانت في الشوفريت Chevette وهي تشبه الاولى قليلا وزرع فيها تفاحا كانت تحمله بائعة في سلة على مجموعة من الفلاحين من سفوا Savoie ويقابل هنا ما فعله هو بما يحدث في بعض الاحتفالات حين يرمى عليه القوم بعض الحلوى للفقراء الذين يتداهسون ويتضاربون لالتقاطها . وهنا تبدو كراهيته للأغنياء واحتقاره لهذه الطبقة المترفة .

أحب روسو دائما المتع البريئة البسيطة وكان يضيق دائما بوجوده بين عليه القوم في حفلاتهم بل انه كان يجد حرجا في مجاراتهم حتى قال عنه « برناردين دو سان بيير(1) » « ان رغبة روسو في أن تحذو فرنسا حذو سويسرا في مباحجها الشعبية خلق من غير شك أسلوبا جديدا لها وساعد على اقامة الاحتفالات الثورية » .

ثم يعود روسو فيطرق موضوع العزلة في صورة جديدة فيقول انه برغم اللذة التي يحسها اذ يرى الآخرين سعداء فان وجوده بينهم أيضا يسبب له في كثير من الاحيان آلاما نفسية تجعل صحبتهم شاقة على نفسه وذلك اذا ما أحس من ناحيتهم بنظرة معادية أو احساس غير ودي - وقد ذكر مثل ذلك في الجولة الثامنة حيث يقول انه يسرع بمغادرة المدينة حتى يتفادى وجودها ، فقد تعبر عن عداتها له وهو يسوق هنا على سبيل المثال المحاربين القدامى الذين كانوا يحيونه في بشاشة في مبدأ الأمر ولكنهم أخذوا يتجنبونه بعد ذلك لانهم - كما يظن - تعرفوا على شخصيته عن طريق زملاء لهم .

أما آخر واقعة يسردها فهي معارنته لواحد من هؤلاء المحاربين القدامى في عبور البحيرة وتصدقه عليه في لباقة بما قد يشتري به تبغسا وينوه بالروح السمحة الودود التي لمسها في ذلك الرجل مفسرا ذلك بجهل الاخير بشخصه وعدم تعرفه عليه بعد .

ثم يختتم موضوعه - بمدح لكرم الضيافة عموما ولا ينسى بهذه المناسبة أن يسخر من الهولنديين الذين « يتقاضون ثمن ارشادك عن الوقت » .

Bernardin de Saint-Pierre : La Vie et les Ouvrages de
J.J. Rousseau, pp. 90, 93.

(1)

وهكذا أخذ روسو يبتعد - بسرده لذكرياته التي يتغنى فيها بكرمه
وشهامته - عن نقطة البدء في هذه الجولة . فنجد الصلة قد انقطعت بين
موضوع حب روسو للإطفال خاصة ونحبه للانسانية عامة .

ومع ذلك فهي هامة اذ تسوق لنا مشاهد حية وعادات من القرن
الثامن عشر من ناحية وتلقى ضوءا آخر على مدى أسى الكاتب وندمه على
ما اقترف في حياته وقلقه البالغ وهو يستعد للافاة ربه من ناحية أخرى .

الجملة العاشرة

ننتهى « أحلام يقظة جوال منعزل » بعاشرة الجولات . .
لم يقدر لصاحبها أن يكملها وكان من الجائز أن يكتب فيها
أجمل ما سطر قلمه فى هذه الجولات . ويحدد روسو تاريخها
فيقول « اليوم » يوم عيد الفصح المزهر وقد مضى على معرفتى
الأولى بمدام دوفواران Mme de Warens خمسون عاما ،
كان ذلك فى الثانى عشر من ابريل من عام ١٧٧٨ .

وانا لنحس بالأسف اذ لم يتم روسوهذه الجملة بالرغم
من مرور ما يقارب ثلاثة شهور قبل أن ينتقل الى الدار
الآخرة . . ذلك لان الصفحتين اليتيمتين فيها هما - من غير
شك - أكثر ما كتب فى الاحلام أصالة وسجرا . واذا نحن
تذكرنا مقاله فى الجملة الاولى من أن هدفه هنا دراسة نفسه
فحسب نجد أننا بعدنا كثيرا عن ذلك فى هاتين الصفحتين .

ومدام دوفواران Mme de Warens هذه هى « فرانسواز
لويز دولاتور » Françoise Louise de la Tour ولدت فى عام
١٦٩٩ فى أسرة من طبقة النبلاء وفقدت أمها وهى طفلة فكفلتها

عمتها . . . ثم من بعدها زوجة أبيها . . . وبعد موت أبيها قضت عامين في معهد لوزان Lusanne حيث نالت قسطا من دراسة الموسيقى الى جانب ما كانت تطالعه من كتب من كل نوع وخاصة من كتب في الفلسفة والطب ثم تزوجت من أحد الاشراف وكان يكبرها كثيرا وكان وريثا لقطاعية فواران Warens وهي تشبه في ظروفها روسو من نواحي كثيرة . . . من حيث النشأة والثقافة . . . بل ان هذه الظروف المتشابهة تكاد تفسر التفاهم العميق المتبادل بينهما . . . ولقد كتب عنها في « الاعترافات » صفحات هي من أجمل ما جاء فيها فوصفها يوم وصوله الى أنسى Annecy قائلا « وأخيرا وصلت ورأيت مدام دوفواران رأيت وجهها ينضح رقة وعيونا جميلة زرقاء تشع حنانا ولونا باهرا. وعنقا ساحرا » ولكن روسو هنا وقد أصبح فيلسوفا ورجلا ناضجا بصف المشاعر الحنون التي استشعرها كل منهما تجاه الآخر ويحدد الأسباب التي جعلت من ذلك اليوم يوما رسم له الحياة جميعا . . . ثم يأخذه الحنين الى تلك الايام « الهادئة الحلوة » التي عاشها بالقرب من « أمه » والتي كانت حلوة كذلك حتى قبل أن تمنحه نفسها . . . ثم يبين كيف أن عاطفة الأم والحببية معا مكنتاه من تكامل شخصيته فأصبح ما كان يريد أن يكون وكيف أن الحنان المتبادل بينهما ونزهاتهما سويا زادا من ميله للعزلة وللريف وبذا ألهمته كل ما أنتج فيما بعد من أعمال أدبية . . . ثم يتنهد قائلا « آه لو انني ملأت قلبها كما كانت تملأ قلبي » ونسى روسو مغامراته النسائية في أسفاره من أنسى Annecy واليها . . . نسي تلك العلاقات الصغيرة المتكررة مع ذلك والتي رواها في « الاعترافات » متغنيا برجولته وكيف أن النساء كن يتقربن منه وكيف أنه كان يجذب العزاء دائما في الجنس الآخر . . . ولكن للتنهد كذلك ما يبرره فكثيرا ما عاد روسو من سفره الى مدام دوفواران ليجد انسابا ثالثا يحتل من السيدة مكانه أو يكاد . . . وتمضى الايام بالثلاثة وروسو طائع صاغر سواء كان ذلك يرضيه أو لا يرضيه .

ولكن كأنما شاء عقله الباطن أن يسقط من ذكرى تلك العلاقة كل الشوائب التي كانت تعكر صفوها فلم يعد يحتزن منها الا ناحية باسمه تبدو على البعد كشعاع فضى ينير له ظلام شيخوخته انه ينبش عن سويقات السعادة التي تناثرت على طول أيامه فيخلق فيها ويعظمها عليها تكون زادا يعينه على احتمال واقعه الاليم .

: ولعلنا نظلم الكاتب اذا ما نحن عتبنا عليه تغييره بعض الوقائع والتواريخ فهو أولا وقبل كل شيء لم يكن في حياته مؤرخا وانما نكون

منصفين اذا ما نحن قدرنا حاجته الماسة في شدته كانسان حساس متوتر
الاعصاب يعذبه اضطهاد وظلم يعتقد في صدق أن الانسانية جمعاء
توقعهما به الى أن يلوذ بماضى يضمنى عليه دون قصد صورا باسمه
هنيئة . . .

ومع ذلك فان هاتين الصفحتين تعتبران نشيد عرفان وتقدير لتلك
التي فتحت له بابها وقلبيها وعروضته عن حنان الأم وأولته من الرعاية ما لم
ينله تقريبا من انسان آخر طيلة حياته . . انها تكليل لهذه الصفحات . .
لهاته الأحلام التي جعلنا روسو نحلق معه فيها « كسيمفونية » رائعة
متناسقة تحمل على التأمل في الخالق وتسمو بالروح عن دنيا الشرور .

طبائع روس ودهالة النفس في آخر حياته

عاش جان جاك روسو محروما فقيرا شريدا لعبت به أنواع الحياة وتجاذبت به المحن وكان لكل ذلك أعمق الآثار في طباعه وفي حاله النفسية التي صحبتته حتى القبر . عاش محروما إذ فقد أمه قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها ففقد بذلك حنانا لا يعرض أبدا وفقد أباه إذ اضطر هذا لهجره فانهار بذلك ركن يعتمد عليه الاولاد جميعا حتى يقووا على الوقوف في تيار الحياة واذن فقد عاش تقريبا يتيم الأبوين يحس جوعا وعطشا الى الحنان لم يقدر له منه الا اليسير ولكن بعد حين .

وعاش فقيرا تنقل في شتى الحرف واحترف الخدمة في البيوت فذاق الذل وعرف الجوع وظل بعد ذلك يطرق أبواب الحياة خاوي الوفاض يلتمس لقمته في عناء شديد . وعاش شريدا لم يعرف الاستقرار ولا طعم الأسرة . . فعاش وجيدا وقضى غريبا . . .

وكان روسو مريضا عرف المرض وكان لم يبلغ الثلاثين بعد وقيل انه مرض بغضوى أثر تأثيرا سيئا على نفسيته وكان سببا في عزوفه عن المجتمعات لعجزه عن اطالة مكثه بين الناس .

أسهمت تلك العوامل جميعا في تشكيل طباعه . فكان روسو حساسا مرهف النفس حار العاطفة طيب القلب محسنا خيرا خياليا حالما خجولا . وكانت له مع ذلك تصرفات تتعارض

مع تلك الميزات فقد كان أيضا مغرورا مسلوب الارادة متقلب الاهواء .
ولا ريب أن تلك الميول ، وتلك النزعات جميعا تظهر جلية واضحة
« أحلام يقظة جوال منعزل » Les Rêveries du Promeneur Solitaire
حيث تبدو نفسه على حقيقتها أصيلة بعيدة عن كل زيف .

فلانه كان حساسا نراه فريسة للانفعالات العنيفة فتبدو له الأمور
أما طيبة جدا وأما بالغة السوء . فكان يتنازعه الإعجاب الشديد والحنان
الشديد والغضب الشديد جميعا على السواء . كانت الكلمة الرقيقة تدفع
الدموع الى عينيه والنظرة الشوزاء تطيش صوابه وتؤله أشد الايلام .
وكان حار العاطفة عاش أيامه جميعا بقلب شاب متقد الاحاسيس فنراه
يذكر « مدام دوفواران Mme de Warens في آخر « الاحلام » وكأنها هو
شاب فجع حديثا في حبه فهو يزفر زفرة حرى غريبة على شيخ يسير
بخطى حثيثة نحو السبعين .

وكان طيب القلب يميل الى عمل الخير . . كان حين يرتكب الخطا
يظل يؤنب نفسه ويرزح تحت عبء ضميره ولو كان ذلك الخطا يسيرا .
كان يحاسب نفسه حسابا عسيرا ويكشفها بغيوبها أمام الناس . وكانها
ليؤدبها ويعاقبها عساها تكفر بذلك عما أتت .

كان محسنا متصدقا يعطف على الفقراء ويحب البسطاء من الناس
وينفق برغم ضيق ذات يده ولكنه مع ذلك كان يحب أن يقدم الخير مختارا
طائعا لا يستشعر فيه الزاما ولا اكراها .

ولعل أبرز لمحات شخصيته هي نزعتة الشديدة الى الخيال . . ولعل
عنوان آخر كتاباته « أحلام يقظة جوال منعزل » كان من الممكن أن يكون
عنوانا لجميع مؤلفاته . . لم تكن الحقيقة تكفيه وتشيع رغبته في الحياة
فكان يلجأ الى الحلم عساه يسعده وينعده عن واقعه الاليم .

ولانه كان خياليا تشبه المثالية والكمال وبينما نراه نبيا يدغو الى
الايمان والعدل والحق والشرف والمخبة نلمسه أحيانا وقد أتى شيئا يتعارض
مع ما يدعو اليه فيعرض بكاتب مثلا أو يمجده مزايا العزلة . أو يسرف
في غروره بنفسه واعتداده بها حتى « ليكون صامدا راسخا كالاله نفسه »
في بعض الاحيان .

ولعل من دلائل غروره نأما كان يردد من أنه « كان يفضل أن يكون

منسيا من الجنس البشرى كله على أن ينظر اليه كما ينظر الى انسان عادى ،
كذلك ما كان من رفضه تلبية دعوة الملك حين أراد أن يكافئه على تاليعه
لأوبرا عرافى القرية Le Devin du Village ولا ريب أن هذا الشرف
لا يتأباه الا رجل من طراز خاص .

ذلك الاحساس بطيب عنصره وعظمة نفسه جعله يؤمن بطبيعته ومن
ثم بالطبيعة عموما . . . فجعلها أساسا للدين والسياسة والاجتماع
والاخلاق . . . وأحبها من بعد الله . . .

وكان متدينا ينبع الدين من أعماقه يؤمن « بالرب الأعلى مبدع كل
شئ » وكان يلتقى به فى الطبيعة الرحبية التى ظل عاشقا لها مفضلا اياها
على كل شئ آخر . . .

ولكن كان خروجه من صومعته « الارميتاج L'Ermitage » نديرا
بحالة نفسية تثير الالتفات . بات يعتقد أن هناك عصابة تتآمر على سلامته
وتستهدف تقويض سمعته . . . وفى هذه المرحلة تولد لديه شعور
بالاضطهاد ظل يتفاقم كلما زادت متاعبه وكثرت منغصات الحياة عليه . . .
وأصبح متشككا فى كل حركة وفى كل همسة ويرى فى كل ذلك دلائل
المؤامرة الكبرى . . . وزاد من محنته قرار طرده واحزاق كتبه ورجم بيته
واضطراره الى الهرب من مكان الى آخر خائفا وجلا . خاب أمله فى الناس
جنيعا عندما أحس أنه ضحية مجتمع كرس حياته للدفاع عنه وأنه يلقي
أسوأ الجزاء على ما ظنه خيرا قدمه اليهم من عصارة فكره وقلبه أحس
عندئذ عدم جدوى الاتصال بهم فباعده ما بينه وبينهم وعاش منطويا على
نفسه يكتب « اعترافاته » و « حواراه » وأخيرا « أحلام يقظته » وضع فيها
جنيعا ذاته هو وكرسها لدراسة نفسه هو ولعل فى ذلك أبلغ زد على
جحود الناس وانكارهم لفضله . . .

عاش فى عزلة اذن بعد أن اعتبر نفسه شهيدا وضحية وكان يزيد
من آلامه حبه للناس وكراهيته لهم على السواء . فلم يكن روسو يكره
المجتمع فى الواقع كما يشهد هو نفسه الا من أجل ما يتطلبه من أعباء
وواجبات كان يعتقد فى عجزه عن القيام بها . . . وربما زاد من تعقيد
ذلك المرض اللعين الذى ضاق به وجعل الدنيا مظلمة فى وجهه . ولكن عودته
الى باريس فى أواخر أيامه أعادت الى نفسه بعض الرضا حين أدرك أن
شهرته ذاعت فى أوروبا اذ أخذ يتردد على داره الكتاب والأدباء والفنانون
والموسيقيون من فرنسيين وانجليز وروس وايطاليين (١) من المعجبين به

Henri Roddier: Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. 11. (1)

المتحمسين لآرائه وحين ينشدون عونه في صياغة اللجان .

وتنفرد « أحلام اليقظة » بأنها تشير الى مرحلة القلق النفسى التى تجلت فى « الحوار » Les Dialogues وبعده ثم انفثات هنا لأن فيها لوما وعتابا الى جانب ماتناولته من موضوعات ذلك لأنه يبدو أن روسو يشس من شرور الناس فعالجها بعزلة قلب كان حريا أن يملأه الحب لجيل اعتقد أنه « يلذ له أن يؤذه حيا » وهى سلسلة من الشكايات الطويلة التى تراود خياله وتلح على ذهنه حتى ترهقه أحيانا وحتى تدعوه للاستسلام أخيرا ما دام لا يستطيع دفعا لأذى الناس وهو لم يكن لديه برغم ذلك أقى من السكون الذى بدأ يلقه تدريجيا كأنما هو مؤامرة أجيد حبكها من الجيل الجديد تستهدف القضاء عليه .

اكان حقا مريضا ؟ أكانت تعاوده « الشيزوفرنيا (الفصام) Schizophrénie فيحس من كل تصرفات من حوله اضطهادا يستهدفون من ورائه أذاه ؟

والشيزوفرنيا كما يعرفها الدكتور منكوفسكى Minkowski (١) اضطراب نفسانى مظهره عدم الانسجام وضعف الترابظ فى التفكير وقد أطلق العالم النفسانى بلويه Bleuer هذا الاصطلاح على الاضطراب العقلى المبكر الذى يصيب الشباب ثم يأخذ فى التزايد حتى يفقده قواه العقلية .

وقد عمم اصطلاح « شيزوفرنيا » بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الـ Autisme وهى الحالة التى يكون فيها انسانا ما خاضعا لتأثير عناصر حياته الداخلية أكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهى حالة احساس المريض الذى يقوم على أمر وهمى ومنها أفكار الهذيان idées délirantes وهى الاضطراب النفسى الشديد الناشء عن الانفعالات « الخ

والفكرة الهذيانية عند هذا العالم النفسانى هى عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحويل يتمسك بها المريض ويؤكددها فى اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الافكار تكون هذيان المريض وهى تنقسم الى ثلاثة أنواع : أفكار التعالى (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والافكار السوداء بسبب الخسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام . .

Encyclopédie Française, T. VIII, pp. 8-54 — 12. (Article par (١) Eugène Minkowski).

وهذه الافكار كثيرا ما تمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات
فى علاقات من يصاب بها مع بنى جنسه والعالم الخارجى وتبين مدى الفرق
بين المصاب والسليم .

ويمكن أن تترجم الافكار الهذيانية بأعمال خارجية تدل عليها
فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة
مضطهديه . . وهو هنا يصبح خطرا على المجتمع .

ويختتم أوجين منكوفسكى Eugène Minkowski مقالة بقوله ان المريض
كثيرا ما يكتفى بالتعبير اللفظى عن افكاره وان كان يكتفى فى نفسه فى
أحيان كثيرة . .

من هذه الاعراض جميعا تكاد نعتقد بأن روسو كان مصابا بهذه
الحالة ولعل العلامة المميزة لهذه الحالة من الاضطراب النفسى هى البساطة
التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم أكثرتهم من
ذلك ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار .

ولكن برغم ما كان روسو يعانیه من اضطراب نفسى وذهنى وبرغم
مآعناه كذلك من تقلبات الزمن معه فان ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموما
وبخاصة على « أحلام اليقظة » Les Rêveries التي سجل فيها صفحات
خالدة هى من أجمل ما كتبه كاتب وفنان على السواء .

أهم الميقات بين مؤلفات الكاتب الأفرى

لعل أول ما يعرض عند قراءة الاحلام أنها تقدم لمحات عن حياة الكاتب ، على القارىء أن يتقبلها بحذر وبخاصة فيما يتصل بالاجداث البعيدة فى حياته وعلى أية حال فإنها تمتاز بما يصحب الواقعة المعينة عند ايرادها من حالة نفسية تكيفها وتؤثر عليها . ومن دراسة الجولات وبعد تحليلها نستطيع أن نلمس صدق التطورات النفسية والذهنية التى كانت نتيجة لحالته العصبية فى السنين الاخيرة من حياته فهو يمر هنا بمرحلة هدوء نسبي يعرض فيها لكثير من النواحي التى جاءت بالحوار وكان فيها أثرا مهما ولعل الروح التى تصطبغ بها الجولات تكشف عن تطلعه الى تحقيق السعادة ومحاولته اقناعه نفسه بأنه قد حصل عليها أخيرا فعلا . . .

والجولات الى جانب ذلك تختلف عن مسابق أعماله الأخرى بأن عنصرا جديدا - يضغط عليه كثيرا فيها - هو تبييت الضمير ومحاولة تبرير مسلكه أمام نفسه أولا وأمام الناس ومن هنا تبدو « أحلام اليقظة » ذات أهمية خاصة .

وأمر آخر يسترعى الانتباه فيها ويميزها هو أنها قد تبدو مفككة فى اهنال ، فى حين أنها فى واقع الأمر مترابطة أشد الترابط أحيانا ومنسقة على الأقل أحيانا أخرى .

ولعل القيمة الادبية فى « أحلام اليقظة » ترجع الى أننا نلقى صاحبها على طبيعته بغير ما تكلف أو تعقيد . . . سواء أكان دافعه الى ذلك يأسه من الناس ومن المجتمع يأسا

لا رجعة فيه بحيث جرد نفسه من كل المظاهر التي يبدو فيها المرء وراء حقيقته أم كان دافعه تعلقه بالطبيعة البعيدة عن التكلف واندماجه فيها بحيث أراد أن يتشبه بها ، أم كان الدافع التقرب إلى الله بالعودة إلى طبيعة الأطفال . . . الطبيعة الأولى . . . أو طبيعة الإنسان الفطري الذي دافع روسو عنه في رسالته إلى أكاديمية ديجون . . .

الواقع أن أعمال روسو كلها تعبر عن ذاته فهو لم ينس نفسه أبدا وبخاصة في « الأحلام » التي تبدو وكأنما هي محور تفكيره وتأملاته التي يسبر أغوار نفسه عن طريقها ويصورها ويحلل أحداث ماضيه في اعزاز ويحاول أن يعوض ذاته عن آلامها فيخلق لها جوا تسعد فيه وتنتشى . . . عالما خاصا بها خلقت من أجله . . .

وبرغم ما يتخلل « الأحلام » من قلق تنبئ عنه وتردده بعض العناصر الأدبية التي جاءت في مؤلفاته السابقة إلا أن المرء يحس فيها بنشوة تكاد تغير من شخصية صاحبها وتجعله أقرب إلى أن يكون شرقيا متصوقا (1) ونحن نرى بذلك أنفسنا حيال إنسان وشاعر جديدين . . . والإنسان هنا ذكي جذاب بفضل ذكائه . . . كان النقد والهوى والهديان تزعزع جميعا من قبل ثقته أما هنا فلا أثر لذلك كله .

وفي الجولات الأربع الأولى - كما في الجولة السادسة - تحليلات جديدة بكاتب كلاسيكي . وانا لنجد في هذه « الأحلام » وقد تحرر من عالم كان يشجع نواحي الضعف فيه ثم ينحو عليه باللائمة فيبدو ببراءته التي فطر عليها وبجسه المرهف وبعاطفته الجياشة وبجبهه للأطفال والفلاحين ومشوهي الحرب والبسطاء من الناس . وهو في الجولتين السادسة والتاسعة يبدو إلى جانب ذلك - مثلهم - مرحا ظاهرا مبرا ألقى عن كاهله زيف الحضارة المصطنعة وعاد إلى الطبيعة التي خلقت منه إنسانا بكل ما في الإنسانية من سمو ورقة والجولتان اللتان خصصهما لاقامته في جزيرة سان بيير Saint-Pierre (الخامسة) وميله للاستعشاب (السابعة) يبدو فيهما بوضوح تأثير العالم الخارجي عليه . . . وكان كمال الطبيعة يؤكد لهذا المؤمن أن الاله الخالق الذي أبدع هذا الكون الرائع لا يزال يسهر عليه ولا يفتأ يجمله . والطبيعة عنده حية مثل روحه التي تحركها وتتفاعل معها ومن هنا تبدو إصالة « أحلام اليقظة » .

(1) م . ريمون يذكر هذا التشابه بين روح روسو وروح السلمين وهو ما ذكره

روسو نفسه في «حواره» .

Henri Roddier: Les Rêveries du Promeneur Solitaire, p. LXXXII.

ذلك لانه لأول مرة تلعب الطبيعة الدور الرئيسي فى مؤلف من مؤلفاته أو تلعب الدور الايجابى المباشر ، فهى ذات لها أحكامها وارادتها ووسائل اغرائها التى تمارسها على المخلوق الوحيد الذى يفهمها . . . وقد لقي فيها روسو سلوته البريئة وعزاه وامتعتة التى تلائم طبيعته وأهدافه، وهكذا تحققت لروسو فى آخر أيام العمر أعز أمانيه . . . كان المزاج المسيطر عليه هو الاعتزال فى الريف على أن يخالطه التجوال وتلحق به الاخيلة والاحلام . . . وهو يعلن فى سرور أنه لم يفكر ولم يحس بكيانه ولم يدرك طعما لحياته ولم يعرف ذاته الا فى هذه الجولات التى تنقل فيها على قدميه فهو يقول «ان السير نحو شىء ما يحيى أفكارى ويشحذها واننى لا أكاد أقوى على التفكير حتى يستقر بى المقام فى مكان ما . . . يجب على جسدى أن ينتفض حتى يحتوى روحى ويستوعبها »

كان الله قد رزقه بالتفكير الحالم فى الطبيعة ، نشوة أنعشت روحه ورققت من مزاجه فغدا لا يحس بوحده برغم انفراده لانه كان يعيش مع ذاته وكانت الطبيعة تتجسد أمامه فغدا صفى أحلامه وخذن أخيلته ورفيق ذاته ثم مصدر مشاعره الداخلية . . . واحساساته الباطنة وعقائده ووساطة اتصالاته باللانهاية ثم خضوعه واذعانه للارادة الالهية فى نهاية الامر .

لقد كان روسو موسيقيا أو هو على الاقل اشتغل بالموسيقى وألف فيها وكانت هوايته نسخها حتى آخر أيامه والموسيقى هى احسن ما يترجم خلجات النفس وخواطرها فلا عجب أن جاءت الاحلام على هذه الصورة « سيمفونية » رائعة . صدق « جوته Goethe » اذ شبهها بسيمفونيات « بيتهوفن Beethoven »

وإذا كانت الاعترافات Les Confessions سردا لكافة الاحداث التى تخللت حياة الكاتب و « الحوار » Les Dialogues دفاعا ثائرا مضطربا عما اتهمه أو خيل اليه أن الناس اتهموه به فان «أحلام اليقظة» Les Réveries تمتاز عن الاولى بالتحليلات النفسية العميقة وعن الثانية بكثير من الاتزان والتعقل وهدوء خاطر نتيجة رضوخه للقدر واذعانه لمشيئة الله .

واحلام اليقظة كذلك نافذة نطل عبرها على القرن الثامن عشر بفلاسفته وأحداثه وعاداته . . . الى تلك الحقبة من الزمان التى أنجبت مفكرين وأدباء عظام قد يكون كاتب هذه الاحلام أشهرهم وأقواهم تأثيرا فى الاجيال التالية .

أصالتها وأثرها الأدبي

ان القارىء لـ « احلام يقظة جوال منعزل » يدرك على التو أنها ابنة القرن الثامن عشر والابنة الصغرى لكاتب عظيم من ذلك القرن نفسه هو جان جاك روسو .

لقد قيل (١) : « ان روسو في فرنسا هو الداعى الى ثورة مزدوجة : احداها ثورة ١٧٨٩ في مجال الاحداث ، والاخرى الرومانتيكية Le Romantisme في المجال الفكرى »

أما هنا فنحن لا تهمننا الا الثورة الثانية اذ ان الاولى (ثورة ٨٩) لا تهمننا هنا بقدر ما تهتم الباحث في السياسة والآراء السياسية .

فيم كانت تلك الثورة ؟

في عصر أكثر ما يميزه أنه عصر الفلسفة ، أكثر فيه المفكرون والباحثون والعلماء الذين يبنون أفكارهم وآراءهم على أسس وقواعد ومذاهب أساسها العقل والمنطق ، جاء جان جاك روسو ليرفع راية العصيان في وجه هؤلاء جميعا وليناصبهم العبداء ولينفر من طريقة تفكيرهم وليقول لهم أخيرا « انكم منافقون ، فلسفتكم زائفة وآراؤكم عقيمة لا جدوى منها ، ولا عجب فقد آمن روسو بالعاطفة قبل العقل وبالإحساس قبل الفكرة فكان ذلك الدين الذى سار على هديه وتعاليمه

Lintilhac, Précis de la Littérature Française, T. II, (1)
Ch. X, p. 254.

طيلة حياته • فبينما كانوا يفكرون كان هو يحس ويستمتع ويتألم (١) وبينما كان غيره يصلون عن طريق التحليل الى فكرة الاحساس كان هو قد وصل الى حقيقة الاحساس عن طريق طبيعته ، كانوا يناقشون اما هو فكان يحيا •• ومن هنا تدفقت كل أعماله الادبية ، حتى كان آخرها « احلام اليقظة جوال منزل » •

اذن فقد كانت لهم فلسفتهم اما هو فكانت له فلسفة خاصة به وحده هي فلسفة القلب ان صح هذا القول •• لانها صادرة عن القلب •• وكانت هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse هي النبع الذي تدفق منه سيل الحساسية والعاشقة •

كان للعاطفة في الأعمال الادبية قبل روسو نصيبها فهي احدى الصور المشروعة في الحياة لكنها ليست أهم ما في الحياة أو على الأقل هي ليست الرائد الوحيد للمرء فيها •• وقد كانت حين تدهم الروح وتسيطر عليها حدثا هو موضوع لرواية أو مسرحية فحسب دون أن تكون هدفا ومثلا أعلى أما بالنسبة لروسو فعلى العكس من ذلك كانت العاطفة هي العنصر العامل الوحيد في الروح بل ان قيمة الحياة في نظره مستمدة من مبلغ نصيب تلك العاطفة فيها ••

ونحن اذا تأملنا حياة روسو نفسها وجدنا أنه حقق بها حياة بطل رومانتيكي بكل ما في تلك الحياة من عدم تجانس وفوضى وهروب دائم من المجتمع ومشاعر متقدة وأحزان •• فقد كان لروسو حظ الحياة بعيدا عن المجتمع حتى ناهز الاربعين واذن فقد عاش حياة ابن الطبيعة وحياة الانسان الفطري الذي لا يفقه من أصول الوجود في المجتمع شيئا قبل أن يكتب عن تلك الحياة وقبل أن يصفها في مؤلفاته •

وكان يحس وهو يكتب « الاعترافات » و « احلام اليقظة » ان روحه تنطوي على تألم لا يدرك كنهه وأن في قلبه فراغا لا يمكن أن يمتلئ •• فكانت العاطفة تسير مع الألم جنبا الى جنب والنفوس الحساسة يبعث تألمها القلق والاضطراب مما سمي بسأم القرن Le Mal du Siècle وهو من أكبر خصائص العصر الرومانتيكي • هذا ولو أن الاعترافات Les Confessions واحلام اليقظة Les Rêveries لم تكونا وحدهما مبعث ذلك السأم والكآبة لأن قراء القرن الثامن عشر لم يعرفوهما الا في عامي ١٧٨١ و ١٧٩٠ • اذ انه لم يتم نشر هذين المؤلفين الا بعد وفاة الكاتب • ولكن كان مبعثه

(١). Gustave Lanson : Histoire de la Littérature Française, p. 763.

رواية « هلويز الجديدة La Nouvelle Héloïse ، التي كان يتخاطفها الناس
يقضون ليال بأسرها يقرأونها ويؤجرونها أحيانا ويبكون مع روسو
« وينتشون بلذة الاحساس (١) »

والخيال لدى روسو يساند الاحساس ويذكيه انه كذلك يسلمه الى
أحلام يحلق فيها مع « كائنات من خلقه » وفي « عالم خاص به لانه من
صنعه » عالم يسعد به وينسيه شرور الحياة الدنيا ولذلك كانت أعمال
روسو الادبية جميعا محورها الخيال والمثالية ، فتخيل مجتمعا سعيدا
صحيحا ، وتخيل تربية مثالية لم يعرفها ولم يمارسها بنفسه ، وتخيل
طريقة جديدة لوضع الموسيقى ، وتخيل حبا طاهرا سماويا حظ البشر منه
قليل نادر ، وتخيل نفسه يحاكم شخصا آخر لم يكن سوى روسو
نفسه ، وأخيرا ، وليس أدل على قوة ذلك الخيال الذي عاش روسو به وفيه
طيلة حياته من العنوان الحالم الذي شاءه لآخر كتاباته أو بالأصح لآخر
خيالاته وهو « أحلام يقظة جوال منعزل » .

واذن فقد كان روسو شاعرا ، وما هو الشعر ان لم يكن احساسا
دافقا وخيالا متقدما رحيبا ؟ كان شاعرا في عصر أحل الفكرة المنطقية الجافة
محل انتفاضات العاطفة والقلب .

وناهيك اذا ما امتزج ذلك الاحساس وذلك الخيال بحب للطبيعة
عظيم وتمجيد لما أبدع الخسائق ليس له نظير . لقد أحب روسو الطبيعة
فصورها في اطار جديد أجمل تصوير . أحبها كما يحبها انسان وقنان
وحالم ومتعبد وعاشق فاستحق بذلك أن يكون « أكبر مصور للطبيعة
عرفته فرنسا حتى آخر القرن الثامن عشر (٢) » ، حقا انه لم يكن للطبيعة
في الادب الفرنسي من قبل مكانة كبيرة ذلك لان الادب الفرنسي عامة هو أدب
قوم يعيشون في المدن أي أن هؤلاء القوم كانوا يفضلون متع المجتمع على
مفاتيح الطبيعة (٣) كان الناس يقدمون على السفر مكرهين وكانت الطبيعة
الحلوة في نظرهم هي فصل الربيع وحده ذلك لان القرن السابع عشر
أورث الثامن عشر النفور من الريف اذ كانت باريس تزخر بالمسارح تمثل
عليها المسرحيات الجديدة ، وبمقاهيها الشهيرة حيث يتواعد الادباء
والكتاب ، وبصالوناتها . . يجتمع بها عليّة القوم يلهون ويتناقشون ،
حتى جاء روسو ليصيح فيهم أن عودوا الى الطبيعة وليصفها لنا في صفحات
بديعة خالدة من أجملها وصفه لجزيرة سان بيير Saint-Pierre وسط
بحيرة بينين Lac de Bienné في الجولة الخامسة من « أحلام اليقظة » .

D. Mornet : La Pensée Française au XVIIIème siècle, p. 140. (١)

Louis Ducros : J.J. Rousseau, p. 57.

(٢) ، (٣)

وكان روسو فريدا في تفكيره ولم يكن يحب أن يقلد أحدا من السابقين فهو حين كان يريد مثلا أن يكتب في التربية استلهمها من خواطره الخاصة وكذلك اذا ما اراد أن يصف مشهدا طبيعيا لا يلجأ الى الكتب ولا يستعير الطُور من غيره كما كان يفعل بعض معاصريه من الادياء ولكن كان يكفيه أن تعود به الذكرى الى حيث عاش بين ربوع الطبيعة سواء كان ذلك في بوسى Bossey أو في الشارميت Les Charmettes أو في الارميتاج L'Ermitage وهكذا كانت صورته صادقة تزخر بالحياة لانه لم يسافر في عربة لاهيا يمل طول الطريق كما كان يسافر الناس في ذلك الوقت لكنه كان يرتحل ضاربا على قدميه متأملا منتشيا بالطبيعة وسحرها الذي ينعش روحه يمتزج بها ويسعدنها ويرتفع بها الى الله مبدع ذلك كله . .

والطبيعة التي تستغرق روسو هي الطبيعة الكبرى التي لم يفسدها الانسان بتعديله وتنظيمه كشواطئ بحيرة بينين Bienne مثلا وهو في ذلك يختلف عن معاصريه في حبه للحدائق الانجليزية المنظمة .

ولانه فريد أيضا ، فانه كتب « الاعترافات » وكتب « الحوار » وكتب « أحلام يقظة جوال منعزل » وضع فيها ذاته وكشف فيها عما تكنه من احساس ومشاعر مبينا عيوبه قبل فضائله ولم يحدث من قبله أن كتب كاتب بمثل صراحته وجراته . . لم يحدث من قبل أن سطرت اعترافات بهذا الصدق وتلك الشجاعة ولم يحدث أن قام حوار بتلك الثورة ولا ذلك الازدواج الفريد في الشخصية كما لم تكن أخيرا « أحلام اليقظة » نوعا أدبيا متعارفا عليه محدد المعالم .

لقد كتب في مستهل « الاعترافات » Les Confessions : « انى أكون مشروعا لم يكن له من قبل نظير ولن يكون له مقلد » ، والواقع أنه فريد لم يقلد لا عند كتابة « تلك المؤلفات الاخيرة فحسب » بل في كل أعماله الادبية على الاطلاق وذلك شأن من ينهج نهجا يمليه عليه قلبه وحده ويستمد من ذاته وحدها .

ولئن كان روسو فريدا أيضا بين كتاب عصره فبالسوية البديع وجملته الموسيقية الجذابة وتعبيراته القوية وبلاغته ومنطقه (لان البلاغة والمنطق لا يصدران عن العقل وحده لكن عن القلب والشعور قبل العقل) لذلك قدر له أن يفرض جل آرائه على التفكير الانساني وعلى القلب الانساني وما صدر عن القلب حل في القلب كما يقال ، بل انه كثيرا ما يكون القلب أكثر اقناعا من العقل . ولم يكن ينقص أسلوبه في « أحلام يقظة جوال منعزل » Les Rêveries du Promeneur Solitaire سوى بعض قوافي الشعر

وأوزانه لتكون شعرا خالصا ، بل ان كثيرا من جمله لو انها نظمت كما ينظم الشعر لكانت قصيدا بارعا ليس له نظير وهذه الطريقة فى الكتابة هى التى جعلت من روسو ٠٠ ان صح القول : « أعظم شاعر فى القرن الثامن عشر » كما انه ، عنها : يتعرف الانسان على روسو وشخصيته ونفسيته .

ولئن كان روسو لم يترك أولادا فقد خلف وراءه بنات أفكاره وأبناء عبقريته وهؤلاء هم الذين خلدوا ذكره عبر السنين فكان له فى حياته ومن بعده دائما معجبون ومتحمسون لافى فرنسا فحسب بل فى ألمانيا وانجلترا وغيرها من البلاد حيثما رق الاحساس وشفقت الروح وظهرت الرغبة فى الهروب من مادية بغيضة كريهة هى وليدة الحضارة الزائفة .

ومن أكثر الكتاب الفرنسيين تأثرا بروسو وكتاباتة « برناردين دو سان بيير Bernardin de Saint-Pierre » الذى كان صديقا حميما لروسو فى أواخر العمر فصاحبه فى جولات كثيرة كانا أثناءها يتحدثان ويجمعان الزهور والاعشاب ثم مات روسو فترك فى قلب صديقه ذكرى عزيزة جعلته يكتب « حياة ومؤلفات جان جاك روسو » La Vie et les Ouvrages de J.J. Rousseau وكذلك شاتوبريان Chateaubriand الذى يطلق عليه « أب الرومانتيكية » باعتبار روسو الاب الأكبر لها ثم مدام دوستايل Madame de Staël التى كتبت عنه تقول « لقد كان الخيال أولى ملكاته بل كان يطغى على ملكاته الأخرى ، كان يحلم أكثر مما يحيا وكانت أحداث حياته تدور فى رأسه أكثر مما تدور خارجها وعندما كان يرى بين الناس كان حب المرء له يقل ، ولكن عندما كان يرى مرة أخرى مع الطبيعة فان كل اختلاجات نفسه تجد صداها فى قلوبنا وتسمو فصاحته بمشاعر أرواحنا (١) » .

وكانت الكاتبة الكبيرة جورج صاند George Sand كذلك الابنة الروحية (٢) لروسو فقالت عنه « انى مخلصه له دائما كما لو كان أباً أنجبني لقد أورثنى . كما أورث كل الفنانين المعاصرين لى حب الطبيعة » كما انها - كتلميذة محبة لروسو - كثيرا ما تمننت أن تكون مدام دوفواران أخرى (٣) .

ومن تأثروا بروسو الى حد كبير أيضا الكاتب سينانكور Sénancour اذ يقول على لسان بطل كتابه «الدومين Aldomen » : انى أعود فى قراءاتى دائما الى جان جاك روسو والى برناردين دو سان بيير وأدرس الطبيعة

(١) Madame de Staël : Lettre sur les écrits de J.J. Rousseau.

(٢) ، (٣) Docteur Dorrya Fahmy : George Sand : Auteur dramatique.

pp. 358,861.

والانسانية مع الرجل الذي يعرفه عصره أقل مما يجب (١) وغيرهم كثيرون
كان روسو لهم رائدا وملهما . . .

وبعد . . . فما أروع أن يصل المرء بجهد وحده دون معلم سوى
الزمن وبلا هاد سوى فكره وقلبه !!! . . . نقول : « ما أروع أن يصل الى
مراتب الخالدين !!! » ان النفوس القوية لا تستطيع أن تخضع أمورا
كبيرة لمشيئتها وتخضع الكون لفكرتها وتختار في حرية من الاماكن والعصور
ما يتفق وطبيعتها .

ولئن كان روسو سياسيا بارعا ومصالحا اجتماعيا كبيرا ومربيامثاليا
فرض آراءه ومبادئه على الفكر الانساني فتأثر به . . . فان الافكار تهرم
وتشيخ ثم تموت طالت حياتها أم قصرت ودليلنا على ذلك تلك المدنية
المتطورة ، المتغيرة أبدا ، فلنلتفت اذن الى ما هو باق ، الى ما هو خالد ، الى
ماسوف تعجب به الاجيال القادمة مثلما نعجب نحن به . . . الى ذلك النبع
الغزير من البلاغ والنهر الفياض من الاحساس الرقيق ، الى ذلك التشيد
الحالم الذي لن يطويه الزمان « أحلام اليقظة » نتاج شيخوخة أحاطت بها
الموسيقى فترنمت بالعزلة وتغنت بالطبيعة في قصيد هو زهرتها وثمرتها . . .
« حين أريد إقامة تمثال لـ «يوليوس الثاني» أراد ميخائيل أنجلو أن يزوده
بمفاتيح القديس بطرس فصاح البابا « لا . . . بل بسيف » .

أما أنت يا جان جاك فاذا وضعنا العقد الاجتماعي أو أميل بين يديك
لقلت : « لا . . . ليس كتبا . . . بل باقة من الزنايق » .

مسكين روسو ! لننظر اليه في صميم نفسه خلال كتاباته وفي دخائل افكاره في كل ما يند عنه من تناقض ومن صلق • فلو اننا اردنا ••• في سبيل الحكم عليه ••• ان نستمسك بفحصه على ضوء ما تجمع لتعاليمه من آثار وما نجم عنها من منازعات لاحصر لها لما التقينا به اهل كما كان تماما •• فلننظر اليه عن كثب كمن كان يقابله في شارع بلا تزيير فما تزال هله هي الوسيلة التي تتيج لنا ان نكون عنه فكرة دقيقة عادلة •

سانت - بوف
Sainte-Beuve
(Causeries du Lundi)

الرحلة الأولى

هأنذا وحيد في الدنيا ، لم يعد لي من أخ أو قريب أو صديق
أو صديقة سوى ذاتي . ان اكثر الناس ميلا للمجتمع واكثرهم حبا للناس
قد اتفقوا جميعا على نبذه منها ، ولقد بحثوا - وهم يشحنون كراهيتهم
عن ألم يستطيع ان يكون أشد قسوة على نفسى المرهفة الحس ،
فحطموا في عنف كل وشيجة كانت تربطنى بهم . لقد كان من الممكن ان
احب الناس بالرغم منهم ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يتسلوا من محبتى
هذه الا حين كفوا عن ان يكونوا بشرا . فلا غرو ان اصبحوا جميعا
غرباء مجهولين ثم نكرات بالنسبة لى ماداموا قد ارادوا ذلك لانفسهم .
اما انا وقد اعتزلتهم جميعا واعتزلت كل شىء ، فانى اتساءل ماذا
عساي ان اكون ؟ ذلك هو السؤال الذى بقى على ان ابحت عن اجابة
عنه . ولكن هذا البحث يجب ان يسبقه لسوء الحظ القاء نظرة على
موقفى وهذه فكرة ارى لزاما على ان امر بها كي ينتقل الحنديث
عنيهم الى .

منذ أكثر من خمسة عشر عاما (١) وانا في هذا الموقف الشاذ
الذى لا يزال يبدو لى كأنما هو حلم ، وأخال نفسى دائما كأنما يعدبني
عسر هضم ، أو كأنما استسلم لنوم مضطرب واننى أوشك ان أستيقظ
وقد زال منى الألم أو كاد لأرائنى بين أصدقائى . أجل مما لا شك فيه
اننى وثبت وثبة سريعة ، دون ان انتبه الى ذلك ، من اليقظة الى النوم

(١) صدر قرار من برلمان باريس في ١ يونيو ١٧٦٢ بحرق كتاب « اميل » *Emile*
بعد أقل من عشرين يوما من خروجه من المطبعة في هولنده . وعلى اثر ذلك اضطر
روسو الى الهرب الى سويسرا حين علم ان امرا صدر بالقبض عليه ، فلبا الى
مدينة ايفدون *Iverdun* وسرعان ما اجلس برلمان جنيف لم يرن على التوالى
قراريهما بادانة كتابى اميل والمقد الاجتماعى فاضطر اخيرا الى ان يلجأ الى
قرية موتيه ترالبر *Motiers-Travers* بالقرب من نيوشاتل *Neuchâtel*
الخاصة لسلطان فرديريك الثانى ملك بروسيا .

أو بالأحرى من الحياة إلى الموت . ولست أدري بعد أن انتزعت من بين مجرى الأحداث كيف وجدت نفسي أهوى في عماء لا يدرك كنهه حيث لا أتبين شيئا على الإطلاق ، وكلما أعمنت الفكر في موقفي الراهن قلت قدرتي على ادراك مكاني .

واني كان لي أن أتكهن بالمصير الذي كان ينتظرني ؟ واني لي أن أدرك اليوم منه شيئا وقد اسلمت له قيادي ؟ أفكنت أستطيع بأحاسيس الفطري أن افترض انني في يوم من الايام أنا الرجل نفسه الذي كنته والرجل نفسه الذي لا أزال أكونه ؟! . سيعدونني بل سيعتبرونني من غير أدنى شك وحشا ، وسما زعافا وسفاكا ، واني سأصبح موضع اشمئزاز الناس والعوبة في أيدي الرعاع ، وأن كل تحايا المارة ستكون بصاقا علي ، وان جيلا بأسره سيستمتع بدفني حيا (١) . وحين تم ذلك التحول العجيب اضطربت في بادئ الامر اذ أخذت على غرة ، وألقي بي اضطرابي وحنقي في هذيان لم تكن عشر سنوات بالكثيرة عليه حتى يهدأ (٢) ، وخلال هذه المرحلة وأنا أقع في هفوة بعد هفوة وخطأ بعد خطأ وحماسة بعد حماسة ، زودت - بعدم تبصرى - أولئك الذين يملكون زمام مصيري بما يكفي من أدوات استخدموها في مهارة لتجديد هذا المصير تحديدا قاطعا .

لقد جهدت طويلا في أن اتخلص في عنف من سلطاتهم - بغير جدوى مع ذلك - . ولقد اعوزتني للمهارة والحيلة والقدرة على المصانعة والحرص . كنت صريحا ، سليم الطوية ، قلقا نائرا ، ولكنني حين كنت أحاول الفكاك كنت أزيد من القيود التي تكبلني ، وكنت أيسر لهم باستمرار أن ينالوا مني في نواحي الضعف التي لم يتوانوا عن استغلالها .

وحين أدركت في نهاية الامر عدم جدوى ما أبذل من جهود وأتني أعذب نفسي بغير طائل ساكت السبيل الوحيدة التي لم يكن هناك مفر من بلوكها وهي الرضوخ لما كتب لي والكف عن معاندة الأقدار ، ووجدت في هذا الاستسلام تعويضا عن كل ما نالني من أذى وذلك بفضل ما

(١) جاء في «الحوار الأول» Terdiaioguer المنشور في: Oeuvres. Hachette, it IX. 156 « لقد جعلوا من هذا التنفس العوبة للامة وسخرية للرعاغ وموضعا لاشمئزاز الناس . انهم يحرمونه من كل مجتمع انساني ويكتفون انفسهم في الوحل ، ويستمتعون بدفته حيا .

(٢) ينوه روسو هنا بنخامته للفيلسوف الانجليزي دافيد هيوم David Hume وبالشهور الاخيرة لاقامته بانجلترا .

أسبغ على هذا الاستسلام من سكينه لم تكن لتتفق والاستمرار في
المقاومة المضنية العقيمة .

وهناك أمر آخر أسهم في هذه السكينة ذلك أن أولئك الذين كانوا
يضطهدونني اغفلوا وهم يشحنون بغضهم أمرا أنساهم إياه جقدهم .
ولقد استطاعوا عن طريق المضي في تلك السبيل تدريجيا إبقائي معذبا
ثم تجديد الآمي عن طريق مداومة نيلهم مني - ولو أنه كان لديهم من
الحصافة ما يجعلهم يتركون لي شسع أمل لبقيت حتى الآن تحت
سلطانهم . لقد كانوا يسهطعون كذلك أن يجعلوا مني العوبة عن طريق
وهم زائف ، ثم يعاودون إيلاي من جديد نتيجة خيبة آمالي المرتقبة ،
ولكنهم كانوا قد استنفدوا كل حيلهم . وهكذا كان في تجريدهم لي
من كل شيء حرمان لهم من كل شيء ، ولم يعد ما رموني به من افتراء
وكآبة وعار مما يحتمل زيادة أو تلطيفا حتى نال العجز منا جميعا ،
فأصبحوا هم عاجزين عن أن يتمادوا وأصبحت أنا غير قادر على الخلاص .
ولقد امعنوا في تجريسي كأس البؤس حتى الثمالة حتى لم تعد قوى
البشر مجتمعة تساندها أساليب جهنم لتستطيع أن تضيف إليها
شيئا ، بل أن العذاب الجثماني نفسه كان كفيلا بأن يلهيني عن الاحساس
بالآمي ، بدلا من أن يزيدها ، فبانتزاع صراخي كان حريا أن يجتنبني الانين
كما كان تمزيق جسدي حريا أن يحول دون تقطيع نياط قلبي .

وبعد ، فماذا أخشاه منهم وقد انتهى كل شيء ؟ انه لم يعد
في طاقتهم أن يثيروا مخاوفي لانهم لم يعودوا قادرين على الاساءة الى
أكثر مما فعلوا . لقد جردوني نهائيا من القلق والخوف ، وفي هذا راحة
لنفسى على أية حال . ان الآلام الحقيقية لا تنال مني الا قليلا ، واني
لا تغلب في يسر على ما أستشعره وليس على ما أتوجسه منها ، ذلك
لان خيالي الجامح يربط فيما بينها ويجدها ويوسع في مداها ويزيد
منها ، بل ان ترقيبي لها يعدبني مائة مرة أكثر من وقوعها ، فوقع البلاء
خير من توقعه - ذلك أن المصائب اذا ما حلت فقدت هالة الخيال
التي تحيط بها حتى تكشف عن صورتها الفعلية وعندئذ أراها أتقه بكثير
ما كنت أتخيلها بل انه لا يعوزني الاحساس بالراحة وأنا مغرق في الآمي .

أما وقد تحررت من كل المخاوف الجديدة ، وتخلصت من القلق
الذي يساور الأمل ، أحس أن اعتيادي ذلك كفيلا بأن يجعلني يوما
بعد يوم أكثر قدرة على احتمال موقف لا يمكن أن يزيد سوءا ، وكلما
أزداد أرهاق اجساسي بمرور الزمن لم تعد أمامهم وسيلة لاشعال

جذوته . هذا هو العروف الذي اسداه الى مضطهدى حين استنفدوا الى ابعاد حد ما في جعبتهم من سهام بغض ، وهكذا جردوا انفسهم من سلطانهم على وغدوت أنا بدورى اسخر منهم .

لم يكده يمضى شهران منذ نعم قلبي بسكينة مطلقة ، ذلك لاننى منذ امد طويل لم أعد اخشى شيئا وان كنت مع ذلك يملانى الامل ، ذلك الامل الذى كان يدنو منى مرة ويبتعد اخرى ظل هدفا لم تال آلاف العواطف المختلفة تستثيرنى من أجله ، ولكن امرا محزنا (١) وغير متوقع محا من قلبي هذا الشعاع الضئيل من الامل ، وكشف لناظرى عن مصيرى وقد تحدد نهائيا والى الأبد فى هذه الدنيا . ومنذ هذه اللحظة رضخت بغير تحفظ حتى وجدت السكينة من جديد .

وما ان بدأت اتبين المؤامرة فى اوسع نطاق لها ، حتى تخطيت تماما عن فكرة استمالة الناس الى صفى مادمت حيا ، وحتى ذلك الامر الذى لم يعد من الممكن ان ابادلهم اياه سيغدو منذ الآن عديم الجدوى ، ذلك لان أولئك الناس مهما جهدوا فى الرجوع الى فانهم سوف لا يجدون فى ما يتشدون ، كما أنهم باثارتهم احتقارى اياهم تصبح صلتى بهم لا معنى لها ، بل انها تغدو عبئا ثقيلًا . وانى لاحس اننى أسعد حالا مائة مرة فى وحدتى منى وأنا معهم . لقد انتزعوا من قلبي كل احساس يحلو المعاشرة الذى صار من العسير ان ينبعث من جديد فى سننى هذه فقد يات ذلك متأخرا جدا فليحسنوا او يسيئوا الى بعد اليوم فسوف لا يعينى منهم ذلك ومهما فعلوا فلن يكون لمعاصرى من شأن لدى ابدا .

ومع ذلك فانى كنت أعول على المستقبل ، وكنت آمل فى جيل أفضل يستطيع ان يتفحص الامور خيرا منهم ويصدر حكمه فى صالحى ، ويستطيع بمساييرتى ان يتبين زيف قاداته حتى يشهدنى على حقيقتى - ان ذلك الامل هو الذى دفعنى الى ان أسطر «حوارى» (٢) Dialogues بل هو الذى أوحى الى بان أقوم بألف محاولة جنونية لاقدمها للاجيال الصاعدة - ان ذلك الامل - وان كان بعيدا - هو الذى جعل روحى تستشعر الاضطراب نفسه الذى كان ينتابها حين كنت أبحث خلال القرن

(١) من المـسـروف انه حاول دون ان يوفق ايداع مخطوط الحوار Les Dialogues كنيسة نوتردام Notre-Dime فى ٢٤ من فبراير ١٧٧٦ .

(٢) روسو. يـحـاكم جان جاك Rousseau Juge de Jean-Jacques ثلاث قطع من الحوار كيتا فيما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٦ وقام بنشرها دي بيرو Du Peyrou فى ١٧٨١ .

من قلب عادل - أما أمانى التى حاولت عبثا التطويح بها فقد جعلت منى
كذلك موضع سخرية معاصرى .

ولقد ذكرت فى «حوارى» الاساس الذى اقامت عليه ترقبى ولكننى
كنت مخطئا ، وادركت ذلك لحسن الحظ فى وقت مناسب لاجد -
قبل ان تحل ساعتى - فترة هدوء شامل وراحة مطلقة . وقد بدأت
هذه الفترة فى المرحلة التى أتحدث عنها ، وأحسب أنها لن يعترضها
شئ بعد الآن .

وما كادت تمر الايام قليلة حتى اكدت لى خواطر جديدة مقدار
خطئى حين اعتمدت على عودة الناس ولو فى زمن آخر ما داموا - على
الاقل فيما يتصل بى - ينساقون وراء مرشدين يتجددون باستمرار
فى الهيئات نفسها التى امعنت فى النفور منى . ان الافراد يموتون ، وأما
الجماعات فلا تموت أبدا . ان المشاعر نفسها تخلد فيها كما أن حقدتها
المتقد ، الخالد كالشيطان الذى يوحى به ، فيظل له دائما الاستعمار نفسه
وحين يموت كل أعدائى من الافراد ، سيكون الاطباء والوعاظ على قيد
الحياة ، وحين لا يبقى من بين مضطهدى سوى هاتين الطائفتين فيجب
ان اكون على يقين من أنهم لن يكونوا بعد موتى أكثر رحمة بذكرائى مما
كانوا خلال حياتى .

ان الاطباء الذين اسأت اليهم فى الواقع قد تهدأ ثأرتهم بمرور
الزمن ، ولكن الوعاظ الذين كنت أحبهم وأقدرهم والذين كنت أودعهم
ثقتى المطلقة والذين لم أسئ اليهم أبدا . ان الوعاظ رجال الكنيسة
انصاف رجال الدين سيظلون دائما متعنتين لان جورهم جعل منى
مجرما فى نظرهم ، وهو أمر لن تغتفره لى كرامتهم أبدا ولكن الجماهير
الذين يوالون اشعال جذوة حقدهم ضدى باستمرار لن تهدأ ثأرتهم
كذلك .

لقد انتهى كل شئ بالنسبة لى فى هذه الدنيا ، ولن يستطيع
احد بعد أن يفعل بى خيرا أو شرا . لم يعد أمانى ما أمل فيه أو ما
اخشاه فى هذه الدنيا ، وهأنذا مستكين فى قرار الهاوية بشرا فانبا
منكودا ولكن صامدا كالاله نفسه .

اننى سأعد منذ الآن كل مالا يتعلق بى غريبا عنى فليس لى بعد
فى هذا العالم من قريب أو اقرب أو اخوة - فانا على الارض كما لو
كنت فى كوكب غريب وسقطت عليه من كوكب كنت أعيش فيه ، ولئن

تعرفت من حولي على شيء فأنما أتصرف. على المحزن الممزق لقلبي من الامور ، ولست أستطيع ان يقع ناظري على ما يؤثر في وما يحيط بي دون أن أجد فيه دائما موقعا لزرارية تثيرني ، أو لآلم يمضيتي . فلاجرد ذهني من كل ما يؤلمه مما قد يشغلني في آسئ وغير طائل على السواء - وما دمت ساظل وحيدا بقية أيام حياتي حيث لا أجد السلوى والامل والسلام في غير ذاتي فلست أريد ولا يجب على أن أهتم الا بها .

وفي حالتى هذه سأتابع من جديد الفحص العسير الصادق الذى أسميته من قبل « اعترافاتي » . اننى اكرس أيامى الاخيرة لدراسة نفسى ، ولاعد مقدا الحساب الذى لن أتوانى عن تقديمه عنها . فلاتجه بكليتى الى لذة التحدث الى نفسى ما دامت هى اللذة الوحيدة التى ليس فى مقصدور الناس انتزاعها منى . فلئن استطعت من وراء أعمال الفكر فى كوامن نفسى التسامى بها واصلاح ما يكون قد ترسب فيها من ألم ، فان تأملاتى عندئذ لن تكون عديمة الجدوى تماما ، وبرغم اننى لم اعد اصلىح لشيء فى الحياة ، فاننى لا أكون قد اضعت تماما أيامى الاخيرة . اننى طالما شغلت فراغ جولاتى اليومية بتأملات رائعة يؤسفنى أن ذكرياتها شردت منى (١) ، وسأسجل كتابة بعض ما يحضرني منها ، وكلما عاودت قراءتها تملكنى من وراء ذلك السرور . سوف أنسى آلامى ، كما سوف أنسى أولئك الذين اضطهدونى وكل ما أذلى وأنا أفكر فيما كان يستحقه قلبى من مثوبة .

ان هذه الاوراق لن تكون فى الواقع سوى يوميات غير متناسقة لأحلام يقظتى ، وستشتمل الكثير عنى لأن انسانا منفردا يفكر لابد وأن يشغل كثيرا بأمر نفسه - وصفوة القول ان كل الافكار الغريبة التى تمر بخاطرى خلال جولاتى سيكون لها مكانها فى هذه اليوميات وسأسجل ما فكرت فيه كما يرد على ذهني تماما دون أن يكون فيه من الروابط الوطيدة ما يكون عادة بين افكار الامس الدابر وافكار الغد . ولكن

(١) جاء فى الخطاب الثالث الى مالزيرب Malesherbes المؤرخ فى ٢٦ من يناير ١٧٦٢ : « اى الاوقات ترى يا سيدى اننى أذكرها كثيرا جدا وفي ارتياح كبير فى احلامى : انها ليست البتة متع شياى ذلك لان هذه كانت شديدة الندرة تمتزج بها المرارة بقدر كبير ولانها تأت اليوم عنى بعيدا جدا ، انها اوقات اعتزالى ، انها جولاتى المنفردة ، انها تلك الايام السريعة الخطوة التى قضيتها بأكملها مع نفسي وحيدا فيرفقة مدبرة شئونى الطيبة الساذجة ومع كلبى المحبوب وقطتى المعجوز ومع طيورالريف وغزلان الغاب ومع الطبيعة جميعها وخالتها الذى لا يرى » .

مستكون من ثمار ذلك دائما معرفة جديدة لطبعي ولمزاجي بفضل الصلة التي ترتبط بين مشاعري وأفكاري والتي هي الزاد اليومي لعقلي في الحالة الغريبة التي أمر بها . وعلى ذلك فهذه الاوراق يمكن أن تعد ملحقا لاعتراقاتي ، ولكنني لا أستطيع أن أعطيها العنوان نفسه ، اذ أنني لم أعد أحس أن هناك ما يمكن ان يقال مما يستحق ذلك العنوان . لقد تطهر قلبي في بوتقة المحن وأكاد في عسر أتبين فيه ، وأنا أتحنس أغواره بعناية ، بقية من ميول تستحق اللوم . . وبعد فماذا لدى هناك من اعتراف وقد انتزعت منه كل المتع الدنيوية . لم يعد هناك ما يجعلني أزجي المديح الى نفسي ، أو ألومها عليه . انني منذ الآن صفر لا وجود لي بين الناس ، وذلك هو كل ما يمكن أن أكونه وقد انعدمت صلتى الفعلية ومعاشرتي الحقه لهم .

ولما لم يعد في مقدوري ان اقدم خيرا دون أن ينقلب الى شر ، أو أستطيع التصرف دون الحاق الضر بانسان أو بنفسي ، أصبح واجبي الوحيد أن اغدو سلبيا ، وان أؤدي هذا الواجب تماما كما أحس به . ولكن برغم توقف جسدي عن العمل فان روعي ستظل نشطة تتبعث منها أحاسيس وافكار وتبدو كذلك وكأنما انبسطت حياتها الداخلية والمعنوية بزوال كل المصالح الدنيوية أو العرضية ، وليس جسدي بعد اليوم سوى حائل وعقبة أسعى جهدي مقدما للتخلص منه .

ان وضعنا فريدا كهذا يستحق بالتأكيد ان يدرس وأن يوصف ، واني لاكرس أوقات فراغي الاخيرة لهذه الدراسة ، ويتعين على ضمانا لنجاحها أن أنهج نهجا منظما رتيبا ، ولكنني غير قادر على القيام بهذا العمل بل انه قد يبعثني عن هدفي وهو أن أتبين تطورات نفسي وكيف تتابع هذه التطورات . وسأجرى على نفسي - الى حد ما - التجارب التي يجريها علماء الطبيعة على الجو لمعرفة حال الطقس اليومية . سأطبق البارومتر على روعي ، وسوف تستطيع تجاربه ، اذا ما أجيبه توجيهها وتكررت طويلا ، أن تقدم نتائج مؤكدة كتلك التي يقدمها علماء الطبيعة ثمرة لبحوثهم . ولكن ليس في نيتي التوسع الى هذا الحد فيما أقوم به . وسأكتفي بتسجيل تلك التجارب دون محاولة الخروج منها بقاعدة . انني أقوم بما قام به « مونتسائي » Montaigne (١) وان كنت

(١) مونتسائي Montaigne هو كاتب فرنسي (١٥٢٢-١٥٩٢) ، اهتم بدراسة الاخلاق ، وبدأ في عام ١٥٧١ في كتابة المقالات *Ies Essais* ، صور فيها نفسه من خلال التناقضات التي كان يلتمسها في طبيعته ، وروسو هنا يمدح من نفسه ماقد يعتقد من انه يقلد مونتسائي فيما كتب .

استهدف شيئاً مضاداً لهدفه ، وذلك لانه لم يدون محاولاته Essais الا للآخرين في حين انى لا ادون احلام يقظتى لغيرى . ولئن بقيت فى شيخوختى المتقدمة وأنا على وشك الرحيل . كما آمل فى وضعى نفسه اليوم ، فستذكرنى قراءتها باللذة التى اتذوقها وأنا اكتبها لأنها ستجعلنى أحس بماضى وقد بعث من جديد ، وهكذا أعيش بفضلها مرتين ، كما يقولون ، واتذوق برغم الناس سحر المجتمع وساحياشيخا مهتما مع نفسى فى عصر آخر كما لو كنت أعيش مع صديق يصفرنى .

لقد كنت اكتب أولى « اعترافاتي » Confessions و « حوارى » Dialogues ، وهى السدائم البحث عن الوسائل التى تمكننى من اخفائها عن أيدى مضطهدى الباطشة حتى أسلمها ، ان كان ذلك ممكناً ، لاجيال أخرى ولكن القلق نفسه لا يساورنى بالنسبة لما اكتبه هنا لاننى أدرك أنه لا جدوى من ذلك ، وأن الرغبة فى أن تزيد معرفة الناس بى ، وقد تلاشت من نفسى ، لم تخلف سوى عدم الاكتراث الشديد بمصير كتاباتى الحقيقية وآثار براءتى على السواء ، التى ربما تم القضاء عليها الى الأبد . فليرقبوا ما أفعل وليتوجسوا خيفة من هذه الاوراق ليستحوذوا عليها أو ليقضوا عليها أو ليزيفوها ، فان كل ذلك سواء لدى منذ الآن . اننى لا أخفيها ولا أظهرها فلئن سلبونى اياها فى حياتى فلن يستطيعوا حرمانى مما شعرت به من سرور عند كتابتها ولا من ذكرى ما اشتملت عليه ، ولا من تأملات الوحدة التى هى ثمرة لها والتى لن يتضرب لها معين الا بصعود روحى الى بارئها . لو اننى عرفت منذ أن حلت بى أولى المصائب كيف لا اقاوم قدرى وأن ألتزم الجانب الذى ألتزمه اليوم ، لما استطاعت جهود الناس ولا خططهم الفظيعة أن يكون لها اثر على ولما استطاعوا اطلاق راحتى بكل ما يدبرون أكثر مما يستطيعون منذ الآن بكل ما أصابهم من توفيق . فليستمتعوا كيفما شاءوا بما لحقنى من اذلال ولكنهم لن يمنعوننى من الاستمتاع ببراءتى ومن قضاء ايامى الاخيرة فى سلام بالرغم منهم .

الجولة الثانية

اما وقد عولت على وصف الحالة التي اعتادتها نفسي في اعجب موقف يمكن أن يصادفه مخلوق ، لم أجد من وسيلة أيسر وأضمن لتنفيذ هذا المشروع الا عمسل سجل صادق لجولاتي المنفردة ولأحلام اليقظة التي تشغلها ، عندما أطلق لفكري العنان وعندما تتابع خواطري مرقاها دون مقاومة او صعاب . ان هذه الساعات التي تنقضي في وحدة وتأمل هي الساعات الوحيدة من اليوم التي أكون فيها انا نفسي ولنفسي دون شاغل أو حائل وحيث يمكنني بحق أن أقول انني ماشاءت الطبيعة أن أكونه ، وسرعان ما أحسست انني ابطأت اكثر مما يجب في تنفيذ هذا المشروع .

أما وخيالي أقل نشاطا فانه لم يعد يتوقد كما كانت الحال من قبل عند تأمل مايشيره ، كما انني لم أعد أنتشي كما كنت أفعل بحرارة أحلامي بل ان في نتائجها منذ اليوم من الاستعادة أكثر مما فيها من ابداع . ان وهنا فاترا يحط من قواي جميعا ، وسر الحياة يذوي في تدريجيا ، ولم تعد روعي تنطلق خارج غلافها البالي الا في عسر ، ولن أستطيع ان أحيا على غير الذكريات مادام ليس هناك أمل في الحالة التي أرنو اليها لانني أشعر بحقني فيها - وهكذا رغبة في تأمل ذاتي قبل اقولي - اري لزاما على أن أرجع القهقري بضع سنوات على الأقل الى تلك الفترة حين فقدت كل أمل في الحياة ، ولم أجد غذاء لقلبي في هذه الدنيا فأخذت أعود نفسي تدريجيا على أن أزوده بخلاصته باحثا في ذاتي عن زاده كله .

وقد غذا هذا النبع الذي تشبهت اليه متأخرا من الغزارة بحيث سرعان ما كان كافيا لتعويض عن كل شيء ، كما جعلني اعتياد الرجوع الى ذاتي ، أفقد في نهاية الأمر الاحساس بالآمي بل أفقد ذكراها تقريبا .

وهكذا تعلمت عن طريق تجربتي الخاصة ان مصدر السعادة الحققة كامن في نفوسنا وأنه ليس من شأن الناس ان يشقوا حقا من يريد ان يكون سعيدا .

وقد اعتدت منذ أربع أو خمس سنوات أن أتذوق هذه الملاذ الكامنة التي تلقاها الارواح المحبة الرقيقة عن طريق التأمل . ان هذه المسرات والنشوة التي كنت أحس بها أحيانا وأنا أتجول هكذا وحيدا ، كانت متعا أدين بها لمضطهدى : اذ اننى لولاهم لما اكتشفت مطلقا او ادركت الكنوز التي كنت أحملها في نفسى . وكيف يتأتى لى ان احتفظ بسجل أمين وسط هذا الثراء ؟ اننى حين أرغب في تذكر احلام يقظتى الحلوة ، ارانى مستغرقا فيها من جديد بدلا من ان أتناولها بالوصف ، وهذا هو ما يؤدى اليه تذكرها وهى حالة سرعان ماتختفى حين يتوقف الاحساس بها .

وقد شعرت تماما بهذا الاثر خلال جولاتى التي تبعت مشروع كتابة تنمة «اعترافى» ، وبخاصة خلال الجولة التي سأتناولها بالحديث والتي قطع حبل افكارى فيها حادث مفاجيء وجعلها تتخذ لفترة من الزمن مجرى آخر . ذلك أنه في يوم الخميس الموافق للرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٦ سرت عقب تناول العشاء في الطرق حتى شارع « شيمان فير » Chemin-Vert ومن ثم الى مرتفعات « منيلمنتان » Ménilmontant ثم سرت في الدروب والمراعى خلال الكروم مخترقا حتى « شارون » Charonne الريفى البهيج الذى يفصل ما بين هاتين القرينتين ثم عرجت لأعود مارا بالمراعى نفسها ولكن عن طريق آخر . وكنت أسرى عن نفسى بتجوالى خلالها بتلك المتعة وهذا الاهتمام اللذين طالما بعثتهما في نفسى المناظر الجميلة . وبتوقفى أحيانا لأمعن النظر في نباتات معينة منبثة في الخضرة وقد لمحت من بينها نوعين ندر ان رأيتهما حوالى باريس ولكنى وجدتهما بوفرة كبيرة بهذا الاقليم . . اما اولهما فهو الحوذان Picris-hieracides من فصيلة المركبات وأما الآخر فهو (اذن الارنب Bupleurum falcatum من نباتات الفصيلة الخيمية ombellifères (١) .

وقد سرنى ذلك الاكتشاف واسعد نفسى فترة طويلة ، كما ادى الى اكتشاف نبات آخر أشد ندرة أيضا خاصة وهو في اقليم مرتفع هو المعروف باسم الحشيشة المائية Cerastum aquaticum الذى - برغم الحادث الذى وقع لى فى اليوم نفسه - وجدته فى كتاب كتبت أحمله معى وقد وضع فى معطى .

وفى النهاية بعند أن فحصت تفصيليا أنواعا كثيرة أخرى من

(١) من المعجم المصور للنباتات : تأليف أرمناك . ك . بديفيان . القاهرة ١٩٣٦ .

اننباتات كانت لاتزال مزهرة وكان مظهرها وترتيبها هو امر مألوف لدى -
يدخلان الى نفس السرور مع ذلك دائما ، واخذت اتخلى شيئا فشيئا
عن هذه الملاحظات الدقيقة لاستسلم الى انطباعة لاتقل عنها لذة وان
كانت اشد تأثيرا ، اضعافها على ذلك كله .

كان جنى الكروم قد تم منذ بضعة ايام وكان اهل المدينة من المتنزهين
قد عادوا ادراجهم ، وكان الفلاحون قد هجروا حقولهم حتى يحل عمل
الشتاء ... واصبح الريف الذي كان لايزال مخضرا ضاحكا - وان
تعري من اوراق اشجاره جزئيا - يعرض في جميع اتحائه صورة للعزلة
ومقدم الشتاء .

كان منظره على هذه الصورة مزاجا من الانطباعات الحلوة والمؤسفة
بلغت من الشبه بايامي وحظي حدا لا يسعني معه الا أن أراعا تطابقها
تماما .

كنت ارانى في مغيب حياة بريئة تعسة ونفسي لاتزال مليئة بمشاعر
حية وروحي تكللها بعض الازهار ، وان اسقمها الحزن واذبلها الملل ..
كنت أحس وأنا وحيد مهجور ببرودة الثلوج الأولى ، وكان خيالي
الآخذ في النضوب لا يستطيع أن يملأ فراغ وحدتى بكائنات صيغت وفق
هواي كنت أقول لنفسي وأنا أتهدد « ترى ماذا اقترفت في هذه الدنيا ؟
لقد خلقت لأحيا ولكن هأنذا اموت دون ان اكون قد عشت » .

ان هذا ليس على الأقل ذنبي ، ولئن لم استطع ان اقدم الى بارئء
كيانى قربانا من صالح الاعمال التى لم أمكن من ادائها ، فانى سأقدم
على الأقل ضريبة من نوايا طيبة ومن مشاعر طاهرة جعلها الناس عديمة
الجدوى ، ومن صبر على محنة احتقارهم اياى .

كنت أحس بحنين لدى هذه الخواطر وكنت أستعيد خلجات
نفسى منذ شبابى وفى سن نضوجى ، ومنذ ان ابعدت من المجتمع الانسانى
وطوال فترة الانعزال الطويلة التى فرض على ان اقضى فيها ايامى الأخيرة
... كنت أسترجع فى رضا غامر عواطف قلبى جميعا وميوله الرقيقة ،
العمياء مع ذلك ، وخواطرى التى كان جانب العزاء فيها يطفى . الى ما بيننا
من هم دفين والتى كانت غذاء لفكرى منذ بضع سنوات خلت وكنت
أعد نفسى لتذكرها بالقدر الذى يمكننى من تناولها بالوصف بلذة تكاد
تعادل اللذة التى كنت احسها حين استسلمت لها . وانتقضت فترة ما بعد
الظهيرة فى هذه التأملات الهادئة ، وكنت عابدا بالغ السعادة من يومى

عندما انتزعتني من غمار حلم يقظتي الحادث الذي بقي على ان ارويه .

كانت السادسة وانا اهبط طريق منيلمنتان Ménilmontant في مواجهة « جالان جاردينييه ، Galant-Jardinier تقريبا عندما شهدت جماعة من الناس - كانوا يسرون امامي - يتفرقون فجأة ، وسرعان ما انقضى على كلب دانمركي ضخم قفز سريعا امام عربة فلم يكن لديه من الوقت مايكفى لان يتوقف او يحيد عندما لمحنى . . ووجدت ان الطريقة الوحيدة لتجنب وقوعي على الارض ، هي القفز الى اعلى بحيث يمر الكلب من تحتي ، وانا معلق في الفضاء . هذه الفكرة وقد مضت في ذهني بأسرع من البرق بحيث لم يكن لدى من الوقت مايسمح بتدبرها او بتنفيذها ، كانت آخر ما عن لي قبل وقوع الحادث حتى لم أحس بالصدمة ولا بسقوطي على الارض ولا بما تلا ذلك حتى اللحظة التي افقت فيها .

كان الليل قد أرخى سدوله تقريبا عندما عاد الى رشدي ، ووجدت نفسي مستندا الى أذرع ثلاثة أو أربعة من الشبان قصوا على ما حدث لي ، فذكروا أن الكلب الدانمركي اصطدم بساقي أثناء عنتوه حين لم يستطع الحد من اندفاعه فصدمني بجماع جسمه وسرعته حتى أوقعني أرضا ورأسي الى الامام . وكان فكي العلوي الذي حمل ثقل جسمي كله قد اصطدم بأرض الطريق البالغة الخشونة ، فقد كانت السقطة من العنف بحيث جعلت رأسي في مستوى ادنى من قدمي . وكانت العربة التي ينتمي اليها الكلب قادمة في أثره وكادت تمر فوق جسدي لو لم يكبح الحوذي فورا جماع خيله .

كان هذا ما علمته من رواية اولئك الذين انهضوني وكنت لا زال استند اليهم حين افقت ، وكانت الحالة التي وجدت نفسي عليها حينئذ شديدة الغرابة بحيث لا يسعني الا ان اتناولها هنا بالوصف :

كان الليل يتقدم ، ورأيت السماء وشهدت عددا من النجوم وقليلًا من الحضرة ، وكان هذا الاحساس الأول لحظة نهية ولم يكن يخالجنى غيره اذ ذاك . كنت أخرج في هذه اللحظة الى الحياة وكان يخيل الى أنني اشغل بكياني الضئيل كل ما كان يقع عليه ناظري . اما وقد عدت الى نفسي تماما فلم أكن أذكر شيئا بالمرّة ، ولم تكن لدى أية فكرة واضحة عن ذاتي ، ولا أدنى خاطر عما لحقني . لم أكن أدري من أكون ولا أين انا ولم أكن أحس بالم أو خوف أو قلق . كنت أرى دمي يسيل كما لو كنت أشهد جدولا ينساب دون ان يخطر لي بحال أن هذا الدم دمي .

كنت احس هدوءا اخاذا يستولى على كيائى كلما تذكرته لاجد له مثيلا فى عالم اللذات المعهودة . . وقد سألونى اين اقيم ؟ ، ولكن . . كان من المستحيل على ان اجيب . وسألتهم اين انا ؟ . فقيل لى اننى فى « لاهوت بورن » La Haute-Borne وكان ذلك كما لو قيل لى اننى فى جبل اطلس Mont Atlas - وكان من الضرورى ان اسأل على التوالى عن اسم الاقليم والمدينة والحقى ، التى انا فيها وحتى ذلك لم يكن كافيا كى اتعرف على نفسى ، وكان لا بد من ان اقطع المسافة كلها من هناك حتى اصل الى الطريق لاتذكر سكنى واسمى . ونصحنى رجل لم تكن تربطنى به معرفة - وان احسن الى بمزافقتى بعض الوقت حين ادرك اننى اسكن بعيدا - نصحنى بركوب عربة من « تمبل » Temple توصلنى الى منزلى . وكنت اسير سيرا حسنا فى يسروخفة ملحوظين دون ان احس بالأم أو جرح برغم ماكنت ألفظ من دم كثير ولكن انتابتنى رعشة باردة جعلت أسناني المهشمة تصطك ببعضها فى صورة غير مريحة بالمرّة . وحين وصلت الى « تمبل » خيل الى اننى ما دمت استطعت المسير دون ألم فانه من الافضل ان اتابع طريقى سيرا على الاقدام من ان اتعرض للهلاك بردا فى عربة . وهكذا قطعت نصف الفرسخ فيما بين « تمبل » وشارع « بلا تريير » (1) Plâtrière وأنا اسير فى غير عناء ، متحاشيا العقبات والعربات مختارا ومتبعيا طريقى نفسه على نحو ماكنت افعل فيما لو كنت مكتمل الصحة . وهانذا اصل وافتح المزلاج الذى وضع فى بوابة الشارع ثم اصعد السلم فى الظلام وادلف فى نهاية الامر الى حيث اقيم دون ان اتعرض لحادث آخر سوى سقطتى وماترتب عليها ، مما لم يكن يخطر على بالى اذ ذاك .

ولقد ادركت من صرخات زوجتى حين شهدتنى ان ماحل بى ابلغ مما كنت اتصور ، ولقد قضيت الليل دون ان ادرك او احس مدى ماحل بى من سوء ولكن هالك ما احسست به وما تبينته فى اليوم التالى : كانت شفتى العليا مشقوقة من الداخل حتى انفى ، أما من الخارج فقد صانها الفشاء الجلدى فحال دون ان ينفصل شفاها ، وكانت اربعة من الاسنان قد انفرست فى فكى العلوى ، واما الجانب من الوجه الذى يغطيها فكان شديد التورم تملؤه الكدمات كما ان ابهام اليد اليمنى اصيب بالتواء ادى الى انتفاخه ، وكان باهام اليد اليسرى جرح كبير ، اما الذراع اليسرى

(1) شارع بلا تريير Plâtrière هو الذى سكن روسو فى منزل به باللود الرابع عندما عاد الى باريس عام ١٧٧٠ ولم يتقل منه الا فى ٢ من مايو عام ١٧٧٨ ويسمى هذا الشارع اليوم شارع جان جاك روسو .

فقد أصيب بالتواء كذلك وأما الركبة اليسرى فكانت شديدة التورم وبها
رض شديد ومؤلم يمنعها كلية من القدرة على الاثشاء . وبرغم هذه
الإصابات جميعا فإنه لم تكن هناك كسور ولا في سن واحدة وهو أمر يكاد
يشبه المعجزة بعد سقطة كتلك التي تعرضت لها .

تلك هي قصة الحادث الذي وقع لي بمنتهى الصدق (١) وقد
انتشرت تلك القصة بعد أيام قليلة في باريس بعد أن تناولها التفسير
والتحوير حتى أضحي من المستحيل التعرف على شيء منها . وكان من
الواجب أن أفترض مقدما ذلك التحوير ولكن صحبت ذلك الجساث
ظروف كثيرة غريبة ولفو مبهم وتكتم ، وكان الناس يتحدثون الى في
فضول مضحك جعلني أوجس سرا من كل تلك المعميات .

لقد كنت دائما أكره الظلمة لأنها بطبيعتها تبعث في نفسي رعبا حتى
أن ما أحاطني به الناس طوال تلك السنوات الكثيرة ما كان ليقلل منه .
ومن بين غرائب هذه الفترة لن أشير الا الى واحدة تكفى مع ذلك للحكم
على غيرها .

فقد أرسل السيد (٠٠٠) (٢) الذي لم تكن لي به صلة ما في يوم
من الايام سنكرتيره ليستطلع اخباري وليعرض على في الحاج خدمات لم
ار لها في تلك الآونة فائدة في التخفيف عني . ولم يفت سنكرتيره هذا أن
بعثني في اصرار على أن أتمسك بعروضه حتى أنه قال لي انه ان لم تكن
لي ثقة فيه فان في استطاعتي ان أكتب مباشرة الى السيد (٠٠٠٠) .

وقد أدركت من وراء هذا الالحاح في النصح وروح الثقة التي
صحبتة سرا ماكنت أحاول عبثا الكشف عنه ، ولم يكن الامر يستوجب
مزيدا لينفرني وبخاصة في حالة الاضطراب التي كان يعانيتها عقلي من جراء
الحادث والحمى التي صحبتة . وقد استسلمت لآل من الافتراضات

(١) وردت عن هذا الحادث روايات عدة تختلف في بعض التفاصيل ، لعل أهمها ما أورده
برناردين دونان بيير Bernardin de Saint-Pierre وكورانسيه Corancez
وهما يؤيدان ما يروييه روسو . الاول في كتابه عن حياة روسو وأعماله
La vie et les ouvrages de J.J. Rousseau

والثاني في « جورنال دوباري Journal de Paris . (السنة السادسة . الجزء
الاول من رقم ٢٥٦ - ٢٦١) ويرى البعض أن روسو وبما كان متأثرا فيما يروييه
بما كتبه مونتسائي Montaigne عن أحاسيسه بعد سقطته من فوق الحصان .
« Essais, Liv. II, Chap. VI » .

(٢) السيد لنوار Monsieur Lenoir هو رئيس الشرطة طبقا لما جاء بالنسخة الخطية
للسبع جولات الاولى وهي النسخة المحفوظة في نيوشاتل .

المقلقة الكئيبة وكانت لى على كل ما يدور حولى تعليقات تتسم بهذيان الحمى اكثر مما تتسم بهذوء أعصاب رجل لم يعد يكثر بشيء .

ثم طرا امر آخر قضى على البقية الباقية من هدونى ذلك ان السيدة « ٠٠٠٠ » (١) كانت تطاردنى منذ بضع سنوات دون أن أحس سبب ذلك فمن هدايا صغيرة كانت تفتعل مناسبتها ، الى زيارات متكررة ثم يكن هناك من داع لها ، ولم تكن تبعث السرور كذلك وكانت كافية لان تدفعنى الى الوثوق من وجود هدف مستور وراء ذلك كله ، وان لم تبينه تماما . وكانت قد تحدثت انى عن قصة تريد كتابتها لتقديمها الى الملكة وذكرت لها راىى فى المؤلفات من النساء ، وافهمتنى ان هدفها من هذا المشروع استعادة ثروتها مما يجعلها فى حاجة الى رعاية ، ولكن لم يكن لدى من رد على ذلك . ثم ذكرت لى بعد ذلك انها لم تستطع الاتصال بالملكة ولذا استقر رأيا على تقديم كتابها للجمهور . ولم يكن هناك مجال لاسداء نصيح لم تطلبه بل لو أن هذا حدث لما استمعت الى . وكانت قد قالت لى انها ستعرض على المخطوط أولا فرجوتها ألا تفعل وقد استجابت الى ذلك .

وقد تلقيت منها ذلك الكتاب ذات يوم خلال فترة نقاهتى مطبوعا بل ومجلدا وشهدت فى المقدمة مديحا ضخما لشخصى صدر به الكتاب بشكل ممجوج وفيه كثير من الافتعال مما كان له أسوأ الأثر فى نفسى . ولم يكن الملق الفج الذى يتلمسه المرء فى ثناياه مما يتفق واللياقة ولم يكن قلبى ليخدع به .

وجاءت السيدة « . . . » بعد عدة أيام لزيارتى ومعها ابنتها وذكرت لى ان كتابها اثار اكبر ضجة بسبب ملاحظة وردت به . وقد لاحظت بالكتاب هذه الملاحظة حين كنت أتصفح على عجل هذه القصة ، فأعدت قراءتها بعد انصراف السيدة ، وتمعنبت فى تركيبها وأحسبنتى كشفت عن هدف زيارتها لى وملقها اياى وما أسبغته من مديح مغالى فيه لشخصى فى مقدمة الكتاب . وأيقنت ان هذا كله لم يكن له من هدف آخر سوى تهيئة أذهان الجمهور لتنسب تلك الملاحظة لى وبالتالي ماتثيره من لوم على كاتبها فى الظرف الذى تم نشرها فيه .

لم يكن لدى من وسيلة لاختاد هذه الضجة والأثر الذى يمكن أن

(١) - مدام دورموا Mme d'Ormoى هى اديبة ، مؤلفة كتاب : *Malheur de la Jeune Emilie (Paris 1777)*.

ينجم عنها ، وكان كل ما استطيع القيام به هو الا اعمل على اذكائها بتحمل
استمرار زيارات السيدة «...» وابنتها ، هذه الزيارات الفارغة
المكشوفة . ومن اجل ذلك كتبت الى الام هذه الرسالة :

« لما كان روسو لا يستقبل في بيته اى مؤلف ، فهو يشكر السيدة
«...» على افضالها ويرجو الا تشرفه بعد اليوم بزيارتها ، » .

وقد كتبت لى الزد خطابا صادقا ظاهره وان كان ملتويا ككل
الخطابات التى تكتب الى في مثل هذه المناسبة . ولقد اعدت الخنجر
بوحشية في قلبها الحساس ، وكان على ان اصدق من وراء لهجة خطابها
انها لن تتحمل البتة هذه القطيعة بل ان دونها الموت لما تكنه من مشاعر
حاددة صادقة ، وهكذا تعد الاستقامة والصراحة في كل شيء جرائم بشعة
في هذا العالم ، وهكذا كنت ابدو لمعاصري شريرا شرسا حين لا يكون لى
من جرم في نظرهم سوى اننى لست مضللا او مخادعا مثلهم .

كنت قد خرجت مرات كثيرة بل كنت اتجول غالبا في التويلرى
Tuileries عندما استنتجت من دهشة الكثيرين الذين كانوا يقابلوننى
انه لا يزال هناك نبا آخر يتصل بى كنت اجهله . وعلمت في نهاية الامر
ان شائعة سرت بين الناس مؤداها اننى مت على اثر سقطتى . وقد
انتشرت تلك الشائعة في سرعة واصرار ، حتى انه بعد اكثر من خمسة
عشر يوما من علمى بها كان الناس يتحدثون عنها فى البلاط وكانما هي
امر اكيد . ولم يفت جريدة الكوريه دافنيون، Courrier d'Avignon (١)

(١) - في عدد الثلاثاء ٢ من ديسمبر نشرت جريدة كوريه دافنيون Courrier d'Avignon
« منذ بضعة ايام صدم احد تلك الكلاب الدانمركية التى تتقدم العربات السريعة
السيد روسو الذى غالبا ما يتجول لوحيدا في الريف ... ويقال انه مريض جدا
بسبب هذه السقطة ، ولا نستطيع ان نأسف كثيرا على ما ناله بسبب دوس
الكلاب له ... » وفي عدد الجمعة ٢٠ من ديسمبر : « مات جان جاك روسو
متائرا من سقطته . لقد عاش فقيرا ومات بائسا . ان غرابة قدره صحبته
حتى القبر ، وانه ليؤسفنا اننا لانستطيع ان نتحدث عن مواهب هذا الكاتب
البليغ . ولا بد ان قراءنا يدركون ان سوء استعماله اياها يفرض علينا الصمت
المطبق في هذا المقام . فليطمئن الناس تماما من انهم لن يحرموا من الامام بتفصيلات
حياته وانهم سيجدون بها حتى اسم الكلب الذى قتله . »
وقد كتب فولتير Voltaire الى فلوريان Florian في ٢٦ من
ديسمبر ١٧٧٦ يقول : « لقد احسن جان جاك صنعا بموته ، ويزعم انه ليس
صحيفا ان كليا قتله ، وانه شفى من الجراح التى اصابه بها صديقه الكلب .
ولكن يقال انه في يوم ١٢ من ديسمبر من له ان يقوم بالتسلى في باريس مع صديق =

كما عنى البعض بالكتابة الى مشيرين الى ماجاء بها - عندما زفت هذا
النبا السعيد - ان تتعجل بهذه المناسبة ما يعد لما أستحقه من السباب
والاهاات للذكرى وفاتي في صورة رثاء ، وقد اقترن ذلك الخير بظرف
آخر اكثر غرابة كذلك لم أعلم به الا مصادفة وان لم أعرف شيئا عن
تفصيلاته : ذلك أنه افتتح اكتاب في الوقت نفسه لطبع المخطوطات التي
قد يعثرون عليها لدى ، وفهمت من وراء ذلك أنهم قد أعدوا مجموعة
من الكتابات اصطنعوها خصيصا لتنسب الى بعد موتى مباشرة ، ذلك
لان الاعتقاد بأنهم قد يقومون مخلصين بطبع آية واحدة من بين ما قد
يعثرون عليه حقيقة ، سخافة لا يمكن أن يقبلها تفكير رجل عاقل جنبته
اياها خبرة خمسة عشر عاما .

وقد اهاجت هذه الملاحظات خيالي من جديد بعد أن كنت اظن انه
خمد وذلك حين توالى وحين تبعثها أخريات ليست بأقل منها عجبا ،
كما احييت في نفسي تلك الاقتراءات المضللة - التي دأبوا على تدعيمها بغير
هواذة من حولي - كل ما تبعثه في نفسي عادة من اشمئزاز .

ولقد نال منى الجهد وانا احاول ايجاد ألف تفسير لهذا كله ومن
جرا محاولة تفهم الاسرار التي جعلوها مستغلقة على ، وكانت النتيجة
الوحيدة الثابتة لتلك العميات تأكيدا لكل ما انتهيت اليه من قبل وهو ان
ما قدر لي وما قدر لسمعتي قد اتفق على تعديدهما الجيل الحاضر جميعه
بحيث لم يكن أي جهد من جانبي ليستطيع تخليصي مادام ليس في مكنتي
اطلاقا أن انتقل الى الاجيال المقبلة اية وديعة دون أن تمر بين ايدي هذا
الجيل التي يهملها القضاء عليها .

ولكنني في هذه المرة ذهبت الى أبعد من ذلك : ان تجمع هذا القدر
من الاحداث الطارئة وارتفاع شأن الاعدائي جميعا بفضل يد القدر كما
يقال وكل أولى الأمر في الدولة ، وكل من يوجهون الراى العام ، وجميع
ذوى المكانة والصفوة من ذوى الاعتبار الذين كأنما اختيروا عمدا من بين
اولئك الذين يحملون لي ضغنا دفينا ، متسابقين ليسهموا في المؤامرة
المشتركة ... هذا الاجماع العام من الغرابة بحيث لا يمكن أن يكون
محض صدقة . ولو ان أمرا ابى أن يسهم في المؤامرة ، أو لم يتفق احد
احداثها مع وجهة نظره ، أو ان ظرفا غير متوقع اعترض سبيله ، لكان

= تقديم من جنيف يدعى رومبى Romilly وانه اكل كشيطان فاصيب بسر
مضم ثم مات ككلب .. .

ذلك كافيا لفشلها ، ولكن دعمت من صنيعهم كل الارادات والمقدرات
والمال والثورات . وان تسابقا مثيرا كهذا يكاد يشبه المعجزة ، لا يدع
مجالا للشك لدى في ان نجاحه المحقق كان مكتوبا في لوح القدر ، وان
كثيرا من الملاحظات الخاصة سواء في الماضي او في الحاضر ايدت رايي
هذا ، لدرجة لا يستطيع معها ان امنع نفسي بعد من ان ارى ما كنت احسبه
حتى اليوم ثمرة الشر الانساني ، كأنما هو واحد من تلك الاسرار الالهية
المستعصية على العقل البشرى .

ان هذه الفكرة بدلا من ان تقسو على وتمزق قلبي اراها تعزيني ،
وتدخل السكينة الى نفسي وتساعدني على الاستسلام ، وانا في هذا
لا اختلف عن « القديس أوغسطين » (١) الذي عزي نفسه عن تعذيب
الناس له باعتبار ان هكذا كانت مشيئة الله . واما استسلامي فمصدره
لا يخلو من القرض في الواقع ولو انه ليس اقل نقاء واكثر جدارة في رايي
بالكائن الكامل الذي أعبدته .

ان الله عادل ، وهو يريد ان اتالم وهو يعلم اننى برىء . . . ذلك
هو سبب ايماني الذي يؤكد قلبي وعقلي انه لن يضللنى . ولندع اناس
والقدر اذن لما يعملون ولنتعلم كيف نحتمل الألم بغير تدمير : فلا بد وان
تنظم الامور جميعا فى النهاية ، وسيحل دورى ان عاجلا أو آجلا .

(١) - القديس أوغسطين **Saint-Augustin** هو ابن القديسة مونيكا **Sainte Monique** (٣٥٤ - ٤٣٠ م) وقد اجتذبه الحياة الدينية بعد شباب ماجن
وأصبح فيما بعد أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن أهم مؤلفاته مدينة الله
والاعترافات . وهذه روى فيها اخطاء شبابه ثم هدايته (حوالى ٣٦٨ م) .

الجولة الثالثة

« اننى اشيخ وما ازال اتعلم »

كان «سولون» (١) يردد هذا البيت من الشعر كثيرا فى شيخوخته ، ولهذا البيت معنى استطيع انا الآخر ان اردده فى شيخوختي كذلك . وياله من علم يدغو الى الرثاء ، ذلك العلم الذى اكسبتنى اياه التجربة منذ عشرين عاما (٢) ، ان الجهل افضل منه . ان المحنة هى من غير شك معلم كبير ، ولكن هذا المعلم يتقاضى غالبا ثمن دروسه ، واغلب الامر ان مايجنيه المرء من فائدة من وراثتها لا يعادل الثمن الذى تكلفته . هذا الى ان فرصة الافادة منها تنقضى قبل ان يستطيع المرء الحصول عليها من وراء دروس جاءت متأخرة . ان السبب هو الفترة التى يتعلم المرء فيها الحكمة ، أما الشيخوخة فمرحلة ممارستها . وانى لأقر ان التجربة تعلم دائما ولكنها لا تفيد الا بقدر ما أمام المرء من فسحة فى الوقت . ان ساعة الموت هى اللحظة التى يتعلم فيها كيف كان يجب أن يعيش ؟

وبعد ، فيم تفيدنى معلومات جاءت متأخرة وبهذه الصورة المؤلمة عن مصرى وعن عواطف الآخرين ومصرى من صنعهم ؟ انى لم اتعلم ان ازداد معرفة بالناس الا لآزداد احساسا بمدى ماغرقونى فيه من تعاسة دون ان تستطيع تلك المعرفة حين اماطت اللثام عن كل مانصبوه لى من شراك ، ان تجنبنى واحدا منها .

ليتنى ظلمت أنعم بهذه الثقة العمياء - الحلوة مع ذلك - التى جعلت منى طوال تلك الأعوال العديدة قريسة والعوبة لصحابى الصاخين ،

(١) سولون Solon هو فيلسوف ومشرع اغريقى (٦٤٠ - ٥٥٨ ق.م) .
(٢) يشير روسو هنا الى عام ١٧٥٧ حيث تمت القطيعة بينه من ناحية وبين مدام دابناتى Mme d'Epinaى وجريم Grimm وديدرو Diderot من ناحية اخرى ، وكان ذلك بداية متاعبه الحق واعتقاده فى مؤامرة يحيكها له اعداؤه .

دون أن ينالني أدنى شك فيما أحاطوني به من تدبيرات . حقا لقد كنت موضع استغفالهم كما كنت ضحية لهم ، ولكنني كنت أحسبني محبوبا منهم ، وكان قلبي يستمتع بما أوحوا لي من محبة حسبتهم يبادلونني مثلها . ولكن انهارت هذه الاوهام اللذيذة . ان الحقيقة الاليمة التي كشف لي عنها الزمن والعقل وهما يجعلاني أحس بشقائي ، جعلتني أدرك أن لاوسيلة للبراء منه ، وأنه لم يعد لي الا ان أستسلم له ، ومن ثم كانت كل تجارب عمري بالنسبة لي وفي حالتى هذه ، بغير نفع حاضر ، او كسب في المستقبل . اننا نشرع في الكفاح عند مولدنا ونفرغ منه عند الموت ، فما جدوى تعلم المرء كيف يحسن قيادة مركبته حين يكون قد بلغ نهاية المطاف ؟ انه لم يعد اذ ذاك مجال للتفكير اللهم الا في كيفية الخروج منه . ان ما على الشيخ أن يدرسه . . اذا كان لا يزال هناك مجال للدراسة لا يعدو أن يكون المران على الموت ، وتلك الدراسة على وجه التحديد هي اقل ما يهتم به من كان في مثل سنى ، فهو يفكر اذ ذاك في كل شيء الا ذلك الامر . والشيوخ جميعا يستمسكون بالحياة اكثر من استمساك الاطفال بها ، ويرحلون عنها في آسى يفوق حزن الشباب على فراقها ، ذلك لانهم - وقد كان كل ما قاموا به من اعمال انما قاموا به من اجل هذه الحياة الدنيا - يشعرون في نهايتها ان كل جهودهم ضاعت هباء فهم يخلفون عند رحيلهم كل ما جهدوا من اجله وكل متاعهم وكل الثمار التي سهرروا يعملون من اجلها . ولم يفكروا خلال حياتهم أن يكتسبوا شيئا يستطيعون حمله معهم عند موتهم .

لقد رددت ذلك لنفسى في الوقت المناسب له ، ولئن لم يكن في الامكان ان افيد من خواطري خيرا من ذلك ، فليس هذا لانها لم تكن لي في اوانها او لآتني لم استطع استيعابها تماما . ولما كنت قد زج بي منذ طفولتى وفي خضم الحياة ، فقد ادركت مبكرا ، وبالتجربة ، اننى لم اخلق لأعيش فيها ، واننى لن أتجح البتة في الوصول الى ما يحس قلبي بحاجته اليه . واذن فلما توقفت عن البحث بين الناس عن السعادة التي كنت أدرك عدم قدرتي على أن أجدها بينهم ، فان خيالى المتوقد مالبت ان وثب متخطيا نطاق حياتى وهى بعد في مستهلها ، وكأنما يجتاز ارضا غريبة عنى . ليستقر فوق بقعة هادئة استطيع ان اثبت عليها .

كان هذا الشعور البنى اغتنى بما تعلمته منذ طفولتى والذي تدعيم طوال حياتى . . بتلك السلسلة - من الشقاوة وسوء الحظ - التي

ملأت أرجاءها . . . مما دفعنى فى كل وقت ، الى محاولة معرفة طبيعة
كيانى وما سوف ينتهى اليه وذلك فى اهتمام وفتى عناية أبلغ مما أجدهما
عليه لدى أى انسان آخر . لقد شهدت من بين الناس من استطاعوا أن
يتعمقوا فى فلسفتهم أكثر منى ، ولكن فلسفتهم تلك ، ان صح القول ،
كانت غريبة بالنسبة لهم ، فرغبة منهم فى أن يصبحوا اغزر علما من
غيرهم ، أخذوا يدرسون الكون حتى يتوصلوا الى معرفة كيف نظم ، كما
لو كانوا يدرسون بدافع الفضول المحض آلة من الآلات وقع نظرهم عليها .
لقد كانوا يدرسون الطبيعة البشرية ليستطيعوا التحدث عنها حديث
العلماء . . لا ليتعرفوا على أنفسهم ، وكانوا يعملون لتثقيف الآخرين . .
لا لالقاء ضوء المعرفة على دخيلة أنفسهم . بل ان الكثيرين منهم لم تكن
لهم من رغبة سوى تأليف كتاب - ولا يهم فى ذلك أى كتاب - على شريطة
أن يتقبله الناس ، وحين يتم تأليفا ونشرا فلا تهتمهم بعد ذلك محتوياته فى
كثير أو قليل ، اللهم الا دفع الناس الى اعتناقها ، والدفاع عنها ان
هوجمت . وذلك دون أن يفيدوا منها أو يجشموا أنفسهم عناء معرفة صواب
أو خطأ هذه المحتويات مادام الناس لم يفندوها . واما أنا ، فاننى حين
كانت تحسدونى الرغبة فى التعلم ، فقد كنت أستهدف معرفة ذاتى ،
لا تعليم الناس . . وكنت أومن دائما أن على الانسان أن يبدأ بمعرفة الكثير
لذاته قبل أن يعلم الآخرين . ومن بين كل الدراسات التى حاولت القيام
بها خلال حياتى بين الناس ، لم تكن هناك واحدة لا أستطيع القيام بها
كذلك وحيدا فى جزيرة تخلو منهم أحتجز فيها بقية أيام حياتى . ان
بما يجب على الانسان عمله يتوقف كثيرا على ما يجب عليه الايمان به ، وان
معتقداتنا هى التى تنظم فعالنا الا فيما يتعلق بالضرورات الاولى التى
تفرضها الطبيعة . ولقد حاولت كثيرا لفترة طويلة - وبهذا المبدأ الذى
اعتنقته دائما - أن أوجه طريقة حياتى وان اتعرف نهايتها الحققة ، فما
لبثت أن تعزيت عن ضعف مقدرتى على شق طريقى بمهارة فى هذا العالم
وذلك حين شعرت انه لم يكن من الضرورى السعى وراء معرفتى تلك
النهاية .

اما وقد ولدت فى اسرة تسودها التقاليد المتينة والتقوى وريبت
فيما بعد بحنان لدى كاهن بالغ الحكمة والتدين ، فقد تلقيت منذ نعومة
اظفارى مبادئ ومثلا - قد ينمينا الآخرين معتقدات - لم يحدث
مطلقا أن تخلت عنها تماما . وعندما كنت لا أزال طفلا ، على بنجيتنى ،

يفرني التدليل ، ويتمكنني الزهو ، وتخدعني الأمانى ، وتقهرني الحاجة ، اعتنقت الكاثوليكية ولكنى ظللت دائما مسيحية ، وما لبث قلبي بحكم العادة أن تعلق باخلاص بدينى الجديد . وقد وطدت لدى هذا التعلق تعاليم مدام «دوفواران» (١) Mme de Warens وما سردته على من أمثال . كما أن وحدتى فى الريف حيث أمضيت زهرة شبابى ، بالاضافة الى دراسة الكتب الجديدة التى تفرغت لها بكليتى ، دعمت - وأنا بجوارها - من استعداداتى الطبيعية لمشاعر الود وجعلت منى متدينا على طريقة فينلون Fénelon (٢) تقريبا . ان التفكير أثناء العزلة ودراسة الطبيعة وتأمل الكون ، تضطر جميعا المرء المنفرد بنفسه الى الانطلاق دوما نحو خالق الاشياء ، والى البحث فى لهفة مستحبة وراء غاية كل ما يراه وعله كل ما يحس به . وحين ألقى بى قدرى فى دوامة الحياة ، لم أعد أجد فيها ما يستطيع أن يستهوى قلبى ، ولوللحظة واحدة ، فقد تبعتنى الحسرة - أينما توجهت - على أوقات فراغى الحلوة ، ولونت بعدم الاكتراث والاشمئزاز كل ما كان من الممكن أن أجده فى متناول يدي، حريا أن يقودنى وراء الثراء ومراتب المجد ، ولما لم أكن مستقرا تحدونى رغباتى القلقة، فقد كنت آمل فى القليل ، فحصلت على الأقل ، وشعرت حتى فى اشراقه الرخاء أننى لو قدر لى أن أحصل على ما كنت أظننى أبحث عنه لما عثرت فيه قط على تلك السعادة التى كان قلبى متعطشا اليها دون أن يستطيع تبين كنهها . وهكذا كان كل شىء يسهم فى تقطيع اوصال المودة بينى وبين هذا العالم حتى قبل أن تحل بى المصائب التى كان من شأنها أن جعلتنى غريبا عنه تماما . وهكذا شارفت الاربعين من عمري ، أتأرجح بين العوز والثراء . . . بين الحكمة والضياع ، تجللتنى رذائل اعتدتها دون أن يكون بقلبي أى ميل الى الاثم ، أعيش مفامرا دون مبادئ محدودة تماما فى فكرى ، لاهيا عن واجباتى دون أن أحقرها ، ولكن دون ان اتفهمها جيدا فى أغلب الامر .

(١) - مدام دوفواران Mme de Warens هى السيدة التى حولت روسو من البروتستانتية الى الكاثوليكية واقام عندها سنوات كان يناديها خلالها «امى» ويمتبرها روسو (الجولة العاشرة) أسعد سنوات عمره .

(٢) فينلون Fénelon كاتب فرنسي ومن كبار رجال الدين (١٦٥١ - ١٧١٥) ، اعتنق مذهباً يدعى Le quiétisme يقصد به «الحب الخالص لله» ولايطلب من يمتنق هذا المذهب القيام بأية شعائر دينية ، فما عليه الا ان يعيش محبا لله فى مدوه مطلق .

ولقد كنت منذ أيام شبابي قد حددت هذه المرحلة - مرحلة الاربعين - كحد لمجهودي في سبيل النجاح ، وكحد لمشروعاتي في كل نوع مصرا - بمجرد بلوغى هذه السن ومهما يكن من مركزى حينئذ - ألا أناضل من أجل الخروج منه ، وأن أقضى ما تبقى من أيامى ، أعيش ليومى دون أن أشغل بالمستقبل . ولما حلت تلك الساعة ، نفذت هذا المشروع دون عناء ، وبالرغم من أن حظى اذ ذاك بدا وكأنما ينحو الى مزيد من الاستقرار ، الا اننى عدلت عنه ، لا بغير أسف فحسب بل وبسرور حق . وفيما أنا أحاول انفكاك من كل هذه المضلات ، ومن كل تلك الامانى الكاذبة ، استسلمت كلية للاهمال ودعة الفكر التى كان لى بها ميل مستبد وانعطاف مقيم ، هجرت المجتمع بمباهجه ، وزهدت كل زينة ، فلم يعد لدى سيف ولا ساعة ، لا جوارب بيضاء ولا حلى ذهبية ولا زينة شعر ، بل شعر مستعار بسيط جدا ، ورداء سميك من الصوف ، بل - وخبرا من هذا كله - نزعنت من قلبى كل اشتهااء لجمع المال وكل مطمع فى كل ما تخليت عنه مما يجعل له قيمة ثم هجرت الوظيفة التى كنت أشغلها(١) اذ ذاك ، والتى لم أكن خليقا بها البتة وانصرفت الى نسخ الموسيقى نظير اجر للصفحة الواحدة وهو عمل كنت شديد الميل اليه دائما .

ولم أقصر اصلاح امرى على المظاهر الخارجية . ذلك لاننى شعرت بأن هذا الاصلاح نفسه كان يتطلب اصلاحا آخر فى الافكار أشد عسرا من غير شك ، وان كان أشد ضرورة ، وهو اصلاح الآراء ، ولما كنت قد عولت على ألا أقوم بعمل ذلك على دفعتين ، فقد بدأت باخضاع ذاتى الداخلية لفحص دقيق يستطيع ان ينظمها بقية أيام حياتى على الصورة التى كنت اريدها عليها عند موتى .

كان قد حدث انقلاب كبير فى ذاتى . كان يتكشف عالم معنوى آخر لناظرى ، فالاحكام الخرقاء التى كان يصدرها الناس ، بدأت أحس باستحالتها ، دون أن أتكهن بعد . . . كم ساكون فريسة لها ؟ والحاجة المتزايدة الى متعة اخرى غير المجد الادبى الذى ما كاد يلفحنى بخاره حتى اشمازت منه نفسى ، وأخيرا . . . الرغبة فى أن أرسم للبقية من مطافى نظريقا اقل قلقا من ذلك الذى قضيت فيه زهرة أيامى . . . دفعنى كل هذا الى هذه المراجعة الكبرى التى كنت أحس منذ امد طويل

(١) كان روسو اذ ذاك صرافا عند مسير دوغرانكى M. de Francuell محصل

الحاجة اليها وهكذا شرعت فيها ، ولم أهمل شيئاً مما يتوقف على كي
يتم تنفيذ ذلك المشروع على ما يرام .

اننى أستطيع أن أخذ تاريخ عزوفى التام عن المجتمع ابتداء من هذه
الفترة ، وكذلك هذا المينل الشديد للوحدة . . اننى لازمنى منذ تلك
الوقت ، ولم يكن من المستطاع أن ينفذ العمل الذى شرعت فيه الا فى
عزلة مطلقة ، ذلك لانه كان يتطلب تأملات طويلة هادئة لا يسمح بها
صخب المجتمع ، وقد اضطررتنى هذا ، الى حين ، أن اتهج طريقة اخرى
فى الحياة ارتحت اليها فيما بعد ، حتى اننى ، وقد تابعتها منذ ذلك
الحين ، ولم أنقطع الا مضطرا ولفترات قليلة ، عاودت انتهاجها من جديد
بجماع قلبى واقتصرت عليها فى غير جهد بمجرد أن تسنى لى ذلك .
ولما اضطررتى الناس فيما بعد الى أن احيا وحيدا وجدت انهم باحتباسى
مستهدفين شقوتى ، عملوا فى سبيل تحقيق سعادتى أكثر مما استطعت
أنا ان اقل لنفسى .

اتجهت الى العمل الذى كنت قد شرعت فيه بحمية تتفق وأهمية
ما أنا بصدده والحاجة التى أحس بها نحوه . كنت أعيش اذ ذاك مع
فلاسفة محدثين ليس بينهم وبين القدامى وجه شبه ، وبدلا من ان
يزيلوا شكوكى ، ويوقفوا ترددى ، زعزعوا كل ثقة كنت أظننى عليها فى
النواحى التى كان يهمنى ، أكثر ما يهمنى ، الالمام بها ، ذلك لانهم كمبشرين
متعنتين للالجاد ، وكمتعصبين معتدين بأنفسهم ، لن يستسيغوا بأية حال
وبغير غضب أن يجرؤ واحد على تفكير يفاير تفكيرهم مهما يكن وجه
الخلاف .

وكثيرا ما كنت أدافع عن نفسى بشيء من الضعف كراهية للجدل
وقلة دراية بمتابعته ، ولكننى لم أعتنق البتة منهجهم الهدام . كما أن
هذه المقاومة لقوم بلغوا هذا الحد من التعصب - ولهم قبل كل شيء وجهة
نظرهم - لم تكن من الاسباب القليلة التى أثارت عداوتهم .

انهم لم يقنعونى ولكنهم أثازوا القلق فى نفسى ، ولقد زعزعتنى
حججهم دون أن تقنعنى أبدا ، ذلك لاننى لم أجدها فيها أى جواب شاف ،
ولكننى أحسبت ضرورة وجود ذلك الجواب ، وكنت اتهم نفسى بالقصور
أكثر من اتهامى اياها بالخطأ ، وكان قلبى يتولى الرد عليهم خيرا مما
يفعل عقلى . وقلت لنفسى أخيرا :

« أفترك نفسى أبدا العوبة لسفسطة المتفهبين ممن لا أثق - حتى -

في أن الآراء التي يدعون اليها ويتحمسون لنشرها الى هذا الحد حتى يعتنقها الآخرون هي آراؤهم ؟ ان عواطفهم التي تسيطر على مذهبهم ، واهتمامهم بأن يحملوا الناس على تصديق هذا الامر أو ذلك تجعل من المستحيل النفاذ الي ما يعتقدون هم أنفسهم يمكن افتراض حسن النية لدى رؤساء الشيع ؟ ان فلسفتهم للآخرين ، وكان لا بد لي من فلسفة خاصة بي فلأبحث عنها بكل قواي ما دام هناك متسع من الوقت لذلك ، حتى أستطيع وضع قاعدة ثابتة للسلوك فيما بقي لي من أيام حياتي . هأنذا في تضحج العمر ، في عنقوان الوعي ، وقد شارفت على الافول ، ولئن انتظرت أكثر من ذلك فلن أستطيع استخدام جميع قواي عند مراجعة نفسي مراجعة تجيء متأخرة ، وستكون ملكاتي العقلية قد فقدت بعض نشاطها ، وسيكون أدائي لما أستطيع اليوم القيام به على خير وجه أقل اتقاناً . فلاغنىم تلك اللحظة المواتية ، فهى اوان اصلاحى الخارجى والمادى ، الا فلتكن كذلك اوان اصلاحى الفكرى والخلقى ، ولأحدد مرة واحدة آرائى ومبادئى ، ولأكن فيما تبقى من أيام حياتي ما كنت ارى أنه يجب ان اكونه بعد اعمال الفكر فيه . ولقد نفذت ذلك المشروع فى ببطء وعلى فترات متفاوتة وان كان ذلك بكل ما كان يسعنى من جهد وعناية . وكنت أحس احساساً قويا ان ما سوف انعم به من راحة بقية ايامى وكل ما قدر لى يتوقفان على ذلك . ولقد وجدت نفسى فى البداية فى متاهة من الحيرة ، والصعاب ، والاعتراضات ، والالتواءات ، والظلمات ، حتى راودتنى نفسى عشرين مرة أن أتخلى من كل شيء ، وكدت اتمسك - متخلياً عن بحوث لا طائل وراءها - بأصول الحيلة المعتادة فى مداولاتى مع نفسى ، وذلك دون معاودة البحث وراء المبادئ التى طالما جهنت فى توضيحها . ولكن هذا الحرص نفسه كان شديد الغرابة . لقد كنت أحس اننى أقل من أن اكون أهلاً للوصول اليه ، حتى ان اتخاذه هادياً لى لم يكن الا كرهبة فى البحث فى وسط البحار والعواصف بغير دفة وبغير « بوصلة » عن منارة لا يكاد يستطاع الوصول اليها ولا تهدينى الي أى ميناء .

ولكننى صمدت ولأول مرة فى حياتى تملكتنى الشجاعة ، وانى لأدين لانتصاراتها بمقدرتى على تحمل القدر المخيف الذى أخذ يحتوينى منذ ذلك الوقت دون أن يساورنى من ذلك أدنى شك . وبعد جهود بالغة العنف ، والصدق ، ربما لم يقم بمثلها على الاطلاق أى كائن ، حددت موقفى للمقبل من سنى حياتى بالنسبة لمختلف الاحاسيس التى كان يهمنى أن تنطبع فى ذاتى . ولئن كنت عرضة للخطأ فيما

انتهيت اليه ، فأننى على ثقة تامة على الاقل بأن خطئى لم يكن يعد من قبيل الجرم من ناحيتى ، ذلك لاننى بذلت كل جهودى لتوقيه . والحق اننى لست أشك مطلقا فى أن معتقدات الطفولة ورغبات صدرى المكنونه لم ترجح كفة الميزان الاكثر عزاء لنفسى . ان الانسان ليجهد فى مشقة فى ذود نفسه عن الايمان بما يتوق لتحقيقه فى كثير من الحماس ، والا فمن ذا الذى يقوى على الشك فى أن الفائدة التى تعود من وراء القبول أو الرقض لاحكام الحياة الآخرة لا تحدد عقيدة معظم الناس فيما يأملون أو يخشون ؟ كان هذا كله كفيلا بأن يتسلط على أحكامى - وهذا ما أسلم به . ولكن لايقوى على أن يغير من حسن نيتى . . . اذ اننى كنت أخشى الوقوع فى الخطأ فى كل شيء ولئن كان الهدف هو الافادة من هذه الحياة فحسب فقد كان يهمنى معرفة ذلك لكى أستخلص لنفسى منها على الاقل خير نصيب ، ما دامت هناك بعد ، فسحة من الوقت فلا أغدو غرا تماما ولكن كان أخوف ما أخافه فى هذا العالم - وأنا أمر بحالتى تلك - هو أن أخطر بمصير نفسى الابدى نظير تذرقة متاع هذا العالم الذى لم يبد لى قط ذا قيمة كبيرة .

وانى لاعترف كذلك اننى لم اقض دائما - كما احب - على كل تلك الضعاب ، التى حيرتنى والتى كثيرا ما آذى فلاسفتنا بها سمعى . ولكن ما ان قر رابى اخيرا على ان ابت فى امور يقل استيعاب الفهم الانسانى لها - بعد أن وجدت فى كل النواحي أسراراً منيعة واعتراضات يستعصى حلها - التزمت فى كل امر الشعور الذى بدا لى مباشرة او طد أساسا ، والاكثر قابلية للتصديق بذاته ، دون ان اتوقف عند الاعتراضات التى لم اكن أستطيع حلها ، ولكن كانت تدحضها اعتراضات لا تقل عنها قوة ، من المذهب المضاد . ولم تكن اللهجة اليقينية فى هذه الامور تناسب غير الدجالين وان يكن من الضرورى ان يكون للمرء احساسه الخاص به وان ينتقيه بكل ما أوتى من نضج عقلى ، فلئن وقعنا برغم ذلك فى الخطأ فان العدالة الحققة لا توجب علينا العقوبة ما دمنا لم نقترف اثما . ان ذلك هو المبدأ الراسخ الذى اتخذته أساساً لسلافتى .

وقد كان من نتيجة أبحاثى المضنية التى ضمنيتها بعد ذلك كتابى « اشهار عقيدة كاهن من سفوا » (1) .

Profession de foi du vicaire Savoyard

(1) كتاب اشهار عقيدة كاهن من سفوا
Profession de foi du vicaire Savoyard

هو اللدى الحققة روسو بكتابه «اميل» وضمنه أسس عقيدته مما كان سببا فى مصادرة الكتاب كله واعتباره خارجا على الديانة المسيحية الحققة .

وهو كتاب انتهك حرمة ودينه ظلما أبناء الجيل الحاضر ولكنه قد يحدث في يوم من الايام ثورة بين الناس لو بعث فيهم الادراك السليم وحسن النية .

منذ ذلك الحين - وقد ركنت الى المبادئ التي كنت قد اعتنقتها بعد طول تأمل وروية - اتخذت منها قاعدة راسخة لسلوكي وايماني دون أن آبه بعد ٠٠ لا بالاعترافات التي لم أقو على التغلب عليها ، ولا بتلك التي لم أستطع التكهن بها والتي كانت جميعا تنتاب ذهني من وقت لآخر ، ولقد سببت لي في بعض الاحايين قلقا ، ولكنها لم تزعزعي بتاتا ، ودائما ما حدثت نفسي قائلا : « ليست هذه جميعا سوى مجادلات وتخريجات ميتافيزيقية لا وزن لها الى جانب المبادئ الاساسية التي يعتنقها عقلي ويؤكدها قلبي والتي يطبعها جميعا رضا النفس حين تسكن الاهواء . أفيجوز في أمور تتسامى فوق مستوى فهم البشر أن يقلب اعتراض لا أستطيع التغلب عليه مذهباً على هذا الرسوخ وبهذا الاحكام يكون بعد طول تأمل وعناية متجاوبا مع احكام عقلي وقلبي وكياني كله ومعززا برضا نفسي الذي أحس انني أفقدته في جميع المذاهب الاخرى ؟ . . . لا . . . لن تقضي ابدا اية مغالطات على التوافق الذي الحظه فيما بين طبيعتي الخالدة ودمستور هذا العالم من جهة . . . والنظام المادي الذي أراه يسوده من جهة أخرى . انني أجد في النظام المعنوي المقابل - وهو النظام الذي كان نهجه ثمرة أبحاثي - ما أنا في حاجة الى الاعتماد عليه لتحمل ما أقاسيه من شقاء في الحياة . وأما في أي نظام آخر فقد أعيش بغير موارد ، وقد أموت بغير أمل ، وقد أكون أتعس المخلوقات طرا ، فلاستمسك اذن بالنظام الذي يكفل اسعادي وحده برغم القدر وبرغم البشر .

الا يبدو ذلك التفكير ، والنتيجة التي استخلصتها منه ، كما لو أن السماء نفسها كانت أملت هما على لتعدني للقدر الذي كان ينتظرني ولتجعلني في حالة تمكني من احتمالها ؟ ماذا كان يمكن أن يكون أمري ، بل كيف كان يصبح حالي بين تلك المخاوف المروعة التي كانت تتربص بي ، وفي ذلك الموقف الذي لا يمكن تصوره والذي زج بني فيه بقية حياتي ، لو انني بقيت بغير مأوى حيث يمكنني أن افلت من مضطهدى العتاة ، وبغير تعويض عما يكبدونني من عار في هذا العالم وبغير أمل في الوصول الى ما استحق من عدالة ، ووجدتني منساقا بجمع نفسي لأقسي مصير يمكن أن يعانيه مخلوق على ظهر البسيطة ؟

وفيما انا مستغرق في سداجتي ، لم اكن اتصور الا أن الناس

يحملون لى الاحترام والرعاية ، وفيما كان قلبى متفتحا مليثا بالثقة يفضى بسريرته للاصدقاء والاخوان ، كان الحونة يقيدوننى - فى صمت - بأحاييل صيغت فى أعماق الجحيم ، وبعد أن فوجئت بآخر ما تتوقعه نفس ذات كبرياء من أقسى الرزايا وأستخفها وجررت فى الحما دون أن أعرف مطلقا شخصية من يفعل بى ذلك ، ولم يفعله إلا مغرقا فى هاوية من العار ، مخطا بظلمات مروعة لا أتبين خلالها سوى النحس من الامور أصابنى الانهيار من المفاجأة الاولى وكان من الجائز الا أفيق من اليأس الذى ألقى بى فيه ذلك اللون غير المتوقع من الكوارث لو لم أكن مزودا من قبل بقوى ثقيلنى من عثرتى .

ولم أحس بقيمة الموارد التى زودت بها نفسى لوقت الشدة الا بعد سنوات من الإضطراب حين ثبت الى نفسى أخيرا وبدأت أسترجع صوابى . وبعد ان انتهيت الى رأى فيما كان يعينى الحكم عليه وجدت - وأنا أقارن مبادئى بموقفى الذى كنت فيه - اننى كنت أعير الاحكام المختلفة التى كان يصدرها الناس والاحداث التافهة لهذه الحياة القصيرة أكثر بكثير مما لها من أهمية ، كما وجدت ان هذه الحياة مادامت ليست سوى سلسلة من المحن ، فليس يهم كثيرا أن تبدو هذه المحن على هذه الصورة أو تلك مادام ينجم عنها الاثر الذى قدرت من أجله ، وانه تبعاً لذلك كلما عظمت المحن وقويت وتمعدت ، فمن المفيد أن يتعلم الانسان كيف يحتملها . ان أبلغ الآلام عنفا تفقد حدتها لدى من يرى أن تعويضه عنها سيكون سخيا ومضبونا . كان ضمان هذا الجزاء . . الثمرة الرئيسية التى اقتطفتها من وراء تأملاتى السابقة .

والواقع انه مرت بى فى ثنايا الاهانات التى لا حصر لها ، وألوان الذل التى لا حد لها ، والتى شعرت بها تثقل على من كل جانب ، فترات من القلق ومن الشك كانت تراودنى من وقت لآخر فتزعزع أمانى وتزعج هدوئى . كانت الاعتراضات القوية التى لم أستطع حلها ، تبدو لعقلى اذ ذاك أشد قوة كى تقضى على تماما فى اللحظات نفسها التى يرهقنى فيها ثقل ماقدرو لى حتى كاد يحل بى القنوط . وكثيرا ما كانت تراود فكرى حجج جديدة - كنت أنتوى الاخذ بها - تساند تلك التى كانت قد عذبتنى وكنت أقول لنفسى حينئذ وصدرى يضيق حتى لتكاد روحى تزهب : أواه ! من ذا يؤمننى من اليأس اذا كنت لا أرى - وسط ما يحيق بحظى فى الحياة من أهوال - سوى أوهام فيما يقدمه لى عقلى من عزاء ، انه بتقويضه على هذا النحو - ما قدم من صنيع - قلب رأسا على عقب . . كل

دعامة أمل وثقة أمدنى بها فى شدتى ؟ يا لها من دعامة ليست سوى أوهام لا يتعلل بها سوى فى هذا العالم ! ان الجيل الحاضر بأجمعه لا يرى فى المشاعر التى أعيش عليها وحدى سوى أخطاء وظنون ، وهو يعتقد ان الحق والبدئية تتضمنهما الطريقة المضادة لطريقتى ، بل انه يبدو - وكأنما لا يستطيع ان يصدق - اننى أنتهجها عن ايمان حق ، وأنا نفسى بتسليمى بها عن طواعية مطلقة أقابل فيها صعبا يتعذر التغلب عليها بل يستحيل على حلها وان لم تمنعنى من المثابرة عليها . أفانا اذن العاقل الوحيد والمستنير الوحيد بين البشر ؟ أفيكفى كى أعتقد أن الامور تجرى على صورة ما ان تتفق وهوأى ؟ وهل أستطيع ان تكون لى ثقة واعية فى مظاهر ليس لها من أساس ثابت فى عيون الآخرين . . . وكان من الممكن أن تكون مضللة بالنسبة لى كذلك ، لو ان قلبى لم يساند عقلى ؟ او لم يكن خيرا لى ان أصطرح مع مضطهدى . . . بأسلحة متكافئة عن طريق اعتناق مبادئهم من أن أظل على أوهام مبادئى . . . فريسة لهجماتهم دون أن أعمل على دفعها ؟ اننى أو من بحكمتى وما أنا سوى غر ، ضحية خطأ عقيم وشهيد له .

كم من مرة كدت أستسلم الى اليأس فى تلك الفترات من الشك والحيرة ! ولو اننى قضيت شهرا كاملا على تلك الحال لا نقضى امر حياتى وامرى ، ولكن تلك الازمات على تكرار حدوثها فى الماضى كانت دائما قصيرة المدى . واما الآن ، ولو اننى لم اتخلص منها بعد تماما ، الا انها بلغت من الندرة والسرعة بحيث لم تعد لها القدرة على إقلاق راحتى . انها هموم طفيفة لا تستطيع أن تؤثر فى نفسى اكثر مما تستطيع ريشة تقع فى النهر أن تغير من اتجاه مجرى الماء فيه . وقد أدركت ان العودة الى تدبر النقاط نفسها التى استقر عندها رأيى من قبل ، كانت لى بمثابة افتراض معلومات جديدة أو حكم أحسن تكويننا أو تحمس للحقيقة أشد . . . لم يكن لدى حين كنت أبحث عنها . ومادامت واحدة من هذه الحالات لم تكن - وليس من المستطاع أن تكون - حالتى ، فاننى لم أقو على أن أفضل - مستندا الى أى سبب قوى - آراء لم تكن - وأنا رازح تحت أعباء اليأس - تراودنى . . . الا لتزيد من شقائى عن مشاعر اتخذتها فى عنقوان العمر ، والذهن فى تمام نضجه . وبعد دراسة على أكبر قدر من الروية وفى أوقات لم يكن هدوء حياتى ليترك لى من شاغل مقيم سوى التعرف على الحقيقة . واليوم . . . وقلبى يعنصره الضيق ، ونفسى يبفظها السأم ، وخيالى مستوحش ورأسى تضنيه تلك الاحاجى الشنعاء التى

تحيط بي . اليوم . . وقد فقدت ملكاتي جميعا كل ما يحفظها على العمل بعد ان انهكتها الشيخوخة والفرع ، افسلب نفسي من غير داع كل الموارد التي هيأتها لذاتي ؟ واكون اكثر اطمئنانا الى عقلي المشرف على الافول ليجعلني تعسا بغير وجه حق مني . . الى عقلي الكامل القوي ليعوضني عن الآلام التي أتحمّلها دون أن أستحقها ؟ لا . انني لم أكن أكثر حكمة ولا أغزر علما ولا أفضل ايمانا الا عندما قطعت برأى في هذه الامور الكبرى . انني لم أكن أجهل اذ ذاك الصعاب التي ادعها اليوم تشير ضيقى . انها لم تستوقفني ولئن عرض منها جديد لم يكن قد استرعى انتباه أحد من قبل . . فما ذلك الا السفسطة ذات التخريجات الميتافيزيقية التي لا يمكنها أن تززع الحقائق الخالدة المتفق عليها في كل العصور ومن كل الحكماء ، والمعترف بها بين جميع الشعوب والمنقوشة في كل قلوب البشر بحروف لا يمكن أن تمحى . وكنت أعلم - وانا أتدبر تلك الامور - أن الفهم الانساني الذي تحدده الجواس لم يكن ليستطيع الاحاطة بها من جميع نواحيها . واذن فقد استمسكت بما وسعت طاقتي دون أن ارتبط بما وراءها ، وكان هذا المسلك معقولا فلزمته فيما مضى وتمسكت به وقد ارتضاء عقلي وقلبي معا . فعلي أي أساس أتخلي عنه اليوم بعد ان أصبحت توجب على الارتباط به دوافع قوية ؟ ترى أي خطر اراه في اتباعه ؟ واية مزية تعود على من وراء التخلي عنه ؟ اذا ما اعتنقت مذهب مضطهدى ، أفكنت كذلك أعتنق مبادئهم الخلقى ؟ ان هذا المبدأ - ولا أصل له ولا نتيجة - الذي يعرضونه مطمئنين به في كتب أو مواقف مسرحية دون أن ينفذ شيء منه البتة الى القلب او الى العقل . . اوبالأحرى هذا المبدأ الآخر الخفى المتعنت . . أعنى التعاليم السرية لجميع الاتباع التي ليست الأخرى سوى قناع لها ، والتي هي رائدهم فيما يسلكون وفيما مارسوه معي بكل ذلك الدهاء . . ان هذا المبدأ الخلقى - وهو مبدأ هجومي بحت - لا يجدى مطلقا في حالة الدفاع ولا يمكن أن يفيد الا في العدوان . ففيم اذن كان يعود على بالنفع في الحالة التي انتهوا بي اليها ؟ ان براءتي وحدها هي التي تساندني في المصائب ، وكم كنت أزيد من شقائي كذلك لو انني استبدلتها بنزعة شر وانا أحرم نفسي من هذا المورد الوحيد . . القوى مع ذلك . أفكنت أصل الى مرتبتهم في فن الاساءة ؟ واذا ما توصلت الى ذلك فمن أي ألم قد يريحني ما استطيع ان اوجهه اليهم ؟ انني بهذا قد افقد احترامى لنفسي ولن أكسب شيئا بدلا منه .

وهكذا بمناقشة الامر مع نفسي عولت على ألا ادعنى اتأرجح في

مبادئ تقود إليها حجج مضللة ، واعتراضات غير قابلة للحل ، وصعوبات تفوق طاقتي وربما طاقة العقل البشري . أما عقلي وقد استقر عند أوطه أساس استطعت أربأ أهيته له ، فقد اعتاد تماما على أن يستكين لها في حمى ضميري ، حتى أنه لم يعد في استطاعة أي مذهب غريب قديم أو مستحدث أن يستثيره ، أو يعكر من صفوي لحظة واحدة . وحين حل بي الفتور وركود الذهن ، نسيت حتى الحجج التي كنت أقيم عليها أسس عقيدتي ومبادئ ، ولكنني لن أنسى أبدا النتائج التي استخلصتها منها برضا ضميري وعقلي وسأتمسك بها منذ الآن . فليتقدم كل الفلاسفة ليقارعوها ، وسيضيع عليهم وقتهم وجهدهم . انني متمسك فيما بقي من حياتي في كل الامور بما اتخذته من رأى عندما كنت في حالة تمكني من حسن الاختيار .

وبعد أن سكنت الى هذه التدابير وجدت فيها - ونفسي راضية - الأمل والعزاء اللذين أحتاج لهما في موقفي هذا . وليس من الممكن الا تلقى بي أحيانا في غمار اليأس عزلة مطلقة متواصلة كثيبة في ذاتها، وضغن بين من جميع أبناء الجيل الحاضر مشوب على الدوام ، ومهسانات يهيلونها على باستمرار . ولم يزل أملى المزعزع وشكوكي المثبطة تعارذني من وقت لآخر لنزعج نفسي وتملاها شجنا . أما وقد عجزت عن ممارسة التنكير اللازم لاطمئن نفسي بنفسي ، بما أحس به ، من حاجتي الى تذكر قرارتى القديمة : ذلك لان العناية والحرص وخلوص القلب ، تلك التي آليت على نفسي التزامها عند اتخاذ هذه القرارات ، تعاودني ذكرها وترد الى كل ثقتي ، وهكذا أمتنع عن تقبل أية آراء جديدة ، وكأنما هي أخطاء مشنومة ليس لها سوى المظهر الخادع وكأنما ليس من شأنها الا اطلاق راحتي .

وهكذا وقد احتبست داخل حيز ضيق من معلوماتي القديمة لم يعد لدى كما كان الامر مع « سولون » فرصة القدرة على التعلم كل يوم ، والعسر يتقادم بي ، بل يجب على أن أجنب نفسي الغرور الخطر الذي يدفعني الى الرغبة في معرفة ما أنا منك اليوم عاجز عن الإلمام به تماما . ولكن اذا ما بقيت أمامي بعض مغائم من معلومات نافعة آمل في الحصول عليها ، فإن على بعد ذلك أن أسعى وراء شيء له أهمية ، وذلك من ناحية الفضائل الضرورية لحالتي . وعندئذ يكون قد حل الوقت المناسب لتزويد روعي وتزيينها بمفهم تستطيع ان تحمله معها عند تحررها من هذا الجسد الذي يفشيها ويعميها .

وبرؤيتها للحقيقة سافرة ستدرك مدى تفاهة جميع المعلومات التي يزعمونها الى هذا الحد علماً أننا المزيقون .. ستنوح روحى على تلك اللحظات التي ضيعتها في هذه الحياة راغبة في كسبها ولكن الصبر والوداعة والاستسلام والاستقامة والعدالة المطلقة كل أولئك ألوان من الثراء يحملها الانسان معه تستطيع أن تزيد من ثرائه باستمرار دون أن يخشى أن يفقدها قيمتها .. حتى الموت نفسه . اننى أكرس البقية الباقية من شيخوختى لهذه الدراسة الوحيدة النافعة وكم أكون سعيداً لو أنتى تعلمت ، بما أحرزت من تفوق على نفسى ، كيف أخرج من الحياة .. لا خيراً مما دخلتها .. فان هذا ليس ممكناً .. ولكن أكثر فضيلة .

الجولة الرابعة

من بين الكتب القليلة التي لا زال أقرؤها أحيانا كتاب «بلوتارك» (١) الذي يجذبني اليه ويستحوذ على أكثر من غيره . لقد كان أول ما طالعت في طفولتي (٢) ، وسيكون آخرها في شيخوختي . فهو تقريبا المؤلف الوحيد الذي لم أقرأ له مرة واحدة الا وجنيت من ذلك فائدة ما . ولقد كنت أول من اطالع في مؤلفاته الاخلاقية رسالة عن «كيف يفيد الانسان من أعدائه ؟ » Comment on pourra tirer utilité de ses ennemis ?

وفي اليوم نفسه حين كنت أقوم بترتيب بعض الكراسات التي بعث بها الي المؤلفون ، وقفت عيني على احدى يوميات الراهب « R. (٣) » التي في عنوانها هذه الكلمات « الى من يكرس حياته للحقيقة » (٤) .
Vitam vero impendenti, R.

ولما كنت بالغ اليقظة ازاء مدارات هؤلاء السادة بحيث أدهما هذه المرة دون أن أرد عليها بمثلها ، فقد أدركت أنه اعتقد تحت هذا الستار من الادب انه يستطيع ايلامي بالتجني على الحقيقة ولكن على أي أساس كان ذلك ؟ ولم هذا التهمك ؟ وأي موضوع كنت أستطيع أن

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ اغريقي قديم كتب كتابا عن « حياة مشاهير الرجال » وكان له اثره على تفكير روسو طيلة حياته .

(٢) كتب روسو خطابا الى مالورب Malesherbes بتاريخ ١٢ من يناير ١٧٦٢ فيه « وقع بلوتارك تحت يدي وأنا في السادسة من عمري وحفظته من ظهر قلب وأنا في الثامنة » .

(٣) هو الأب روزيه P'Abbé Rozier طبقا لما ورد في مخطوط نيوشال وإن ورد الاسم في طبعة Bibliothèque indépendante d'Édition (مام ١٩٠٥ ص ١١٤) تحت اسم روابو Royou وفي الخطاب رقم ٨ من روسو الى لا توريت La tourette هو الراهب الذي خرج روسو معه في رحلات استمشاب عام ١٧٨٨ وللراهب مؤلف هو : Voyage à l'Île des Peupliers

(٤) Vitam vero impendenti أي « الذي يكرس نفسه للحقيقة » - وهو الشعار الذي اتخذه روسو ورد أيضا في حاشية خطابات من (الجيل) Lettres de la Montagne

اضمنه اياه ؟ ورغبة منى في تحقيق الفائدة من دروس « بلوتارك » فقد اعتزمت ان اكرس جولة الغد لا قوم باختبار نفسى من ناحية الكذب ، وانتهيت فى ذلك الى تأكيد الرأى المسلم به من قبل وهو « اعرف نفسك بنفسك » شعاع معبد « دلف » لم يكن مبدأ من الميسور اتباعه على نحو ما كنت أعتقد فى « اعترافى » .

وفى اليوم التالى عندما هممت بالسير لتنفيذ هذا القرار ، كانت أول فكرة راوردننى حين بدأت أجمع شتات نفسى ، فكرة الأكذوبة الشنعاء التى ارتكبتها فى مستهل شبابى (١) ، وعكرت ذكراها صفوى طوال حياتى ، ولا تزال حتى فى شيخوختى تدفع بالحزن الى قلبى على ما به من احزان سببتها له عوامل أخرى . ان تلك الأكذوبة ، التى كانت فى حد ذاتها جرما كبيرا لا بد وانها كانت أفظح جرم أيضا بما ترتب عليها من آثار جهلتها دائما ولو أن الندم صورها لى أشد ما يمكن أن تكون قسوة . ومع ذلك ، فلو لم أدخل فى الاعتبار سوى الحالة التى كنت عليها حين ارتكبتها ، فان تلك الأكذوبة لم تكن سوى نتيجة خذى شائن ، وأبعد ما تكون عن فصد الاساءة الى من كانت ضحية لها ، ويمكننى ان اصم امام وجه الله أنه فى اللحظة نفسها التى كان ينتزعها هذا الخذى الذى لا يقهر ، وددت لو بذلت كل دمي راضيا لأحول أثرها الى وحدى ، ان هذا لون من ألوان الهديان لا أستطيع أن أفسره الا بقولى - كما أظننى أحسه - انه فى تلك اللحظة قهرت طبيعتى الخجول كل أمانى قلبى .

ان ذكرى تلك الفعلة التعسة ، والندم الذى لا يخبر أواره الذى حلفته لى ، بثت فى نفسى من ناحية الكذب نفورا كان حريا أن يجنب قلبى هذه الرذيلة بقية حياتى . . . وعندما اتخذت شعارى ، كنت أحس بأننى مهيا لان أستحقه ولم يكن لدى شك فى أننى لست جديرا به حين بدأت أنتخب نفسى فى جدية أكثر على ضوء مقالة الراهب « ر . . . »

وعندئذ دهشت جدا - وأنا أفحص نفسى فى عناية متزايدة - لكثرة ما اخترعت مما كنت أذكر اننى قلت على أنه الصدق ، فى الوقت نفسه الذى كنت - وانا مزهو فى قرارة نفسى بحبى للحقيقة - أضحى فى سبيلها بسلامتى ، ومصالحى ، وشخصى ، بعدم تحيز لا أعرف له ضريبا بين البشر . وكان أشد ما أثار الدهشة فى نفسى ، هو اننى عند تذكرى لتلك

(١) المقصود هنا حادثة سرقة شريط ترك روسو الاتهام فيها ينصب على الخادمة ماريون Marlon ، وجاء فى « الاعترافات » فى الكتاب الثانى ان روسو كان قد سرق شريطا « بلون الورد والفضة » ، أما ماريون التى ألقى عليها التهمة فهى طبخة لدى مدام دو فرسليس Mme de Verceilis

الأمور المختلفة ، لم أكن أحس أذائها أى ندم حقيقى . . وأنا من ليس فى قلبه مكان للتردد فى الاشتمزاز من الزيف . أنا من قد يخوض الوان التعذيب لو أن تجنبها ما كان يستدعى الكذب . . أى تنساقض عجيب ذلك الذى كان يدفعنى الى الكذب مختاراً ودون موجب وبلا فائدة تجنى؟ وأى تعارض غير معقول ذلك الذى يجعلنى لأحس مع ذلك بأدنى أسف . . أنا من لم يكف الندم على أذوبة واحدة عن ايلامه طيلة خمسين عاماً ؟

اننى لم أكن أبداً عنيدا أذاء أخطائى ، وكان لى فى الوازع الخلقى خير رائد . وقد احتفظ ضميرى بنقاته الاول ، وحتى لو ان التغيير تناوله اذعاناً منه لمصالحى فكيف يتأتى له وهو محتفظ باستقامته فى الظروف التى يستطيع الانسان - وقد قهرته عواطفه - أن يعتذر على الاقل بضعفه ؟ كيف يتأتى له ان يفقد هذه الاستقامة فى ما لا اهمية له من الأمور فحسب حيث لا يكون للرديلة مبرر مطلقاً ؟ لقد وجدت انه على حل تلك المسألة تتوقف سلامة الحكم الذى كان على أن أطبقه هنا على شخصى . وهامى ذى الوسيلة التى مكنتنى من تفسيرها لنفسى بعد ان درست تلك المسألة دراسة وافية .

أذكر اننى قرأت فى كتاب للفلسفة أن الكذب هو اخفاء حقيقة يجب اظهارها ، ويترتب تماماً على هذا التعريف ان السكوت عن قول الحق الذى لا يكون المرء مضطراً للجهر به لا يعد كذباً ، ولكن من لا يقنع فى مثل تلك الحالة بسكوته عن قول الحقيقة فيذكر ما يخالفها ، أكون عندئذ كاذباً أم غير كاذب ؟ انه - طبقاً للتعريف - لا يمكن أن يقال انه كاذب ، ذلك لانه اذا أعطى عملة زائفة لشخص هو ليس مديناً له بشيء فانه يخدع ذلك الشخص - مافى ذلك من شك - ولكنه لا يسرقه . ويعرض هنا سؤالان كلاهما بالغ الاهمية يستدعيان البحث . أما السؤال الاول فهو : متى وكيف يجب قول الحقيقة للآخرين مادام ليس من الواجب قولها دائماً ؟ وأما السؤال الثانى فهو ما اذا كانت هناك حالات يمكن ان يخدع المرء فيها غيره بحسن نية .

ان هذا السؤال الثانى أمر قطع فيه - وأنا أعلم ذلك تماماً - نفيًا فى الكتب حيث لا يكلف أشد مبادئ الاخلاق تزمنا المؤلف شيئاً ، واينجابا فى المجتمع ، حيث لاتعدو مبادئ الاخلاق التى تنادى بها الكتب أن تكون ثرثرة تستحيل ممارستها ، فلأدع اذن جهات الاختصاص هذه فى تضاربها ولابحث لنفسى عن حل لهذه الاسئلة عن طريق مبادئ الشخصية .

ان الحقيقة العامة المجردة هي أغل ما يملكه المرء . فبدونها يغدو أعشى ،
انها العين المبصرة للعقل ، عن طريقها يتعلم المرء السلوك ، ويصبح
ما يجب أن يكونه ، ويعمل ما يجب عليه عمله ، وكيف يصل الى هدفه
الحقيقى . أما الحقيقة الخاصة والفردية فليست خيرا دائما ، فقد تكون في
بعض الأحيان شرا ، وهي في أغلب الأمر شيء لا هو خير ولا هو شر .
أن الامور التي تهم المرء معرفتها ، والتي تكون الدراية بها ضرورية لاسعاده،
قد لا تكون كثيرة العدد ، ولكن مهما يكن من أمر عددها فانها تعتبر ملكه
الخاص ، له الحق في المطالبة به حيثما يجده ، ولا يمكن لأحد أن يهضمه
هذا الحق دون أن يرتكب احس انواع السرقات ، اذاتها - اى تلك الامور -
من تلك الملكيات التي يشترك فيها الجميع والتي لا يحرم شيوعها البتة
واهبها هذا الحق .

أما بالنسبة للحقائق التي ليست لها منفعة من أى نوع ، لا علما
ولا عملا ، فكيف يمكن أن تعد ملكا واجبا مادامت ليست لها حتى صفة
الملك ؟ ومادامت الملكية لا تقوم الا على أساس المنفعة ، فحيث تنعدم المنفعة
لا يمكن أن تكون هناك ملكية .

ان المرء يستطيع ان يطالب بقطعة ارض ولو كانت مجذبة لانه يمكنه
على الاقل ان يقيم عليها ، ولكن ان تكون واقعة ما ، عقيمة ليست ذات بال
من كافة الاعتبارات وليس لها من اثر على أى انسان ، أن تكون صحيحة
أو زائفة فان هذا لا يهم كائنا من كان . وليس هناك فى مجال المعنويات
شيء غير ذى منفعة ويستوى فى ذلك مجال الماديات ، اذ لا يمكن أن يعد
حقا واجبا مالا ترجى فائدة من ورائه ، ولكى يصبح الشيء واجبا . . يجب
أن يكون - أو أنه يمكن أن يكون - نافعا . وهكذا تكون الحقيقة الواجبة هي
تلك التي تفيد العذالة ، وانه لتدئيس - لسمى الحقيقة المقدس - ان نطلقه
على العقيم من الامور التي لا يهم الجميع وجودها ، كما ان معرفتها غير مجدية
فى أية ناحية . والحقيقة ان تجردت من أية فائدة ، ولو كانت ممكنة
لا يجوز ان تكون اذن شيئا واجبا ، وبالتالي لا يكون من يسكت عنها او
يموها كاذبا البتة .

ولكن اهنالك من الحقائق ما هي عقيمة تماما بحيث تكون عديمة النفع
فى أى شيء ومن جميع الوجوه ؟ ان هذه مسألة اخرى تستحق المناقشة،
وساعود اليها فورا . أما الآن فلننتقل الى السؤال الثانى .

ان عدم ذكرها - مع انه حق - والجهر بالكذب امران مختلفان جد
الاختلاف ، ولكن يجوز ان ينجم عنهما مع ذلك الاثر نفسه، ذلك لان هذه

النتيجة هي بالتأكيد النتيجة نفسها كلما كان هذا الاثر معدوما . وحيثما لا يهم قول الحقيقة فان قول الخطأ الذي يقابله لا يكون مهما كذلك ، ومن ثم فانه في مثل تلك الحالة لا يعد من يخدع الناس بقول ما يناقض الحقيقة أشد ظلما من ذلك الذي يخدعهم وهو لا يجهر بها لانه في حالة الحقائق غير المجدية لا يكون الخطأ أسوأ من الجهل . وانني لو اعتقدت أن لون الرمال في قاع البحر ابيض أو أحمر ، فان ذلك لا يهمني أكثر مما يهمني الجهل بلونها الفعلي . وكيف يتأتى للمرء أن يكون ظالما وهو لا يؤذي أحدا ، ما دام الظلم لا يكون الا بالاساءة للآخرين ؟ ولكن هذه الاسئلة ، وقد قطعت فيها بهذا الاجاز ، لا تستطيع أن تزودني كذلك بما يضمن لي تطبيقها من الناحية العلمية دون أن يسبقها ايضاح كثير ضروري حتى يكون التطبيق سليما في جميع الحالات التي قد تعرض ، ذلك لانه اذا ما كان الالتزام بقول الحقيقة لا يقوم الا على اساس النفع المرجو من ورائها ، فكيف لي أن انصب من نفسي حكما على هذا النفع ؟ ان ما يجنيه المرء من مزية يكون ضارا في أغلب الامر بغيره ، فالمصلحة الخاصة غالبا ما تتعارض مع المصلحة العامة ، فكيف يسلك الانسان في هذه الحالة ؟ ايجب أن يضحى بالنفع الذي يعود على الغائب في سبيل نفع يعود على المخاطب ؟ ايجب السكوت ام الجهر بالنسبة للحقيقة التي اذ تنفيذ امرها تؤدي آخر ؟ ايجب أن نزن كل ما يوجب قوله بميزان الصالح العام فحسب ام بميزان العدالة الفردية ؟ وهل أنا مطمئن الى انني أعرف جيدا كل ما له صلة بهذا الامر حتى لا أتصرف فيما لدى من معلومات الا على اساس قواعد العدالة ؟ بل أكثر من ذلك : هل قمت بفحص كاف لما يوجب على الانسان نحو نفسه ، وما يوجب عليه ازاء الحقيقة المجردة لذاتها ، وأنا أتحرى ما يوجب عليه نحو الآخرين ؟ لئن لم أسبب لانسان آخر أي ضرر عن طريق الخديعة ، أفيتبع ذلك الا يضييبي ضرر مطلقا من وراء ذلك ؟ وهل يكفي الا أكون ظالما أبدا لاكون بريئا دائما؟

كم من مناقشات محيرة يكون من الميسور التخلص منها بقولنا لانفسنا : « فلنلزم دائما جانب الحق ، معرضين انفسنا لكل ما قد يحدث من جراء ذلك . ان العدالة نفسها كامنة في صدق الأمور ، والكذب ظلم دائما كما ان الخطأ خداع دائما ، وذلك عندما يقول المرء ما لا يتفق وأصول ما يجب عليه عمله أو الايمان به . ومهما يكن الأثر الذي يترتب على قول الحقيقة ، فالمرء يكون دائما غير مذنب اذا ما قالها لانه لم يصف اليها شيئا من عنده » .

ولكن ذلك حسم للمسألة دون حلها . اذ لم يكن المطلوب بيان ما اذا كان من التخير دائما قول الحقيقة ، وانما ما اذا كان الا انسان ملزما كذلك

بالجهر بها دائما . ثم انه ، على ضوء التعريف الذى كان محل دراستى ،
مفترضاً النفس ، وهو التمييز بين الحالات التى يتحتم قول
الحقيقة فيها ، وبين تلك التى يمكن السكوت عنها دون ان يحيق الظلم
بأحد ، وتمويهها دون ان يعد ذلك كذبا : ذلك لائنى وجدت ان مثل هذه
الحالات قائمة فعلا ، ومن ثم فالمطلوب هو البحث عن قاعدة مؤكدة تؤدي
الى معرفتها وتحديدها تحديدا دقيقا .

ولكن من أين نستخلص تلك القاعدة والدليل على سلامتها ؟ لقد
وجدت نفسى دائما فى جميع المسائل الخلقية العسيرة مثل هذه ، أكثر
استعدادا لحلها بوحى من ضميرى ، منى ، بهدى من عقلى . ولم يحدث أبدا
أن ضللتنى غريزتى الخلقية ، فقد ظلت حتى الآن محتفظة بنقائها فى قلبى
بالقدر الذى أستطيع معه أن أركن اليها ، ولئن سكنت أحيانا أمام انسياقى
لعواطفى فى سلوكى ، فإنها تستعيد سيطرتها تماما عندما أستعرض
ذكرياتى . وعندئذ أحاسب نفسى حسابا قد يبلغ فى عمره حساب القاضى
الاعظم بعد هذه الحياة .

ان الحكم على أحاديث الناس على ضوء ما يتخلف عنها من آثار هو
فى أغلب الأحيان أساءة تقدير لها ، فضلا على ان هذه الآثار ليست دائما
ملموسة ومن الميسور معرفتها ، فهى تتغير دائما مثلما تتغير الملابس التى
تلقى فيها تلك الأحاديث ومع ذلك فلا يقدر قيمتها أو يحدد مدى ما بها
من مكر أو طيبة قلب إلا قصد ملقيها وحده . فقول الخطأ لا يعد كذبا إلا
ان كان بقصد التضليل ، والقصد نفسه من التضليل ، فى بعده من ان
يكون دائما مضحوبا بقصد الاضرار ، يكون له أحيانا هدف معتاد تماما .
ولكن لكى نسب أكلوبة بالبراءة ، لا يكفي ألا يكون القصد من الاضرار
واضحا ، بل يجب علاوة على ذلك التأكد من ان الخطأ الذى يقع فيه
المخاطبون ، لا يستطيع ان يسبب لهم أو لآى كان ضرا بحال من الأحوال .
انه لمن النادر والعسير أن يصل المرء الى ذلك التأكد ، ولذا فانه من العسير
والنادر كذلك أن تكون هناك أكلوبة بريئة تماما . ان الكذب الذى
يستهدف النفع الشخصى خداع ، والكذب لنفع الغير غش ، وأما الكذب
من أجل الأيذاء فهو افك : انه أسوأ أنواع الكذب . والكذب الذى لا ينطوى
على مصلحة أو اضرار بالنفس أو بالآخرين ليس كذبا : انه ليس أكلوبة
بل هو توهم .

وتسمى القصص الخيالية ذات الموضوع الاخلاقى عبرا أو حكايات ،
ولما كان موضوعها ليس - ولا يجب أن يكون - سوى غلاف يضم حقائق
نافعة فى صور ملموسة لطيفة ، فان المرء لا يستمسك اطلاقا فى مثل هذه

الحالة باخفاء كذب الواقعة ، الذى ليس سوى دثار للحقيقة ، ومن لا يروى
حكاية خيالية الا من أجل الحكاية نفسها فليس بكاذب بحال من الاحوال .

وهناك قصص خيالية أخرى بالغة أقصى التفاهة ، مثل ذلك معظم
القصص والروايات التى لا تستهدف سوى التسلية اذ أنها تخلو من أى
تثقيف حق . وتلك التخيلات - وقد تجردت من أية فائدة خلقية - لا يستطيع
ادراك قيمتها الا اذا عرف قصد مخترعها ، وهو حين يرويها مؤكدا ايها
كأنما هى حقائق واقعة ، لا يسع المرء اطلاقا أن ينكر أنها أكاذيب حقة .
ومع ذلك فمن ذا الذى عنى كثيرا بتلك الاكاذيب ، ومن ذا الذى وجه يوما
الى قائلها لوما عنيفا ؟ لئن كان هناك ، على سبيل المثال ، مرمى خلقى فى
قصة « معبد نيد (١) Le Temple de Gnide » فان هذا المرمى قد
حجبته تماما وأفسدته التفاصيل الماجنة والصور الخلية . ماذا فعل
المؤلف ليغطفى ذلك بطلاء من التواضع ؟ لقد تظاهر بأن مؤلفه كان ترجمة
مخطوط يونانى وسرد قصة اكتشاف هذا المخطوط على خير وجه يستطيع
به اقناع قرائه بصدق روايته . فلئن لم يكن فى ذلك كذب ايجابى أكيد ،
فلتقولوا لى ما هو الكذب اذن ؟ ومع ذلك ، فمن ذا الذى فطن الى جريمة
المؤلف فى هذه الاكذوبة ، والى اعتباره من أجل ذلك مخادعا عبثا . ان الامر
لا يبدو أن يكون دعابة ، وان المؤلف - وهو ماض فى تأكيدده - لم يكن
راغبا فى اقناع أحد ، بل انه فى الواقع لم يقنع أحدا ، وان الناس لم
يشكروا لحظة واحدة فى أنه هو مؤلف الكتاب نفسه الذى زعم أنه يونانى
والذى قدم نفسه كترجم له . وسأرد على ذلك بأن تلك الدعابة التى
لا هدف من ورائها لم تكن سوى عمل صبيانى تافه . وبأن الكاذب لا يكون
أقل كذبا عندما يؤكد ما يقول ، مع كونه غير مقنع ، وبأنه يجب أن نستبعد
من الجمهور المثقف ، كثرة من القراء السذج البسطاء ، الذين اعتقدوا فى
صدق قصة المخطوط ، وقد رواها لهم مؤلف جاد ، وباهجة واثقة ،
والذين شربوا دون خشية ، من كأس عتيقة الصورة ، السم الذى لو قدم
لهم فى اثناء حديث لكان من الممكن على الاقل أن يتشككوا فيه .

وسواء وجدت تلك التفرقة فى الكتب أو لم توجد ، فانها كائنة
فى قلب كل انسان واثق من نفسه ، لا يود أن يجيز لنفسه شيئا يستطيع
ضميره أن يلومه بسببه ، ذلك لان قول الزور لمصلحة شخصية لا يقل
كذبا عن الجهر به بقصد الاضرار بالغير ، وان كانت الاكذوبة أقل جرما .

(١) معبد نيد ، او معبد فينوس Le Temple de Gnide Venus هو رواية غرامية
لمونتسكيو Montesquieu

أن منح ميزة لمن لا يستحقها اخلاصا بمجرى العدالة ، وأن ينسب شخص لنفسه أو لغيره - زورا - عملا قد ينجم عنه ثناء أو تبريح ، اتهام أو تبرئة ، لهو إجراء ظالم . وعلى ذلك ، فإن كل شيء بمخالفته للحقيقة - يخدش العدالة على أية صورة - كذب . ذلك هو الحد الدقيق ، ولكن كل ما يناقض الحقيقة ولا شأن له بالعدالة بأية حال ليس - إلا من خلق الخيال .
وانى أعترف أن أى امرئ يلوم نفسه على توهم محض ، غده كذبا ، له ضمير أشد حساسية من ضميرى .

ان ما يسميه الناس أكاذيب المجاملة هي أكاذيب حقيقية ، ذلك لان من يضلل اما لمصلحة الغير أو لمصلحة نفسه ، ليس أقل ظلما ممن يضلل ملحقا ضررا بنفسه . وان أى امرئ يمدح أو يلوم مخالفا للحقيقة يعد كاذبا اذا ما وجه ذلك الى شخص حقيقى . أما اذا كان ذلك موجها الى كائن خيالى فانه يستطيع ان يتحدث عنه بكل ما يريد دون أن يكذب ، على ألا يحكم على مغزى الوقائع التى يخلقها ، وألا يصدر عليها حكما خاطئا : إذ أنه عندئذ ، ولو لم يكن كاذبا فى الوقائع ، فانه يرتكب الكذب ضد الحقيقة الاخلاقية ، تلك الحقيقة التى يجب احترامها مائة مرة أكثر من حقيقة الوقائع .

لقد صادفت فى الحياة أشخاصا ممن يسمون بصادقين . ان كل صدقهم يستند فى المحادثات التافهة وهم يسردون فى أمانة الامكنة والأوقات والأشخاص ولا يسمحون لانفسهم بأى تخيل ، ولا ينسجون أية ملابس من الخيال ، ولا يبالغون فى شيء . وهم فى كل ما لا يمس مصلحتهم ، يلتزمون فيما يقصون الامانة المطلقة . ولكن ما أن يتطلب الامر معالجة مسألة تهمهم ، أو رواية واقعة ما تمسهم من قريب ، فانهم يستخدمون كافة الالوان ليعرضوا الاشياء على النحو الذى يكون أكثر نفعا بالنسبة لهم . واذا ما كان الكذب مفيدا لهم - وان كانوا يتجنبون قوله بأنفسهم - فهم يجعلونه فى لباقة ، ويعملون على أن يلتزمه الآخرون دون أن يتمكن أحد من نسبته اليهم . هذا ما يوجب الخرص : وداعا أيتها الصدق .

أما الانسان الذى أسميه « صادقا » فهو يفعل عكس ذلك تماما . وفى الامور التى لاتعنيه بتاتا ، فان الحقيقة - التى يحترمها الغير حينئذ احتراماً شديداً - لا تؤثر فيه الا بقدر ضئيل جدا ، كما أنه لا يعنى أبدا بتسليية جماعة من صحابه بوقائع مختلفة لا ينجم عنها أى حكم خاطئ ، لصالحه أو ضد - أى من الناس حيا كان أو ميتا . ولكن كل حديث يترتب عليه بالنسبة لأى شخص كسب أو خسارة ، تقدير أو اجتنار ، مدح أو

لوم ، يتناقض مع العدالة والحقيقة ، هو كذب لن يجد سبيله أبدا الى قلبه أو فيه أو يراعه . وهو راسخ في الصدق حتى ولو ضد مصلحته ، ولو أنه قلما يدعى ذلك في المحادثات التافهة . أنه صادق في عدم محاولته خداع أحد ، وفي أن أمانته على الحقيقة التي تتهمه ، تستوى وأمانته على الحقيقة التي تشرقه ، وفي أنه لا يضل لصالحه أو للاضرار بعسوه . فالفرق إذن بين رجل صادق وغيره هو أن رجل المجتمع يكون بعيد المغالاة في أمانته بالنسبة لكل حقيقة لا تكلفه شيئا ، ولكنه لا يتجاوز هذا المدى ، وأما رجلى أنا فهو لا يخدمها أبدا! بمثل تلك الامانة اللهم الا حين يرى من واجبه أن يضحي بنفسه في سبيلها .

ولكن قد يقال : كيف يمكن التوفيق بين هذا التساهل وهذا الحب الشديد للحقيقة الذي أمجده من أجلها ؟ واذن ، أفهذا الحب زائف ما دام يستغل كل هذه الشوائب ؟ كلا انه لطاهر وصادق ، ولكنه ليس سوى مظهر لحب العدالة؛ ولا يمكنه أبدا أن يكون زائفا ، برغم أنه غالبا ما يكون خياليا . ان العدل والحق لفظان مترادفان في ذهنه ، يحل الواحد منهما محل الآخر بدون تفرقة ، والحقيقة المقدسة التي يعيدها قلبه ، ليست وقائع لا قيمة لها ، وأسماء لا طائل وراءها ، ولكنها اعطاء كل ذي حق حقه فيما يملكه حقيقة ، وفيما ينسب اليه خيرا كان أو شرا ، وما يجزى به من تشریف أو تقرير ، من ثناء أو استهجان ، وهو ليس مخطئا لا في حق الغير لان عدالته تمنعه من ذلك ولأنه لا يريد الاضرار بأحد ظلما ، ولا في حق نفسه لان ضميره يذوده عن ذلك ، ولأنه لا يمكن أن ينتحل لنفسه ما لا يملكه . ولكنه يفار بصفة خاصة على احترام ذاته ، فهي ملك له وآخر ما يسعه التخلي عنه . وهو قد يشعر بخسارة حقة ان هو نال احترام الآخرين على حساب احترامه لذاته . واذن فإنه سيكذب أحيانا فيما لا أهمية له بدون تخرج ودون أن يعتقد أنه يكذب، ولكن هذا لا يحدث أبدا لاحاق خسارة أو كسب للغير أو لنفسه . أما في كل ما يتعلق بالحقائق التاريخية وكل ما يمت بصلة بسلوك الناس وبالعدالة وبواجب المعاشرة وبالايضاحات المفيدة ، فإنه يجنب نفسه كما يجنب الآخرين الخطأ ، ما دام ذلك متوقفا عليه . وكل كذب فيما عدا ذلك ليس كذبا في نظره . وإذا كان « معبد نيد » Le Temple de Gnide مؤلفا ناعما فان قصة المخطوط اليوناني ليست سوى تخيل بالغ البراعة ، ولكنها كذبة تستحق العقاب الشديد اذا كان الكتاب خطرا .

تلك كانت شريعة ضميري فيما يتصل بالكذب والصدق . ولقد كان قلبي يتبع هذه الشريعة آليا قبل أن يعتنقها عقلي . ولكن الوازع الخلقى

هو الذى قام وحده بتطبيقها . ان الكذبة الاجرامية التى كانت «ماريون» Marion (١) التعسة ضحية لها ، خلفت لى ندما لا يمضى ، وقانى فيما بقى لى من حياتى ، لا أية أذوية من هذا القبيل فحسب ، بل كافة الاكاذيب التى على تنوع صورها ، كانت تستطيع أن تمس صالح وسمعة الغير . ولما جاء الاقناع شاملا على هذا النحو فقد أحللت نفسى من موازنة النفع والضرر موازنة دقيقة ، ومن تعيين الحدود الفاصلة بين الكذب الضار وكذب المجاملة، ولما كنت أعد كليهما اثما ، فاننى حرمتها معا على نفسى .

وسواء فى تلك المسألة أو فيما عداها ، كان لمزاجى تأثير كبير على مبادئى ، أو بالاحرى على عاداتى ، ذلك لاننى لم أتصرف بتاتا متبعا قاعدة ما أو التزمت بواعد أخرى فى أى شىء سوى دوافع طبيعتى . ولم يحدث مطلقا أن مرت بخاطرى أذوية مدبرة ، كما لم يحدث مطلقا أن كذبت سعيا وراء مصلحة شخصية ، ولكننى كذبت كثيرا بسبب الخجل ، أو لانتخلص من الحرج فى أمور لا أهمية لها ، أو لم تكن تهم على الاكثر سوى وذلك حين يكون على أن أوصل حديثا ، فيضطررنى ببطء تفكيرى ونضوب حديثى للالتجاء الى التخيل حتى أجد ما أقوله . وحين يكون الكلام ضروريا ولا تعرض لذهنى سريعا حقائق تبعث على التسلية فاننى أقوم برواية حكايات خيالية حتى لا اظل ابكم ، ولكننى أعنى ، عند اختراع هذه الحكايات بقدر ما يسعنى ذلك - ألا تكون أكاذيب بمعنى أنها لا تخدش العدالة ولا الحقيقة الواجبة ، وألا تكون سوى تخيلات لا قيمة لها بالنسبة للناس جميعا ولى . ولقد كان بوردى لو أننى استبدلت فيها على الأقل حقيقة الوقائع بحقيقة أخلاقية، أى بأن أصور فيها تصويرا صادقا الاحاسيس الطبيعية للقلب الانسانى ، وأن أستخلص منها دائما درسا نافعا ، وقصارى القول أن أصنع منها قصصا أخلاقية ، وعبرا ، ولكن كان من اللازم لذلك قسط من حضور البديهة أوفر مما أملك ، ومزيد من طلاقة اللسان حتى أستطيع أن أحقق فائدة التعليم من لغو المحادثة ، ذلك لان سيرها فى سرعة تفوق سرعة أفكارى ، وهو يضطررنى دائما الى النطق قبل التفكير غالبا ما أوحى الى بسخافات وتفاهات لم يكن عقلى ليرضى عنها ، وكان قابى ينكرها فى حين أنها تفلت من شفتى ، ولكنها اذ تسبق حكمى الشخصى فانه لا يعود من الممكن اصلاحها بمراقبتها . وانه ليحدث كذلك بسبب هذا الدافع الأول العنيف لمزاجى ، فى لحظات خاطفة غير متوقعة ، أن ينتزع منى الخجل والحياء غالبا أكاذيب لا دخل لارادتى فيها ، ولكنها

(١) ماريون Marion هي الخادم التى أشرنا اليها فى عاشر ص ١٢٨ واتهما روسو ظلما بالسرقة .

تسبقها مدفوعة بضرورة الاجابة على التو . ان الانطباعة العميقة التي خلفتها ذكرى « ماريون » المسكينة يمكنها أن تمنع دائما الاكاذيب التي تضر بالغير ، ولكن لا يقوى على منع تلك التي يمكنها مساعدتي على التخلص من الحرج حين يكون الأمر متعلقا بي وحدي ، وهي لا تقل معارضة لضميري ومبادئ من تلك الاكاذيب التي تصنع التأثير في مصير الآخرين . واني لأشهد السماء على أنه اذا كان في استطاعتي في اللحظة التالية للأكذوبة التي تبرئني منها وقول الحق الذي يدينني دون أن اسبب لنفسي مهانة جديدة بتراجعي لفعلت ذلك من كل قلبي . ولكن الحجل من اظهار نفسي على هذا النحو مخطئا يجعلني أحجم كذلك ، واني لأندم مخلصا جدا على خطئي دون أن أجرؤ مع ذلك على اصلاحه . ولعل مثلا يفسر خيرا من ذلك ما أريد قوله ، ويبين أنني لا أكذب سعيا وراء المصلحة ولا عن كبرياء بل وأدنى من ذلك عن حسد أو خبث ، ولكن عن حرج وخجل مزر فحسب ، بل وأنا أعلم تمام العلم في بعض الأحيان أن هذا الكذب مفضوح ولا يمكن أن يجدي بالمرّة : حدث منذ حين أن دعاني السيد ف . . . (١) - بخلاف ما جرت عليه عادتي - على الخروج مع زوجتي وتناول الطعام اثناء النزهة معه ومع السيد ب . . . عند السيدة . . . وهي صاحبة مطعم ، تناولت هي وابنتاها الطعام معنا . واثناء تناول الطعام خطر للكبرى ، وهي متزوجة من وقت قصير وكانت حاملا ، ان تسألني فجأة وهي تحديق في ان كنت قد رزقت بأولاد . فأجبتها وقد احمر وجهي حتى الخفقين أنني لم أتل هذا الحظ ، فابتسمت في خبث وهي تتطلع الى الجماعة ، ولم يكن كل ذلك خافيا ، حتى على .

ومن الجلي قبل كل شيء أن هذه الاجابة لم تكن أبدا ما كنت أود أن تكون ولو فيما اذا كانت لدى النية عندئذ في التضليل ، ذلك لأنني تبعا للاستعداد الذي شهدته في المدعوين ، كنت واثقا تمام الثقة من أن اجابتي لم تغير شيئا من رأيهم في هذا الامر . لقد كانوا يتوقعون هذا النفي ، بل انهم اثاروه ليستمتعوا بلذة دفعي الى الكذب . ولم أكن من الغفلة بحيث لا أدرك ذلك . وبعد دقيقتين ، لاحظت لي من تلقائها الاجابة التي كان علي أن اجيب بها وهي « هذا سؤال تعوزه الحصافة من سيدة شابة ، لرجل تقدمت به السن وهو اعزب » . وكنت بتحدثي على هذا النحو ، بغير كذب ودون أن يكون هناك ما يدعوني الى الحجل بسبب أي اعتراف ، كنت مستطعا أن أضم الضاحكتين الي صفي ، وألقنها درسا صغيرا كان من شأنه طبعاً أن يقلل من وقاحتها في سؤالي . ولكنني لم أفعل شيئا من

(١) هو السيد فولكييه Foulquier طبعا لا جاء بطبعة Bernard Groethuysen

هذا كله ، ولم أقل أبدا ما كان يجب قوله ، بل قلت ما لم يكن ضروريا ولم يعد علي بالنفع في شيء . ومن المؤكد ، اذن انه لا عقلي ولا ارادتي امليا على اجابتي ، بل انها كانت النتيجة الالية للخرج الذي كنت فيه . لم يعثورني هذا الجرح قط من قبل بل كنت اعترف باخطائي بصراحة أكثر مما كان في ذلك لأنني لم أكن أشك في أن الناس لا يرون ما يكفر عنها وما كنت أستشعره في قرارة نفسي ، ولكن نظرة الخبث تشقيني وتبخرني . لقد ازداد حياثي بازدياد شقوتي ، ولم يحدث أن كذبت الا حياء .

لم يحدث أبدا ان احسست بنفوري الطبيعي من الكذب اشد مما احسست به عند كتابة « اعترافاتي » ، ذلك لان الاغراء فيها كان من الممكن ان يتكرر ويشتد مهما أبعدتني ميولي عن هذه الناحية ، ولكن بدلا من ان أكتم شيئا أو أخفي شيئا مما قد يدينني ، كنت أحس وأنا أفكر بطريقة يشق علي شرحها - لعلها بسبب البعد عن كل محاكاة - كنت أحس أن ميلي للكذب عكس الاتجاه المعتاد ، باتهام نفسي في مزيد من القسوة اشد منه بتبرئتها في مزيد من التسامح ويؤكد لي ضميري أن محاكمتي في يوم من الأيام ستكون أقل قسوة مما حكمت به علي نفسي . أجل ، انني أقول ذلك وأحسه بآباء وعزة نفس ، ولقد حملت هذا المكتوب حسن نية وصدقا وصراحة بلغت فيها - في اعتقادي علي الاقل - ما بلغه ، بل أبعد مما بلغه ، أي انسان آخر علي الاطلاق (١) ، ولا حساسي بأن الخير يفوق الشر ، وجسدت من مصلحتي أن أقول كل شيء ، وقد قلته .

لم يحدث أبدا أن قلت أقل مما يجب ، بل انني قلت أحيانا أكثر مما يجب ، لاني في الوقائع بل في الملابس ، وهذا النوع من الكذب كان نتيجة تخبط الخيال أكثر منه فعلا اراديا ، بل انني لأحيد عن جادة الصواب أن أسميته كذبا ، ذلك لا لأن واحدة من هذه الاضافات لم تكن كذبا . لقد كنت أكتب اعترافاتي بعد أن تقدمت بي البسن (٢) ، وبعد أن

(١) قال روسو في مستهل « الاعترافات » : « لقد صورت نفسي على حقيقتها : في سعتها وزرايتها . وفي صلاحها وحصافة عقلها ، وبسوها تبعا للبحال التي كنت فيها . . . لقد كشفت عن أعماق أغوار نفسي ، كما كنت أنت تراها ، ايها الخالد الحشد الذي لا حصر له من أبناء جنسي ، ودعمهم يصغون الي اعترافاتي ، فيرون لخستي ، ويخجلون لمثالي . ثم ادع كلامي ان يكشف بدوره - تبين الصراحة - اسرار قواده ، عند قوائم عرشك ، وليقل ان جرؤ : « لقد كنت خيرا من ذلك الرجل » .

(٢) بدأ روسو كتابة « الاعترافات » Les Confessions عام ١٧٦٥ اي كان يبلغ اذ ذاك الثالثة والخمسين .

اشمأزيت نفسي من المتع الياطلة في الحياة تلك المتع التي كنت مررت بها جميعا من قبل ، والتي أحس قلبي تماما بتفاهتها . كنت أكتبها من الذاكرة ، وكثيرا ما كانت تلك الذاكرة تخونني أو لا تمدني إلا بذكريات ناقصة ، فكنت أسد الثغرات بتفاصيل كنت أتخيلها بالإضافة الى تلك الذكريات ، وان لم تكن متعارضة معها أبدا . كنت أحب أن أتوسع في تناول اللحظات السعيدة في حياتي ، وكنت أجملها أحيانا بمجملات كان يزودني بها أسفى عليها . كنت أردد ما أكون قد نسيتته كما كان يبدو لي أنها لا بد كانت كذلك في رأيي ، أو كما لو كان من الجائز أن يحدث في الواقع ، ولكن ليس بعكس ما كنت أتذكرها عليه أبدا . وكنت أسبغ أحيانا على الحقيقة مفاتن غريبة عليها ، ولكن لم يحدث مطلقا أن أحللت الكذب مكانها لأموه على رذائل أو لانتحل لنفسي فضائل .

وإذا ما حدث في بعض الأحيان أن أخفيت — دون أن أفكر في الأمر بدافع غير ارادي — الناحية الشوهاء ، مصورا نفسي تصويرا جانبيا ، فإن هذا الكتمان كان يستعاض عنه تماما بكتمان آخر أشد غرابة كثيرا ما جعلني أحرص على الإمساك عن ذكر الخير في عناية أشد من حرصى على كتمان الشر ، وهذه غرابة في طبعى لا بد أن يغتفر للناس عدم تصديقها ، ولو أنها — على بعدها عن التصديق إلا أنني أتصورها — انني كثيرا ما قلت الشر بكل حقارته ، ونادرا ما قلت الخير بكل ما فيه من جمال ، وكثيرا ما كتمته تماما لأنه كان يسبغ على شرفا زائدا ، ولأننى — إذ كنت أسجل اعترافاتي — كنت خليقا أن أبدو كمادح نفسه . لقد وصفت أيام شبابي دون أن أزهي بالحصال الحميدة التي وهب اياها قلبي، بل وبحدف الوقائع التي كانت تجعلها واضحة تماما . واني لأذكر منها الآن واقعتين حدثتا في طفولتي الباكرة مرتين بذاكرتي وأنا أكتب ولكنني أغضيت عنهما للسبب الوحيد الذي ذكرته الآن .

كنت اقضى طيلة نهار أيام الاحاد تقريبا في « باكى » Paquis لدى السيد فازى Fazy الذي كان متزوجا من اخدى عماتي ، والذي كان يمتلك هناك مصنعا للشيت الهندي . وفي يوم كنت بالمنشر في حجرة الجندرة أتطلع الى اسطوانات من حديد الزهر وكان بريقها يمتع ناظري وقد زين لي أن أضغ عليها أصابعى وأخذت أمرها في استمتاع على صفحتها المصقولة ، حين جاء « فازى » الصغير وأدخل نفسه في العجلة وأدارها ثمن دورة بإحكام حتى لم يأخذ الا طرفي أطول أصابع يدي، ولكن كان هذا كافيا لأن يسحق الطرفين مع بقاء الظفرين فيها، وصرخت صرخة حادة فأرجع « فازى » العجلة للثو ولكن الأظافر بقيت بالاسطوانة،

وانسال الدم منهمرا من أصابعى ، واخذ « فاذى » فى ذهول يصرخ « اخرج من العجلة » واخذ يقبلنى ، ويقسم لى أنه سيهدىء من صراخى مضيئا أنه يحس نفسه مضيقا . ومع احساسى بالألم الشديد ، فان ألمه أثر فى ، فسكت ، وذهبت الى المقسل حيث ساعدنى على غسل أصابعى ، وتجفيف دمي برغوة الصابون . ثم توصلت الى الدموع فى عينيه ألا أشير الى اتهامه بما حدث ، فوعده بذلك ، وبررت بوعدى حتى أنه بعد أكثر من عشرين عاما لم يكن هناك من يدري شيئا عن ذلك الحادث الذى خلف ندبتين فى أصبعى ذلك لانهما ظلا دائما كذلك . ولقد ظلت رهين سريرى أكثر من ثلاثة أسابيع ، وقضيت أكثر من شهرين فى حالة لا تمكننى من استخدام يدى مرردا دائما أن كتلة ضخمة من الحجر سحققت أصابعى حين سقطت عليها .

(1) Magnanima menzogna : or quando è il vero
Si bello, che si possa a te preporre ?

أيتها الأكذوبة الشامخة ، متى أمكن الحقيقة

مهما بلغت من جمال ، أن تفوقك ؟

ومع ذلك فقد جعلنى هذا الحادث شديد الحساسية للظرف الذى حدثت فيه ، لأنه جاء فى وقت التمرينات التى كانوا يقومون خلالها بتشغيل الأهلىن ، وكنا قد كونا صفا من ثلاثة أطفال آخرين من سنى ، كان على - وأنا مرتد الزى الرسمى - أن أبشر التمرين مع الجماعة فى الحى الذى اقطنه . وقد سمعت وأنا أتالم صوت طبول الجماعة وهى تمر تحت نافذتى ومن بينهم زملائى الثلاثة فى حين أنا طريح الفراش .

وأما قصتى الأخرى . فشيبة تماما بهذه القصة وان دارت وقائعها فى سن متقدمة نسبيا . كنت العب لعبة الصوالج فى بلان باليه Plain - Palais مع واحد من رفاقى يدعى « بلانس » Plince وتشاجرنا أثناء اللعب وتضاربنا فوجه الى رأسى العارية خلال المعركة ضربة

Magnanima menzogna ; Or quando è il vero

Si bello, che si possa a te preporre ;

(1)

وقد ترجمها من الإيطالية الى الفرنسية Auguste Desplaces

Magnanime mensonge, quand la vérité est-elle

Si belle qu'elle puisse te surpasser ;

فكانت :

وبالعربية : أيتها الأكذوبة العظيمة ، متى كانت الحقيقة من الجمال

بحيث يمكنها أن تفوقك ؟

بالصولج بلغت في احكامها أنها لو سددت من يد اشد قوة لكانت كفيلة ان تهشم راسي . ولقد سقطت على الفور ، ولم أر في حياتي اضطرابا كاضطراب ذلك القتي المسكين . شهد الدم يسيل بغزارة من شعري فخيّل اليه أنه قتلني فاندفع نحوي يقباني ويضممني اليه بقوة وهو يسكب دموعه ويصرخ صراخا حادا ، فاخذت أقبله كذلك بكل قوتي وأنا أبكي مثله في عاطفة مضطربة لم تخل من بعض حنان ، وفي نهاية الأمر اخذ يجفف دمي الذي ظل يسيل ، ولما رأى أن منسدليننا لم يعودا كافيين ، اخذني الى أمه التي كانت لها حديقة صغيرة على مقربة ، وكاد يغمى علي هذه السيدة الطيبة حين رأته على هذه الحال ، ولكنها استطاعت أن تماسك لتضمدني وبعد أن غسلت جرحي جيدا وضعت عليه زهور الزنبق Lxs المنقوعة في الكحول وهو دواء شاف للجروح يكثر استعماله في بلادنا . ولقد نفذت دموعها ودموع ابنتها الى قلبي ، وحتى ظلمت أنظر اليها وقتا طويلا كام لي ، وظلمت اعتبر ابنتها أخا لي ، حتى توارى الاثنان عن ناظري فنسيتهما شيئا فشيئا .

ولقد احتفظت بسر ذلك الحادث احتفاظي بسر الحادث الآخر ، ثم مر بي في حياتي مائة حادث آخر من النوع نفسه لم أحاول التحدث عنها في « اعترافاتي » ، ما دمت لم أكن أسعى فيها وراء وسيلة تجعل الناس يقدرّون الناحية الخيرة التي كنت استشعرها في خلقي . كلا ، انني حين تحدثت مخالفا الحق الذي كنت أعرفه ، لم يكن ذلك الا في أمور تافهة ، بل ان ذلك كان اما عن تخرج عن الكلام ، أو لمجرد الرغبة في الكتابة أكثر منه بسبب أي دافع لمصلحة خاصة أو بسبب نفع أو ضرر الغير . وان أي شخص سيقرا اعترافاتي دون تحيز - لو قدر حدوث ذلك - سيحس أن الاعترافات التي سجلتها هناك أكثر اذلالا وأشق عند الادلاء بها ، من اعترافات باثم أشد وان كان أقل مجلبة للخزي ، والتي لم أذكرها لأنني لم أفعلها .

ويستخلص من كل هذه الخواطر أن اشهار الحقيقة الذي التزمته يستند الى أساس من مشاعر الاستقامة والعدالة أكثر من استناده الى حقيقة الامور ، وانني اتبعت من الناحية العملية التوجيهات الاخلاقية لضميري أكثر من اتباعي الآراء المجردة عن الصواب والخطأ . وكثيرا ما قصصت حكايات ، ولكنني نادرا جدا ما كذبت . وياتباعي هذه المبادئ يسهل للأخزين الكثير من المآخذ علي ، ولكنني لم أخطئ في حق أحد مهما يكن ولم أنسب لنفسي البتة أكثر مما استحق . ويبدو لي أن أقول

الحقيقة هنا فقط بعد فضيلة ، واما في النواحي الاخرى فانها ليست بالنسبة لنا سوى كائن ميتافيزيقي لا ينجم عنه خير او شر .

ومع ذلك فان قلبي لا يكاد يحس بالرضى لهذه التفرقة حتى يجعلني اعتقد اننى غير ملوم تماما ، وحين اذن بهذه العناية ما ادين به للآخرين اقترائى درست دراسة كافية واجبى ازاء نفسى ؟ لئن كان من الواجب على المرء ان يكون عادلا بالنسبة للغير فان من الواجب عليه ان يكون صادقا بالنسبة لنفسه . ان ذلك لولاء على الرجل الشريف ان يؤديه لكرامته . وحين كان يكرهنى جذب حديثى على ان استكمله بتخيلات بريئة كنت مخطئا ، ذلك لانه لا يجب ابدا - رغبة فى تسلية الغير - ان يبغض الانسان نفسه . وعندما كنت اضيف الى امور واقعة حواشى من اختراعى - مسوقا الى ذلك بالرغبة فى الكتابة - كنت ارتكب خطأ أكثر كذلك لان تزوين الحقيقة بالخرافات هو فى الواقع تشويه لها .

ولكن مايجعل ذنبى لا يفتقر هو ذلك الشعار الذى كنت قد اتخذته كان هذا الشعار يضطرنى أكثر من أى انسان آخر الى التزام الدقة فى اشهار الحقيقة ولم يكن يكفى ان اضحى من أجله فى كل شىء بمصلحتى وميولى ، بل كان يجب كذلك ان اضحى من أجله بضعفى وبطبيعتى الحينة . كان لا بد من الشجاعة والقدرة لآكون صادقا دائما وفى كل مناسبة ، وألا تخرج البيئة تخيلات أو خرافات من فم ومن قلم كرمسا للحق قبل كل شىء . ذلك ما كان يجب على ان أقوله لنفسى حين اتخذت هذا الشعار الرفيع ، وأن أردده باستمرار ما دمت قادرا على الأخذ به . لم يحدث قط أن أملى التخاذل أكاذيبى بل انها نجمت جميعها عن ضعف ، ولكن ليس هذا عذرا لى بالمرء يستطيع المرء ذو النفس الضعيفة أن يجتنب الرذيلة على أكثر تقدير ، ولكنه يكون متجبرا ومتهورا ان هو جزؤ على ان ينادى بفضائل كثيرة .

تلك خواطر كان من المحتمل ألا تعرض لذهنى لو لم يوح بهى الى الراهب « ر . . . » وليس من شك أن الانتفاع بها بات متأجرا ، ولكن الوقت لم يمت على الاخر لتقويم خطئى واخضاع ارادتى للمبدأ ، ذلك لان هذا هو كل ما يتوقف على منذ اليوم واذا فانه فى هذا وفى كل ما يشابهه من امور يمكن تطبيق مبدأ « بنولون » بالنسبة لكل الأعمار فالقرصبة قائمة دائما كى يتعلم المرء - حتى من أعدائه - كيف يكون عادلا ، صادقا ، متواظعا ، وأن يعرف على الأقل قدر نفسه .

الرحلة الخامسة

من بين الديار التي أقيمت فيها جميعا (١٦) ، وكانت لي من بينها ديار بديعة ، لم تسعدني حقا ولم تخلف لي كل ذلك الأسى سوى جزيرة سان بيير Saint-Pierre القائمة وسط بحيرة بين (٢) Bienne وهذه الجزيرة الصغيرة التي يطلقون عليها في نيوشاتل Neuchâtel جزيرة لاموت La Motte ليست معروفة حتى في سويسرا ، الا قليلا ، ولا يورد لها ذكرا واحد من الرحالة ، على ما أعلم . ومع ذلك فهي لطيفة جدا ، وتفردت بموقع كفيل باسعاد من يهوى الانطواء على نفسه الا انه برغم أنني ربما كنت الوحيد في العالم من جعل قدره من نفسه زى من القدر (قانونا له فأننى لا أستطيع أن أصدق أنني للوحيد من ذلك النوع الطبيعي ، برغم أنني لم أجده حتى الآن لدى أى شخص آخر .

وشطآن بحيرة « بين » أكثر ميلا للفطرة والشاعرية من شواطئ « بحيرة جنيف » ذلك لان الصخور والغابات هناك أكثر قربا في مجاورتها للماء ولكنها ليست أقل بهجة . ولئن كان ما بها من زرع الحقول وكروم ومدن ومساكن أقل ، فانها تفوقها من ناحية الخضرة الطبيعية والمراعى ، وكنيف الايك نظللها الخبائل ، والتباين الغالب بها والتنوعات المتقاربة . ولما لم يكن هناك على تلك الضفاف الباسمة من طرق كبيرة معبدة للعربات فان الاقليم لم يكن يؤمه المسبافرون كثيرا ، وان كان يروق للمتأملين

(١) من الديار البديعة التي خلفت الذكرى الطيبة في نفس روسو اقامته وهو طفل في قرية بوسى Bossey بالريف عند القنى لبرسييه Lamercier وفي الشاربيت Les Charmettes عند مدام دونواران وفي ارميتاج Ermitage في ضيافة مدام دايناي Mme d'Epinaى ، ويلاحظان تلك الديار نجما كانت تحيط بها المناظر الطبيعية التي اجيها روسو دون سواها .

(٢) استقر روسو في جزيرة سان بيير في النصف الثاني من سبتمبر ١٧٦٥ وعاش هناك حتى ١٥ من اكتوبر من العام نفسه (الاعترافات الجزء الثاني عشر) ، حين امر بمغادرة مكانه بناء على امر مجلس شيوخ « برن Berno »

المنعزلين الذين يرغبون في أن ينتشروا كما يشاءون بمفاتيح الطبيعة ، وأن ينظروا على أنفسهم في سكون لا يتخلله أى صوت سوى صرخات العقبان وشقشقة متقطعة لبعض الطيور ، وهدير السيول التي تنحدر من الجبل . ويضم هذا الحوض الجميل ذو الشكل الدائري تقريبا جزيرتين صغيرتين في وسطه ، احدهما مأهولة ومزرعة محيطها نصف فرسخ تقريبا ، والأخرى تصغرها ، وهى قفراء قاحلة وسيقى عليها فى نهاية الأمر بسبب ماينقل من أرضها تباعا لاصلاح ماتفسده الأمواج والعواصف البحرية فى الجزيرة الكبرى . وهكذا تستغل دائما مقومات حياة الضعيف لمصلحة القوى .

ليس فى الجزيرة سوى منزل واحد ، ولكنه كبير ، ولطيف ، ومريح ، وهو ملك لمستشفى برن Berne كالجزيرة كذلك ، ويقيم فيه محصل مع أسرته وخدمه ، ويتولى هناك تربية عدد كبير من الدواجن ، كما أن هناك حظيرة للدواجن وأحواض للسماك ، والجزيرة على صغرها ، بلغت من التنوع فى أراضيها ومشاهدها ما جعلها تعرض للرائى كل أنواع المواقع وتحتمل كل ألوان المزروعات : فيها حقول وكروم وغابات وبساتين ومراع كثيفة تظللها الاعراش وتحفها الشجيرات من كل نوع ، ويكفل نضارتها مجاورتها للماء ، ويحف بطول الجزيرة شريط مرتفع من الأرض زرع به صفان من الاشجار ، وشيد فى وسطه بهو جميل يجتمع سكان الشواطئ المجاورة فيه حيث يأتون أيام الأحاد فى موسم قطاف الكروم .

كانت هذه الجزيرة هى المكان الذى لجأت إليه بعد رجم موتيه Motiers (١) وقد وجدت الإقامة فيها رائعة وعشت هناك حياة تتفق ومزاجى ، حتى أننى وقد عزمتم على أن تنتهى حياتى بها ، لم يساورنى أى قلق اللهم الا احتمال عدم تمكينى من تنفيذ هذا المشروع الذى لم يكن ليتفق ومشروع اجتذابى الى انجلترا ، الذى كنت قد بدأت أحس بوادره . وفيما كان يعتورنى من أحاسيس تقلقنى ، وددت لو أنه جعل من ذلك المأوى سجنا أبديا لى ووددت لو أننى احتبست فيه طيلة حياتى ولو أنه بسلبى كل قدرة وكل أمل فى الفكاك منه حرمت على كل أنواع الاتصال بالأرض حتى اننى - يجهل كل ما يجرى فى العالم - كنت أستطيع أن أنسى وجوده كما يستطيعون من به ان ينسوا وجودى كذلك .

(١) اعتبر اهل « موتيه Motiers » روسو خارجا على الديانة لما جاء في « اقرار ايمان كاهن من سقوا Profession de foi du Ciccire Savoyard » فرجموا منزله بالحجارة . ويقول بعض الكتاب ان ذلك كان بتحريض من تيرين Thérèse لأنها لم تكن تريد الإقامة هناك .

انهم لم يدعوني قط اقضى مسوى شهرين فى تلك الجزيرة ، وكنت خليقا ان اقضى بها عامين بل قرنين ، بل ولى الأبد ، دون ان ينال منى السام لحظة واحدة ، يرشم انه لم يكن لى فيها مع صاحبتى من رفقة اخرى سوى رفقة المحصل وزوجه وخدمه ، الذين لم يكونوا جميعا - فى الحقيقة - سوى قوم طبيين . ولكن كان هذا بالضبط ما انا بحاجة اليه . اننى اعد هذين الشهرين أسعد وقت مربي فى حياتى ، بل بلغت فيه درجة من السعادة كانت تكفينى طوال عمرى دون أن تولد فى نفسى ولو للحظة واحدة الرغبة فى حال اخرى .

أنى كانت اذن هذه السعادة ؟ وفيم كانت تمتعتها ؟ سادع من يعيشون فى هذا القرن يخمنون وصف الحياة التى كنت أحيها هناك . كان الفراغ الناعم far niente أول وأهم هذه المتع التى وددت التلذذ بتذوقها بكل ما فيها من حلاوة فلم يكن فى الواقع كل ما فعلته طيلة اقامتى سوى ذلك الانهماك اللذيذ الذى يلزم رجلا كرس نفسه للبطالة .

كان الأمل فى ألا يطلب أكثر من أن أترك فى هذا المقام المنعزل حيث قيدت نفسى بنفسى ، والذى كان من المستحيل الخروج منه دون عون وبغير أن ينتبه الى ، وحيث لم أكن أستطيع أن يكون لى اتصال أو مراسلة الا بمساعدة من كانوا يحيطون بى أقول ان هذا الأمل كان يبعث فى أملا آخر هو قضاء أيامى فى هدوء أكثر من ذى قبل . وكانت فكرة أنه كان أمامى متسع من الوقت لتدبير كل أمورى عندما يطيب لى ذلك ، قد جعلتنى لا أبدا فى القيام بعمل أى ترتيب . ولما كنت قد نقلت الى هناك فجأة ، وحيدا ومجردا ، فقد أحضرت تباعا مدبرة بيتى وكتبى وأمتعتى القليلة التى وجدت لذة فى عدم فتحها تاركا حقائبى وصناديقى ، على حالها حين وصولها ، ومقيما بالمسكن الذى عولت على قضاء آخر أيامى به كما لو كنت أعيش فى فندق يتعين على مغادرته فى الغد . وظلت الأشياء جميعا وهى على ما هى عليه ، فى حالة طيبة حتى أن الرغبة فى ترتيبها خيرا من ذلك كانت بمثابة افساد جانب منها . وكان من أكبر المتع لى أن أدع كتبى دائما محفوظة فى الصناديق والا تكون لى محبرة على الاطلاق . وحين كانت تضطرنى خطابات منكودة الى تناول القلم للرد عليها كنت أستعير - وأنا ضجر - محبرة المحصل وكنت أسارع بردها اليه بأمل بعقيم فى ألا تدفعنى الحاجة الى استعارتها فيما بعد . وقد شغلت حجرتى بدلا من تلك الاوراق الكثيبة وكل هذه الكتب القديمة بالزهور والنباتات ذلك لأننى كنت اذ ذاك فى بداية شغفى بدراسة النبات التى

بت الميل اليهنا في نفس الدكتور ديبرنوا D'Ivernois (١) حتى غدا هذا الميل شغفا . ولما كنت لا أرغب في القيام بعمل جاد فانه كان يلزمني عمل مسلي، يروقني ولا يسبب لي جهدا أكثر مما يرتضيه كسول لنفسه . وشرعت في تصنيف أزهار الجزيرة الصخرية *Flora petrinsularis* (٢) وفي وصف كل نباتات الجزيرة دون اغفال واحد منها وذلك بتفصيل يكفي ليشغلني بقية أيام حياتي . ويقال ان ألمانيا ألقت كتابا عن قشرة ليمونة ، وكان في استطاعتي تأليف واحد عن كل بقل من بقول المراعي وعن كل طحلب من طحالب الغابات وعن كل حزاز يمكن أن يوشى الصخور ، وقصارى القول اننى لم أكن أريد أن أتترك خيطا من العشب أو ذرة من النبات دون أن أتناولها بالوصف الشامل ، وتمشيامع هذا المشروع البديع كنت أذهب كل صباح ، بعد الافطار الذى كنا نتناوله مجتمعين ، كنت أذهب ويدي عدسة وأنا متأبط كتابي «نظام التقسيم الطبيعى للنباتات» *Systema naturae* (٣) كى أزور ناحية من الجزيرة التى كنت قد قسمتها لهذا الغرض الى مربعات صغيرة مستهدفا التجول فيها الواحد بعد الآخر فى كل فصل . وليس هناك أغرب من تلك المغائن والنشوات التى كنت أستشعرها عند كل ملاحظة أقوم بها فيما يتصل بالتركيب والتنظيم النباتى وفيما يتصل بدور الاعضاء الجنسية فى التلقيح الذى كان نظامه اذ ذاك جديدا تماما بالنسبة الى ، وكانت التفرقة بين المميزات النوعية التى لم يكن لدى من قبل أدنى فكرة عنها تستحوذ على مشاعري عند تطبيقها على الانواع الشائعة وأنا أتوقع بأن تعرض لى انواع اكثر ندرة .

وكان الشق الموجود فى نصلى *Brunelle* القلاع البرى الطويلين وبروز نصال *Ortie* اللسيح (القريص . ابرة العجوز) وحشيشة الزجاج *Pariétaire* (حشيشة الرمل) وتفتح ثمرة البهاء البلسمينة (النعناع الرومى) *Balsamine* وجوزة البقس والى حيلة للتلقيح كنت ألحظها لأول مرة فتفعمنى سرورا . وكنت اذهب لاتساءل ان كان الناس قد شهدوا القلاع البرى *Brunelle* كما كان يسألهم «لافونتين»

(١) ديبرنوا D'Ivernois جان انتوان (١٧٠٢ - ١٧٦٥) هو طبيب كان اول من

تلقى روسو على يديه الميل الى دراسة النبات .

(٢) عمل روسو تصنيفا للازهار التى تثبت فوق الصخور فى الجزيرة .

(٣) كتاب نظام التقسيم الطبيعى للنباتات *Systema naturae* هو من تأليف عالم

النبات السويدى لينييه *Linné* (١٧٠٧ - ١٧٧٨) نشر الكتاب عام ١٧٢٥ ،

وكان روسو معجبا به .

La Fontaine ان كانوا قد قرءوا « حبقوق » (١) Habacuc وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أعود من هناك محملا بمحصول وفير هو زادى من التسلية بعد الغداء بالمنزل فيما لو أمطرت السماء . وكنت أقضى بقية فترة الصباح فى الذهاب مع المحصل وزوجه ومعنا تيريز ، لزيارة عمالهما ومحصولاتهما وكثيرا ما كنت اسهم فى العمل معهم بل وكثيرا ما وجدنى بعض أهالى « برن » الذين كانوا يأتون لرؤيتى معتليا أشجارا كبيرة وقد شد الى وسطى كيس كنت أملؤه بالفاكهة ثم أدليه الى الأرض بعد ذلك بواسطة حبل . وكان العمل الذى أقوم به فى الصباح ، والانشراح الذى يصحبه ، يجعلان الاستراحة عقب الغداء ممتعة جدا . ولكن حين كان الأمر يطول كثيرا بسبب اغراء الجو الجميل لم أكن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك ، وبينما كانوا لا يزالون جلوسا الى المائدة كنت أتسلل وحدى لألقى بنفسى فى قارب أقوده الى وسط البحيرة ، حين يكون الماء ساكنا ، وهناك ، وأنا مستلق بجسمى كله فى القارب وعيناي متجهتان الى السماء ، كنت أدع نفسى اروح واجيء مع التيار وفق هواه ، وكان ذلك يمتد أحيانا لساعات كثيرة أظل خلالها مستغرقا فى ألف حلم من أحلام اليقظة المبهمة ، الممتعة مع ذلك ، التى كانت فى رأى أفضل مائة مرة من كل ما لقيته من أحلى المتع فيما يطلقون عليه مياهيح الحياة وان لم يكن لها موضوع محدد أو ثابت . وكثيرا ما نبهنى غروب الشمس أن قد آذن وقت عودتى فأراني وقد بعدت كثيرا عن الجزيرة مضطرا الى أن أسعى جاهدا للوصول قبل أن يرخى الليل سدوله . وكنت فى مرات أخرى أجد لذة فى محاذاة شيطان الجزيرة الخضراء التى كثيرا ما أغرتنى مياها الصافية وظلها الرطيب بالاستحمام فيها ، وذلك بدلا من أن أوغل فى وسط الماء . ولكن أكثر تنقلاتى البحرية حدودنا كانت الذهاب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الصغرى ، فأرسو هناك وأقضى بها فترة ما بعد الغداء طورا فى جولات محدودة جدا خلال أشجار الصنفساف والخوخ والفرزخ (نوع من الخوخ) وخلال الشجيرات من كافة الأنواع ، وتارة جالسا فوق قمة كتيب رملى تغطيه الحشائش (النجيل) والنمام والزهور بل وجلبان الحية (السلة) والبرسيم التى يبدو أنها كانت قد بذرت عليه من قبل وهى مناسبة تماما لاقامة الادائب

(١) يخطئ روسو فيذكر حبقوق Habacuc وهو نبى له سفر في العهد القديم ، بدلا من باروش Baruchi الذى كان لانوتيين La Fontaine قد قرأ سفره لئلا فاعجبه وظل بعد ذلك يسأل كل من يصادفه اذا كان قد قرأ ذلك . وهى نكتة أدبية .

التي كان يمكنها أن تتكاثر هناك في أماكن دون أن تخشى شيئا ودون أن تسبب ضرا لشيء . وقد أبديت هذه الفكرة للمحصل الذي طلب أن تستحضر من نيوشاتل أرناب ذكورا وأناثا . وقد توجهنا في مظاهرة كبيرة : زوجته وإحدى أخواته وأنا لنضعها في الجزيرة الصغيرة حيث بدأت تعمرها قبل رحيلي وحيث كان من الممكن أن تتكاثر بغير شك لو انها استطاعت احتمال قسوة الشتاء . ولقد كان تأسيس تلك المستعمرة الصغيرة عيسدا . ولم يكن قبطان الارجنوت (١) Argonautes بأكثر منى فخرا وأنا أقود منتصرا الجماعة والأرناب من الجزيرة الكبرى الى الجزيرة الضغري . وكنت ألحظ في خيلاء أن زوجة المحصل التي كانت تخشى الماء الى أبعد حد وتحس بتأثير دواره عليها دائما ، قد أبحرت تحت قيادتي في ثقة ، ولم تظهر أى خوف أثناء الرحلة . أما حين كان يضطرب ماء البحيرة بحيث لايسمح لى بالملاحظة، فأننى كنت اقضى فترة ما بعد الظهر في التجول بالجزيرة ألتقط الاعشاب من يمين ومن شمال جالسا طورا في النواحي الأكثر بهجة المعنة في العزلة لأطلق فيها أحلامي كما يحلو لى ، وتارة فوق القلاع والقمم لأجول بعينى في المناظر الرائعة الخلابة للبحيرة وشطآنها التي تتوجهها من ناحية الجبال القريبة والتي تتفرج من ناحية أخرى على سهول غنية خصبة ، يستطيع البصر أن ينطلق خلالها حتى الجبال البعيدة التي تحدها والتي يميل لونها الى الزرقة .

وحين يقترب المساء كنت أهبط من فنن مرتفعات الجزيرة ، وأذهب راضيا للجلوس على حافة البحيرة ، على الحصى ، فى أى ملاذ خبىء ، وهناك كان هدير الأمواج واضطراب الماء وهما يهدئان من نائرة حواسى ويطردان من نفسى أى اضطراب آخر ، يغرقانها فى حلم لذيذ ، كثيرا ما كان الليل يدهمنى خلاله دون أن أنتبه الى ذلك . وكان مد الماء وجزره ، وخريره المتصل ، الذى كان يعلو فى فترات متقطعة ، ويصك مسمعى ويبهز عينى دون توقف ويزيدان من الانفعالات الداخلية التي كان من دأب حلم اليقظة أن يخمدتها فى نفسى ، ويكفيان لاشعارى بلنة وجودى دون أن أحس عناء التفكير . وكان يومض من آن لآخر خاطر باهت خاطف حول عدم استقرار أمور هذا العالم الذى كان سطح الماء يعكس صورته لى . ولكن سرعان ما كانت تتلاشى تلك الانطباعات الخفيفة فى الحركة الرتيبة المتصلة التي كانت تهدهدنى ، والتي كانت دون أن تتجاوب معها روحى

(١) الارجنوت Les Argonautes من أبطال الاساطير اليونانية الذين يرعم أنهم كانوا خمسين من الأبطال تحت قيادة جازون Jason خرجوا في غزوة وعادوا منها منتعبرين ■

- تقيدنى اليها لدرجة أنه حين كانت تدعونى الساعة والعلامة المتفق عليها لا أستطيع أن أنتزع نفسى من هناك دون مشقة .

أما بعد العشاء ، وحين تكون الأمسية جميلة فكنا نذهب كلنا سويا لنقوم بجولة على المرتفع كى نستنشق هواء البحيرة والنسيم العليل ، وكنا نستريح فى الفضاء ، ونضحك ، ونتحدث ، ونغنى أغنية قديمة تفوق الأغاني الحديثة المعقدة ثم نذهب أخيرا لننام ، راضين عن يومنا ، لانرغب الا فى أن يصبح الغد على غرابه .

وعلى هذا المنوال ، بغض النظر عن الزيارات المفاجئة الثقيلة ، قضيت وقتى فى هذه الجزيرة خلال اقامتى بها . والآن فليقل لى الناس ما فى ذلك من أشياء جذابة تثير فى قلبى تلك الحسرات العميقة الرقيقة المقيمة ، حتى أننى بعد خمسة عشر عاما ، لا يزال من المستحيل أن أفكر فى تلك الدار الحبيبة دون أن أستشعر كل مرة أننى انتقلت اليها مرة أخرى على أجنحة الرغبة .

وقد لاحظت خلال مراحل حياة طويلة أن الفترات التى تزخر بأحلى ما فى الحياة من متع وأبلغ ما فيها من مسرات ليست مع ذلك هى التى تجذبنى ذكراها وتؤثر فى نفسى أبلغ الأثر .

فهذه اللحظات القصار من الهديان والانفعال بكل ما فيها من قوة ليست مع ذلك ، وبهذه القوة نفسها ، سوى نقط تنتشر جلية على خط الحياة . انها لشديدة الندرة والسرعة بحيث لا تستطيع أن تنشئ حالة ما ، أما السعادة التى يأسى عليها قلبى فليس قوامها مطلقا لحظات عابرة وانما هى حالة بسـيطة ودائمة ليس لها فى ذاتها أية حيوية ولكن استمرارها يزيد فى سحرها حتى لأجد فيها فى نهاية الامر السعادة العظمى .

لكل شىء فى هذه الدنيا دورته ، وليس بها من شىء يحتفظ بصورة مستمرة ثابتة . ان مشاعرنا المتعلقة بالأمور الخارجية لا بد وأن تنقضى وتتغير مثلها - وهى قائمة دائما - من أمامنا ومن ورائنا تذكرنا بالماضى الذى انقضى أو تنبئنا بالمستقبل الذى ليست هناك غالبا من ضرورة لوجوده ، فليس بها من ثبات يستطيع قلب المرء أن يتعلق به ، وليس لنا فى هذه الحياة ، على ذلك ، سوى لذة تنقضى أما السعادة التى تدوم فأننى أشك فى أن تكون معروفة فيها ، ولا تكاد توجد - ونحن فى أوج متعتنا - لحظة يستطيع القلب أن يقول لنا بحق « وددت لو أن هذه اللحظة ظلت أبدا » ،

وكيف يستطيع المرء أن يسمى سعادة ، حالة عابرة تخلفنا والقلب لا يزال
قلقا فارغا ، فتجعلنا نتحسر على شيء انقضى أو نظل نشتهي هذا الشيء
فيما بعد .

ولكن ان كائنات هناك حالة تجد النفس معها مستقرا وطيدا تستطيع
أن تركز عليه بكليتها وتجمع فيه شتات كياناتها دون أن تحس بحاجة
لتذكر الماضي أو تقفز نحو المستقبل حيث لا يكون للزمن بالنسبة لها
أي اعتبار وحيث يظل الحاضر قائما دون أن تلحظ مع ذلك استمراره
أو أي أثر لتتابعه ودون أن نستشعر مع ذلك ، حرمانا أو استمتاعا ،
لذة أو الما ، رغبة أو رهبة ، اللهم الا الاحساس بوجودنا وبأن هذا الاحساس
وحده يستطيع أن يملا هذا الوجود كله . وما دامت تلك الحال قائمة
فإن صاحبها يستطيع أن يسمى نفسه سعيدا : لا سعادة منقوصة ضئيلة
ونسبية كتلك التي تصحب مباحج الحياة ، ولكن سعادة كافية مكتملة
مطلقة لا تترك أي فراغ في النفس يمكن أن تحس حاجتها الى ملئه . تلك
هي الحال التي كثيرا ما وجدتها عليها في جزيرة سان بيير خلال أحلام
عزليتي سواء كنت مستلقيا في قاربي الذي كنت أدعه يسير وفق هوى
التيار أو جالسا على ضفاف البحيرة المضطربة ، وسواء أكنت في مكان
آخر على حافة نهر جميل أو جدول يهدر على الحصباء .

بم يستمتع المرء في مثل تلك الحال ؟ بلا شيء خارج ذاته وبلا شيء
اللهم الا ذاته وكيانه الشخصي وما دامت تلك الحال قائمة فإن المرء يكتفي
بنفسه شأنه في هذا شأن الله . ان الاحساس بالموجود مجردا من كل عاطفة
أخرى هو في حد ذاته احساس قيم بالقناعة والسلام يكفي وحده ليجعل
من هذا الوجود شيئا محببا حلوا يستطيع عن طريقه أن ينأى بنفسه
عن كل المشاعر الحسية الدنيا التي لا تفتأ تلهينا عنه وتفسد علينا
حلاوته . ولكن أغلب الناس الذين تستثيرهم شهوات مستمرة لا يدركون
تلك الحال الا قليلا ، وما داموا لم يتذوقوها الا جزئيا في لحظات قليلة
فانهم لا يحتفظون منها سوى بفكرة غامضة مضطربة المعالم لا تدعهم
يحسون سحرها . بل انه قد لا يكون من الخير في شيء - والامور على
ما هي عليه - أن ينفروا بتلهفهم على تلك النشوة الحلوة ، من الحياة
العامة التي تملى واجبهم نحوها ضروراتها المتجددة دائما . ولكن امرأ
سييء الطالع أقصى من المجتمع ولا يسعه أن يقدم هنا على أمر فيه نفع
أو خير للاخرين أو لنفسه ، يستطيع أن يجد في مثل هذه الحال تعويضا
عما يستمتع به الناس ، مما لا يمكن القدر والبشر أن يسلبوه اياه .

والحق أن ذلك التعويض لا تستطيع أن تحس به كل النفوس أو بتوافر في كل الاحوال فمن الضروري أن يكون القلب في سلام وألا تعكر صفو هدوئه أية عاطفة ، ومن الضروري أن يكون هناك استعداد لدى الشخص الذي يحس به وهو استعداد ضروري . كذلك عندما تتزاحم الأمور من حوله . ولا يستلزم ذلك راحة مطلقة أو اضطرابا زائدا . ولكن حركة رتيبة معتدلة لا تكتنفها هزات أو فترات ركود . ان الحياة ليست سوى سبات ان خلت من الحركة . أما ان تفاوتت الحركة أو اشتدت فانها توقظ ، وهي حين تنبهنا الى الأمور من حولنا تهدم سحر الحلم وتنتزعنا من صميم أنفسنا لتضعنا فورا تحت وطأة القدر والبشر وتسلمنا الى الاحساس بشقوتنا . ان السكون المطلق يسلم للحزن . انه يعرض صورة الموت . واذن فعون الخيال الباسم أمر ضروري وهو يعرض بصورة طبيعية لأولئك الذين تنعم عليهم السماء به . ان الحركة التي لا تأتي من الخارج تعتمل اذن في داخل نفوسنا . حقا ان الراحة اقل ، ولكنها كذلك ، أشد امتاعا حين تلامس . كما يقال . خواطر خفيفة حلوة صفحة النفس دون أن تثير أعماقها . ولا يلزم منها الا ما يكفي ليتذكر الانسان نفسه متناسيا آلامه ، جميعا ، وهذا النوع من الاحلام يستطاع تذوقه حيثما يمكن أن يكون المرء هائلا وطالما فكرت في أننى فى « الياسمين » ، بل وفى « زنزانة » لا ترى عيني فيها شيئا ، كان يمكننى مع ذلك أن استغرق فى أحلام جميلة .

ولكن يجب أن اعترف بأن هذا كان يحدث على صورة خير من هذه وأفضل فى جزيرة خصبة منعزلة لها حدودها الطبيعية ومنفصلة عن بقية العالم حيث لا تعرض لى الا صور ضاحكة ، وحيث لا شيء يجعلنى أستعيد ذكريات محزنة ، وحيث كان المجتمع المكون من عدد قليل من السكان متألقا طبيبا دون أن يكون ذا شأن لدرجة يجعلنى أشغل باستمرار ، وحيث كان يمكننى أخيرا أن أستسلم طيلة اليوم دون ما عقبه أو شاغل لأعمال تتفق ومزاجى ، أو الى فراغ مترف . لقد كانت الفرصة مواتية من غير شك لحالم ، عرف كيف يتزود بأرقام حلوة وسط أشياء أشد تنفيرا فاستطاع أن يرتوى منها كما يحلو له وذلك باستجماعه كل ما أثر على حواسه فعلا . وكنت بعد أن أخرج من حلم طويل جميل وأشهد نفسى محاطا بالخضرة والزهور والطيور سارحا بنظري بعيدا فى الشيطان الخيالية التى تحف امتداد المياه الشاسعة الصافية المتلألئة كنت اغذى خيالاتى بكل تلك الأشياء المحببة . حين أرانى فى نهاية الامر أرجع تدريجيا الى نفسى والى ما يحيط بى لم أكن أستطيع أن أميز الحد الفاصل

بين الخيال والحقيقة ما دامت تسهم جميعا كذلك فى أن ترفع من قيمة الحياة الانطوائية المنعزلة التى كنت أحيها خلال تلك الاقامة الجميلة ألا ليتهى تبعت من جديد ! ألا ليتنى أستطيع أن أقضى آخر أيامى فى تلك الجزيرة الحبيبة دون أن أبرحها أبدا أو دون أن أشهد بها البتة ايا من سكان القارة يستطيع ان يعيد الى ذكرى الكوارث من كل نوع التى طالما راق لهم أن يهيلوها على منذ أعوام كثيرة ! اننى بذلك سرعان ما كنت أنساهم الى الأبد ، ولكن ليس من شك فى أنهم ما كانوا لينسونى . ولكن ماذا كان يهمنى ما داموا لن يجدوا سبيلا لاقلاق راحتى ؟ اننى وقد تخلصت من كل شهوات الدنيا التى هى وليدة صخب الحياة الاجتماعية سوف تتسامى روحى مازا متخطية ذلك الجو وتتصل سلفا بالادراك العلوى الذى تأمل فى الاستزادة منه فى مدى قصير . واننى لأعلم أن الناس سوف يحولون دون أن أستمتع بمثل هذا الملاذ الهنىء الذى لم يشاءوا أن يدعونى فيه . ولكنهم لن يمنعونى على الأقل من أن أنتقل اليه يوميا على أجنحة الخيال ، ومن أن أتذوق فيه مدى بضع ساعات نفس اللذة كما لو كنت لا أزال أقيم به . وان أمتع ما كنت أفعله هناك هو ان أحلم كما يروق لى . او لست أفعل نفس الشيء حين أحلم بأننى هناك ؟ بلى اننى أفعل أكثر من ذلك . اننى حين يجذبنى حلم معنوى يسير على وتيرة واحدة أردف له صورا رائعة تبعث فيه الحياة ، وغالبا ما كانت موضوعاتها تنفلت من حواسى أثناء انتشائى . أما الآن فكلما ازداد حلم يقظتى عمقا . . صورها لى بحيوية أكثر ، واننى غالبا ما أحس بنفسى محوطا بها مستمتعا بلذة أكبر مما عليه عندما كنت هناك فى الواقع ، والمؤسف فى الأمر أنه كلما فتر الخيال كان ذلك يتأتى فى جهد أشده ولا يستغرق طويلا . واأسفاه ! ان المرء ليشعر أنه أكثر ما يكون رزوحا بجسده حين يشرع فى التجرد منه !

الجولة السادسة

ليست هناك أية حركة آلية لا نستطيع أن نجد لها تعليلا في قلبنا
إذا ما نحن عرفنا كيف نتغلغل فيه بحثا عن ذلك التعليل .
بالأمس أثناء مروري بالطريق الجديد ذاهبا للاستعشاب على ضفة
« البييفر » Bièvre في ناحية جنتيي Gentilly أنعطف يمينا مقتربا
من سور دانفير d'Enfer وعندما توغلت مبعدا في الحقول توجهت عن طريق
« فونتينبلو » Fontainebleau كي أصل الى المرتفعات التي تجاور ذلك
النهر . ولم يكن ذلك السير ليعنى شيئا بالمرة في حد ذاته ، ولكن حين
تذكرت أنني قمت بنفس الدورة تلقائيا مرارا من قبل فقد بحثت عن
الدافع عن ذلك في نفسي ، ولم استطع أن أمنع نفسي من الضحك بعد
أن تبينته .

في ركن من الطريق ، عند مخرج سور دانفير D'Enfer تقف
يوميسا في فصل الصيف امرأة تبيع الاعشاب الطبية tisane
وأرغفة الخبز الممتاز ولهذه المرأة ولد صغير لطيف جدا لكنه أعرج يروح
يلتمس الاحسان من المارة بشيء من الظرف وهو يتعارج على مكازيه .
وكان لي بهذا الغلام الصغير بعض المعرفة . ولم يكن يفوته كلما مررت به
أن يتقدم ليحييني تحيته البسيطة التي كانت تتلوها دائما هبتى الصغيرة
وقد شرقتي رؤيته في المرات الأولى فكنت أمنحه بارتياح كبير ، وظللت
أفعل ذلك بعض الوقت بنفس السرور بل فان يلذ لي الى جانب ذلك في
أغلب الأحيان أن أدفعه الى ثرثرته الصغيرة التي كانت تروقتني .

وقد تحولت - ولست أدري كيف تحولت - هذه المتعة التي بعت
عادة بالتدرج الى نوع من الواجب ما لبثت أن أحسست بالضيق منه ،
وخاصة بسبب تلك الخطبة الافتتاحية التي كان لابد من الاستماع اليها ،
والتي لم يكن يفوته أبدا أن يدعوني فيها بالسيد روسو ليظهر أنه كان
يعرفني معرفة كافية ، مما كان يجعلني على العكس من ذلك أدرك أنه لم
يكن يعرفني أكثر ممن لقنوه ذلك . ومنذ ذلك الحين كنت أمر من هناك

أقل رغبة ، وأخيرا اعتدت تلقائيا أن أنعطف في أغلب الاحيان حين كنت أقرب من ذلك الحاجز . ذلك ما اكتشفته وأنا أمعن الفكر فيه لأنه لم يكن قد عرض لذهني بوضوح شيء من هذا كله حتى ذلك الوقت . وقد ذكرتني تلك الملاحظة على التوالي بكثيرات أخر أيدت لي تماما أن الدوافع الحقيقية الأولى لمعظم تصرفاتي لم تكن كذلك واضحة بالنسبة لي كما صورتها طويلا . اننى أعرف وأدرك أن عمل الخير هو أقصى مراحل السعادة الحقة التى يستطيع أن يتذوقها القلب البشرى . ولكن مر دهر طويل منذ أن بوعد بين تلك السعادة وبينى ، ولا يستطيع من له مثل حظى المنكود أن يأمل فى أن يفيد مختارا موقفا من عمل واحد طيب حقا . ومادام قصارى جهد أولئك الذين يرسمون خطوط قدرى ألا يكون لى الا المظهر الباطل الخداع فإن حافزا الى الفضيلة لم يكن مطلقا سوى خدعة تقدم لى لاجتذابى نحو فنج يراد اطباقه على . اننى أدرك ذلك ، اننى أدرك ان الخير الوحيد الذى هو فى مقدورى منذ الآن هو أن أمتنع عن العمل خشية ان أسىء دون قصد ودون دواية .

ولكن كانت هناك فترات أكثر سعادة كنت أستطيع خلالها أحيانا - مستجيبا الى خلجات قلبى - أن أدخل السرور الى قلب آخر ، وانى لأدين لنفسي بالشهادة المشرفة وهى أنه فى كل مرة استطعت أن أتذوق هذه المتعة وجدتها أعذب من أى متعة أخرى . كان هذا الميل قويا وصادقا وطاهرا ، ولم يحدث البتة ان نقصه شيء فى اعماق كوامن نفسى ، ومع ذلك فغالبا ما أحسست بثقل أعمالى الخيرة بسبب سلسلة الواجبات التى كانت تستتبعها ، ومن ثم فقد اختفت المتعة ولم أجد فى استمرار الرعاية نفسها - التى كانت تفتننى فى أول الأمر - سوى ضيق يكاد يكون غير محتمل . كان كثير من الناس يلجأون الى خلال أيام رخائى القصيرة ، ولم يحدث أبدا فى كل الخدمات التى استطعت أداءها لهم أن صدت أيا منهم ولكن على أثر تلك الحسنات التى كنت أسديها بانسراح كانت تنشأ سلسلة التزامات متتابة لم أكن أتوقعها ولم أعد أستطيع التخلص من نيرها . لم تكن خدماتى الأولى فى نظر أولئك الذين كانت تسدى اليهم سوى عربون لما يجب أن يتلوهوا من خدمات ، وما ان كان يتسلط على يائس ما من أجل معروف أسدى اليه حتى ينتهى أمره عندئذ ، وتصبح هذه الحسنة الأولى - الحالصة الصادرة عن طواعية - حقا مطلقا لكل من يحتمل أن يحس الحاجة اليها فيما بعد دون أن يكفى لاعفائى منه ، حتى عدم القدرة على أدائه . وهكذا كانت متع بالغة الروعة تستحيل بالنسبة الى استعباد فادح فيما بعد .

ومع ذلك فلم تبد لى تلك القيسود ثقيلة جدا ، فطالما كان الناس يجهلوننى كنت أعيش مضورا ، ولكن ما ان اعلنت كتاباتى عن شخصى - وهو خطأ خطير ما فى ذلك من شك ، ولو ان رزاياى قد كفرت عنه وأكثر - حتى أصبحت منذ ذلك الوقت المكتب العام الذى يرأسه المعوزون ، او من يزعمون انهم كذلك ، والمغامرون الذين يبحثون عن مغفلين ، وكل من يرغبون فى فرض سلطانهم على بوسيلة أو بأخرى تحت ستار الثقة الكبيرة التى كانوا يتظاهرون بانهم يولوننى اياها . اذ ذاك أمكنتى أن أدرك أن كل ميول الطبيعة - دون أن يستثنى منها عمل الخير نفسه - وسواء انطوت عليها جوانح أصحابها أو هم أتبعوها فى المجتمع دون حذر . وكما اتفق ، فانها تتغير فى طبيعتها بل غالبا ما تصبح ضارة بقدر ما كانت نافعة فى وجهتها الأولى ، كم من تجارب قاسية غيرت شيئا فشيئا من استعداداتى الأولى ، أو بالأحرى ، علمتنى وهى تحتجزها فى نهاية الأمر داخل حدودها الحقيقية ، أن أتبع - بعدم تبصر أقل - ميلى لعمل الخير حين لا يكون من شأنه سوى اذكاء روح الشر عند الآخرين . ولكننى لا آسف مطلقا على تلك التجارب نفسها ما دامت قد زودتنى عن طريق التفكير ، بأضواء جديدة من أجل معرفتى بذاتى وبالذوابع الحقيقية لسلوكى فى ألف من الملابسات التى كثيرا ما خدعت فيها . ولقد وجدت أنه - لكى أستمتع بإسداء الخير - كان يلزمنى التصرف بحرية دون اكراه ، وأنه ، لكى أسلب كل لذة من وراء عمل طيب كان يكفى أن يصبح هذا العمل التزاما ، ومن ثم كان ثقل الالتزام يغلب أحلى المتع عبثا . وكما قلت فى كتاب ال « اميل » ، Emile (1) على ما اعتقد ، اننى كان من الممكن أن أعد لدى الأتراك زوجا فاشلا حين يدعوهم «النادى» الى أن يؤدوا واجباتهم كأزواج .

ذلك هو ما يعدل كثيرا الراى الذى كونه منذ زمن بعيد عن قضائى الشخصية لأنه لئس من الفضيلة فى شىء أن ينساق المرء وراء ميوله ، وأن يتفانى فى الخير عندما تدفعنا هذه الميول الى ذلك . ولكن تلك الفضيلة تمكن فى التغلب عليها حين يتطلب الواجب ذلك لنؤدى ما يملية علينا ، وهذا هو أقل ما استطعت عمله كرجل مجتمع . اننى وقد ولدت حساسا طيبا ، تنطوى نفسى على الرحمة الى حد الضعف ، وأستشعر انتشارا

لم يقل روسو ذلك فى اميل Emile ، ولكن فى « الاعترافات Les Confessions » عند الحديث من آتسة من الراهبات كان يعطيهما دورسا فى الموسيقى . واما هذا القول الذى لا أساس له من الصحة اطلاقا فهو يدل على جهل فاضح من روسو بتعاليم الديانة الاسلامية .

الروح بكل ما يتصل بالكرم ، غدوت انسانا خيرا ، معينا للناس ، عن ميل ، بل وعن شغف ، ما دام الأمر لا يهم سوى قلبي . وقد كنت أصبح خيرا للناس وأكثرهم رحمة إذا ما قدر لي أن أكون أقواهم . ولكي أخدم في نفس كل رغبة في الانتقام ، كان يكفيني أنني أستطيع أن أنتقم . وكان من الجائز أن أكون عادلا كذلك بغير عناء ، وإن تعارض ذلك مع مصلحتي الخاصة ولكنني لم أكن لأستطيع أن أقنع نفسي بأن أكون كذلك ضد مصلحة من كنت أعدهم أعزاء علي . وحين كان يتعارض واجبي مع قلبي فانه نادرا ما كانت تكتب الغلبة للأول اللهم إلا اذا كان الأمر لا يتطلب سوى الامتناع من جانبي ، وعندئذ ، أكون قويا في أغلب الأحيان . وأما التصرف ضد ميلي فكان مستحيلا دائما بالنسبة لي . وسواء كان الأمر صادرا عن الناس أو الواجب أو الضرورة حين يصمت قلبي ، فان ارادتي تظل صماء ولا أعود قادرا على الطاعة . انني أرى الشر الذي يتهددني ، وإدعه يأخذ طريقه الى بدلا من أن أتحرك لتوقيه ، وانني لأبدأ أحيانا في جهد ، ولكن هذا الجهد يرهقني ويستنزف قواي بسرعة فائقة فلا أقوى على الاستمرار . وفي كل ما يتصوره العقل يستحيل على أداء ما لا أجد متعة في القيام به .

وهناك ما هو أكثر من ذلك : فالأكره ، وإن اتفق مع رغبتى ، كفيل بالقضاء عليها وتحويلها الى نفور ، بل والى اشمئزاز مهما كان تجاوزه لحد العنف ضئيلا . وهذا هو ما يجعل العمل الطيب الذي يقوم به الانسان أمرا شاقا ، وهو ما كنت أؤديه طواعية حين لم يكن يفرضه أحد . إن عملا خيرا بغير مقابل مطلقا هو بالتأكيد عمل أرحب بأدائه ، ولكن حين يتخذ صاحب هذا العمل منه سندا كي يفرض استمراره والا تعرضت لكراهيته ، وحين يلزمني أن أكون صاحب فضل عليه الى الأبد لأنني وجدت لذة في ذلك في أول الأمر ، حينئذ يبدأ الضيق وتلاشي اللذة ، ويكون ما أفعله حين أستسلم ، ضعفا وعارا كريها ، لا مكان فيه من بعد للرغبة الصادقة ، وبدلا من أن أتهلل لما أفعل أعتب على نفسي في سريرتي لأنني فعلت الخير مكرها .

انني أدرك أن هناك نوعا من العقود ، بل هو أكثرها قداسة : وهو المبرم بين المحسن وبين المحسن اليه ، وهو نوع من أنواع الشركة يكونها الأول مع الثاني ، أشد أحكاما مما يربط بين الافراد عامة ، ولئن التزم المحسن اليه ضمنا بالإعتراف بالجميل فان المحسن يلتزم كذلك بأن يحفظ للآخر - طالما هو لا يبدو غير أهل له - نفس الرغبة الصادقة التي سبق أن أبدأها نحوه ، وأن يجدد له نفس الافعال في كل المرات التي

يستطيع فيها ذلك والتي يطلب منه أداؤها . وهذه ليست شروطا صريحة، ولكنها آثار طبيعية للصلة التي قامت بينهما . وان من يرفض للمرة الأولى أن يسدى خدمة يطلب اليه أداؤها بغير مقابل لا يخول حق الشكوى لمن رفض أن تسدى اليه ، ولكن من يابى فى حالة مشابهة أن يتفضل على نفس الشخص بمثل ما تفضل عليه به من قبل فهو يخيب اذا أملا سمح له أن يراوده بل هو يخلف ويخيب أمنية ولدها فى نفسه . ان المرء ليحس فى هذا الرفض شيئا من الظلم بل من الامعان فى القسوة أكثر مما فى الآخر ، ولكنه مع ذلك ليس الا نتيجة استقلال يحبه القلب ولا يستطيع ان يتنازل عنه بغير جهد . اننى حين ارد دينا فان هذا واجب أوديه ، وحين أعطى منحة فانما هى متعة أوفرها لنفسي ، واذن فالنتيجة فى أداء المرء لواجباته هى من تلك المتع التي يبعثها الاعتياد وحده لممارسة الغضيلة: أما تلك التي تأتينا من الطبيعة مباشرة فلا تتسامى الى ذلك الحد .

لقد تعلمت بعد تلك التجارب المريرة أن أتبصر من بعيد عواقب استجابتي لنزعاتي الأولى وغالبا ما امتنعت عن أداء عمل خير كنت أحس رغبتى فيه وقدرتى على أدائه متخوفا مما سوف يفرضه على من سلطان ان أنا استسلمت اليه بغير روية . ولم أستشعر تلك الرهبة دائما بل على العكس من ذلك كنت أتعلق فى شبابي بأعمال الخيرة وغالبا ما كنت أحس كذلك أن أولئك الذين كنت أسدى اليهم معروفات انما كانوا يتعلقون بشخصي عرفانا بالجميل أكثر منه سعيا وراء مصلحة . ولكن الامور قد تغير وجهها تماما فى هذه الناحية ، كما فى غيرها ، بمجرد أن بدأت المصائب تحل بى ، وقد عشت منذ ذلك الوقت فى حقبة جديدة لاتشابه الأولى فى شيء ، وقد اعترت مشاعري تجاه الآخرين تغيرات وجدت صداها لديهم . ان نفس الاشخاص الذين لقيتهم على التوالي فى هذين الجيلين ، على اختلافهما ، قد تشابهوا جدا - على حد القول - ببعضهم البعض على التوالي كذلك ، فمن صادقين مخلصين كما كانوا فى أول الأمر أصبحوا ما هم عليه الآن ، شأنهم فى ذلك شسان الآخرين جميعا . وفى هذا وحده تغير الزمن ، وتغير الناس كما تغير . . . ايه . . . كيف أستطيع أن أحتفظ بنفس المشاعر نحو أولئك الذين نقيت فيهم عكس ما ولد تلك المشاعر . . . اننى لا أكرههم قط لأننى لا أعرف كيف أكره . . . ولكنى لا أستطيع منع نفسي من الاحتقار الذي يستحقونه ولا أن اردها عن اظهاره لهم .

ربما - دون أن الحظ ذلك - تغيرت أنا نفسي أكثر مما يجب : واى

طبع يستطيع أن يثبت دون أن يتغير وهو يمر بحالة مثل خالتي ؟ اننى ،
وقد اقنعتنى عشرون سنة (1) من التجربة بأن ما غرسته الطبيعة فى
قلبي من استعدادات طيبة قد تحول - بسبب ما خط لى فى لوح القدر
ويسبب من يتحكمون فى - الى اضرار بنفسى أو بالغير ، لم أعد أستطيع
أن أنظر الى أى عمل خير يعرض على أداؤه الا كشرك ينصب لى ويخفى
تحتته شرا ما . واننى لأدرك أنه مهما يكن أثر العمل فان جزائى عن نيتى
الطيبة لن يكون أقل . أجل . . ان هذا الجزاء قائم هناك دائما من غير
شك ولكن السحر الكامن فيه لم يعد موجودا . وما ان ينقض ذلك الحافز
حتى استشعر عدم المبالاة والبرودة فى داخل نفسى ، وحين يتأكد لى اننى
بدلا من أن أقوم بعمل نافع حقا لم أفعل سوى ما يفعله كل مغفل فان ثورة
الكرامة - مضافا الى انكار العقل - لا تبعث فى الا نفورا وعنادا حيث
كان من المحتمل أن أكون ممثلا حمية وحماسا فى حالتى الطبيعية .

هناك ألوان من المحن تسمو بالروح وتقويها ، ولكن من بينها كذلك
ما يحطمها ويقضى عليها ، كذلك التى أنا فريسة لها . فمهما يكن قليلا
ما فى محنتى من خميرة فاسدة فان هذا القدر كان كفيلا بأن يجعلها تختمر
الى أقصى حد فتتهيجنى ، ولكنها لم تجعل منى الا عدما ، واننى لأمتنع عن
التصرف حين لا أستطيع أن أقدم خيرا لنفسى أو للآخرين ، وتلك الحال
التى لا تستمد براءتها الا من كونها اضطرارية ، تجعلنى أحس شيئا
من الارتياح فى الاستسلام كلية ، دون لوم ليلى الطبيعى ، ولا شك فى
اننى أذهب بعيدا جدا ما دمت أتحاشى فرص التصرف حتى حيث لا أرى
سوى خير يستطاع أداؤه ، ولكننى ، وقد ثبت لى أن الناس لا يدعوننى
أرى الأمور كما هى عليه ، فأننى أمتنع عن الحكم بالظواهر التى يصفونها
على تلك الأمور . ومهما يكن الزيف الذى يحجب دوافع التصرف فانه
يكفى أن تكون هذه الدوافع فى متناول يدي حتى أتأكد من أنهم مخادعون .
ويبدو قدرى وكأنما نصب لى منذ طفولتى الشرك الأول الذى يسر
لفترة طويلة وقوعى فى الشرك الأخرى جميعا . لقد ولدت وأنا أشد
الناس ثقة ، ولم يحدث مدى أربعين حولا كاملا أن غرر بتلك الثقة مرة
واحدة ، أما وقد ألقى بى فجأة باقين نظراز آخر من الناس ومن الأمور فقد
سقطت فى ألف كمين دون أن ألحظ مطلقا من بينها واحدا ، وكانت عشرون
عاما من التجربة تكفى بالتأكيد لتلقى الاضواء على مصيرى . وما أن اقتنعت
أن ليس وراء اسرافهم فى مناققتى سوى كذب وزيف ، خفى تحولت سريعا

(1) يشير روسو هنا الى خصامه مع ديدرو عام 1757 .

الى النقيض ذلك لأنه ما أن يخرج المرء عن طبيعته حتى لا تعود هناك حدود تعوقنا . ومنذ ذلك الوقت اشمازت نفسى من الناس ، وأما ارادتى التى تتنافس وارادتهم فى هذا المضمار فأتها لا تزال تقف بى بعيدا عنهم أكثر مما تفعل حيلهم جميعا .

ومهما يفعلوا فلن يستطيع هذا النفور أبدا أن يبلغ حد الكراهية . اننى حين أفكر فى التبعية التى وضعوا أنفسهم فيها بالنسبة لى مستهدفين أن تكون حالى بالنسبة لهم كذلك فانهم بهذا يستدرجون شفقتى الحقة ، ولئن لم أكن تعسا فانهم لكذلك ، وفى كل مرة أرجع الى نفسى أجدهم يستحقون الرثاء دائما . ان الزهو قد يخالط كذلك هذه الاحكام ، فاننى لأحس بأننى أسمى منهم حتى أكرههم . ان كل ما يستطيعون على الأكثر أن يثيروه فى نفسى من اهتمام هو احتقارى لهم ، ولكن لن يبلغ ذلك حد الكراهية أبدا . وأخيرا ان حبى لنفسى من القوة بحيث لأستطيع معه أن أستشعر الكراهية نحو كائن ما والا فاننى أكون كمن يحصر ويضغط كيانه بينا أنا أود لو . وسع الكون كله .

اننى أفضل أن أهرب منهم عن أن أكرههم . ذلك لأن مرآهم يشير فى حواسى ، وعن طريقها فى قلبى ، انطباعات تجعلها ألف نظرة قاسية شاقة على نفسى ، ولكن لا يلبث الضيق أن يتوقف بمجرد أن تختفى دواعيه وانى لأشغل نفسى بهم على الرغم منى تماما فى حضورهم ، ولكن ذلك لا يحدث أبدا بتذكرى اياهم ، فعندما لا أراهم يقدون فى نظرى وكأنما لم يكن لهم وجود مطلقا .

انهم لا قيمة لهم كذلك بالنسبة لى الا فيما يتصل بى من أمور ، ذلك أنهم فيما يقوم بينهم من علاقات يستطيعون كذلك أن يثيروا اهتمامى وأن يؤثروا فى كما قد تؤثر فى شخصيات مسرحية أشهدا . لقد كان من الضرورى . كى تكون العدالة غير ذات بال بالنسبة الى - أن يقضى على كيانى المعنوى . ان منظر الظلم والشرا لا يزال كذلك يدفع الدم الى الغليان فى عروقى غضبا ، أما الأعمال الصالحة التى لا أرى فيها أثرا للعنف أو المباهاة فانها تجعلنى دائما أهنئ فرحا ، وتنتزع كذلك الدموع الرقيقة من عينى . ومع ذلك ، فانه يجب ان أشهد تلك الافعال وأن أقدرها قدرها بنفسى ، ذلك انه بعد ما حدث لى شخصيا لا بد وأن أغدو مخبولا لأعشق - فى أى أمر من الامور - آراء الناس ولأصدق أى شىء على عهدة الآخرين .

لو أن وجهى وملامحى كانت مجهولة تماما لدى الناس ، كخلقى وطبيعى ، إذن لعشت بينهم كذلك فى غير مشقة . ولكن من الجائز أن تروق

لي صـحبتهم ما دمت غريبا عنهم تماما . لقد كنت احبهم . كذلك لو لم يشغلوا انفسهم بى ان انا استسلمت دون ضغط لميولى الطبيعية . لقد كنت اسبغ عليهم رعاية شاملة غير مفرضة اطلاقا ولكن دون ان اُنشىء علاقة خاصة ودون ان اخضع لآى التزام ، وكنت اقدم لهم - بكامل حريتى وعن طواعية - كل ما يلقون عناء كبيرا فى تقديمه مدفوعين باثرتهم مكرهين على ادائه بحكم شرائعهم جميعا .

لو اننى ظللت حرا ، منسيا ، منعزلا - كما خلقت لآكون - لما فعلت الا خيرا ، ذلك لانه لنسيت بقلبي نواة لآى ميل للآذى . ولئن كنت محجوبا قديرا مثل الله لاصبحت خيرا كريما مثله . ان القوة والحرية هما اللتان تخلقان الرجال الممتازين ، أما الضعف والعبودية فلم يخلقا الا اشرارا . ولو كنت املك خاتم « جيغيس » (1) Gyges لخلصنى من تبغيتى للناس ولجعلهم تابعين لى . اننى كثيرا ما تساءلت فى « قصورى التى ابنيها على الرمال » فيم كنت استخدم ذلك الخاتم ، ذلك لان هنا يكون اغراء اساءة استعماله ممكنا . واذا ما اصبحت فى مقدورى ان اُسبغ رغباتى وان اقوم بعمل كل شىء دون احتمال ان يخدعنى احد فماذا كنت استطيع ان اشتهى بعد ؟ شيئا واحدا : هو ان ارى القلوب جميعا راضية . ان مظهر الهناء الشاملة هو وحده الذى كان من الممكن ان يمس قلبى بحنان دائم ، كما ان الرغبة الحائرة فى ان اسهم فى ذلك كانت عاطفتى المقيمة دواما . ولما كنت عادلا دائما بغير تحيز ، خيرا دائما فى غير ضعف ، فاننى كنت خائفا ان اجنب نفسى الشكوك الجمياء والكراهية المقيتة ، لاننى وقد رايت الناس على ما هم عليه ، مستطلعا فى يسر ما فى أعماق قلوبهم قلما كنت اجد من بينهم من بلغوا من اللطف حدا يستحقون معه كل محبتى ، او بلغوا من القبح حدا يستحقون معه كراهيتى ، وان نزعوا الشر فيهم ذاتها تهيئنى للاشفاق عليهم لمعرفةى الاكيدة بالضر الذى يصنعونه بانفسهم وهو يودون اصابة الغير به . ربما كنت استطيع فى لحظات المرح ان اعبث عبثا صبيانيا فى بعض الاحايين باتيانى امورا معجزة ، ولكن ، لما كنت لا استهدف ابدا آية منفعة شخصية وليست هناك من شريعة لدى سوى ميولى الطبيعية، فاننى كنت اقوم بالآف عمل من أعمال الرحمة والانصاف مقابل بعض الأفعال التى تتسم بالعدالة الصارمة . وكرسول للعناية الالهية وكناشر لقوانينها - على قدر استطاعتى - كنت اقوم بعمل

(1) جيغيس Gyges هو راع صغير من ليديا (من اقاليم آسيا الصغرى قديما) عاش فى القرن السابع قبل الميلاد كان له خاتم سحرى يستطيع بواسطته ان يصبح غير مرئى واستطاع بذلك ان يصل الى العرش وان يؤسس أسرة حاكمة هناك .

معجزات أكثر حكمة وأشد نفعا من معجزات الاسطورة المذهبية
Légende dorée (١) وقبر القديس ميدار . Saint-Médard (٢) .

ليست هناك سوى ناحية واحدة كان من الممكن أن تدفعني الى
الدخول ، متخفيا ، الى أى مكان للبحث عن مغريات ربما
ضعفت مقاومتي ازامها . ولئن دخلت مرة فى تلك الطرق المضللة فترى
الى أين تؤدى بى ؟ انه يكون من الجهل المطلق بالطبيعة وبذاتى أن أقتل
بأن تلك التسهيلات لم تكن لتغزىنى مطلقا ، أو أن العقل كان يستوقفنى
عند ذلك المنحدر المشؤم . ومع ثقى فى نفسى فى كل أمر آخر ، الا
أننى ضيعت بسبب ذلك وحده . ان من ترتفع به قدرته فوق مستوى
البشر يجب أن يكون فوق مواطن الضعف الانسانى ، والا فإن هذا
القيض من القوة لن يجدى فى الواقع الا فى النزول به الى مستوى أدنى
من مستوى الآخرين ومن المستوى الذى كان من الجائز أن يلتزمه هو
نفسه ان ظل مساويا لهم .

وبعد أن تمغنت جيدا فى الأمر كله، فأننى اعتقد اننى افعلا خيرا لو اننى
القيت بخاتمي السحرى قبل أن يدفعنى الى الاقدام على حماقة ما . ولئن
كان الناس يصرون على رؤيتى على صورة تخالف تماما ما أنا عليه ، واذا
كان مظهرى يثير ظلمهم فمن الواجب التهرب منهم كى أحجب عنهم هذا
المنظر لا أن أتوارى بينهم . انهم هم الذين يجب أن يختفوا من أمامى
وأن يحجبوا عنى خيلهم وأن يفرروا من ضوء النهار وأن يفوصوا فى الأرض
كالخلد . واما بالنسبة لى فلئن رأونى - ان استطاعوا الى ذلك سبيلا -
كان ذلك خيرا ، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لهم فانهم لن يروا أبدا فى
مكانى سوى الـ « جان جاك » الذى صاغوه لأنفسهم وشكلوه وفق هواهم
ليكرهوه كما يشامون ، واذن ، فأننى أكون مخطئا لو أننى تأثرت من
الطريقة التى يروونى بها ، اذ لا يجب أن أعيرها أى اهتمام حقيقى ، لاننى
لست أنا من يرونه على هذه الصورة .

ان النتيجة التى أستطيع أن أستخلصها من هذه الخواطر جميعا
هى اننى لم أكن أبدا خليقا حقا بالمجتمع المتمدين حيث ليس هناك سوى

(١) الاسطورة المذهبية La Légende dorée هى مجموعة ضخمة من حياة القديسين

الفا « جاك دولوراجين Jacques de Voragine » فى القرن الخامس عشر

(٢) يقصد بمقبرة سان ميدار Saint-Médard المقبرة التى دفن بها الشمس «باريس»

المتوفى فى عام ١٧٢٧ - وكان الباريسيون يتوجهون اليها لاعتقادهم فى امكان شفاء

المرضى عن طريق صاحبها . وقد أفلقت المقبرة بأمر السلطات العامة فى عام ١٧٣٢ .

المرج. والالتزام والواجب. وإن طبعى الاستقلالى جعلنى عاجزا. على الدوام
عن الرضوخ اللزوم لمن يريد أن يعيش بين الناس . وما دمت أتصرف فى
حرية فإنتى خير لا أفعل الا خيرا . ولكن ما إن أحس بالتسلط : تسلط
الحاجة أو تسلط الناس ، حتى أغدو متمرده أو بالأحرى ، جموحا : وعندئذ
أكون لا شىء . حين يكون لزاما على أن أفعل ما ينساقض رغبتى فإنتى
لا أفعله البتة مهما يحدث ، بل أنتى لا أفعل كذلك ما يطابق رغبتى نفسها
لأننى ضعيف . أنتى أمتنع عن العمل ذلك لأن كل ضعفى فى مباشرته ،
ولأن كل قواى سلبية ، ولأن كل زلاتى ناجمة عن الاحجام ، ونادرا عن
الاقدام . أنتى لم أعتقد مطلقا أن حرية المرء تعنى انجاز ما يود ولكنها
فى الا يصنع مطلقا ما يريد أن يصنعه ، ذلك هو ما طالبت به دائما
وما التزمته غالبا وما كنت من أجله منددا بى لدى معاصرى : ذلك إنه
بالنسبة لهم كعاملين نشيطين طموحين ، كارهين الحرية لدى الغير ، غير
راغبين فيها بالمره لأنفسهم ، ماداموا يفعلون أحيانا ما يشاءون أو بالأحرى
يسيطرون على مشيئة الآخرين . . . يضيئون طيلة حياتهم بأداء ما يكرهون
ولا يتورعون عن الاستعباد مستهدفين السيطرة . واذن فان خطاهم لم
يكن فى أن يبعثونى عن المجتمع كعضو لا جدوى منه بل أن ينبئونى
كعضو خبيث ، ذلك لأننى قلما فعلت الخير وأنا مقر بذلك ، أما عن الشر ،
فانه لم يدخل فى نطاق رغبتى فى حياتى ، وإنتى أشك فى أن هناك انسانا
فى العالم أقترف منه حقا أقل مما فعلت .

الجملة السابعة

لم يكد يبدأ سجل أحلامي الطويلة حتى أحسست بها تشارف خاتمها وتتبعها متعة أخرى تستفرقني حتى لتسلبني فترة الحلم ، اننى لاستسلم لها فى ولح مفرد يضحكنى أنا نفسى حين أمن التفكير فيها ، ولكننى لا أقلل من استسلامى لها ، ذلك لاننى - فى الوضع الذى انا به - لم تعد لدى قاعدة أخرى للسلوك اللهم الا ان أتابع ميولى فى كل الامور بغير اكرام . انى لا أملك شيئاً حياى قدرى ، وليست لى سوى ميول بريئة : ومادامت آراء الناس ليست شيئاً بالنسبة لى منذ اليوم فان الحكمة نفسها تقتضى ان اقوم بعمل ما يرضينى فيما لا يزال فى متناولى ، سواء اكان ذلك أمام الناس أم بينى وبين نفسى ، دون أن ألتزم قاعدة سوى ما يروق لى ، ودون معيار سوى ما بقى لى من قوة ضئيلة . أما بعد ، فهأنذا والاعشاب الجافة كل زادى ودراسة النبات كل شغلى . أما وقد تقدمت بى السن فاننى كنت قد تلقيت الانطباعة الاولى لعلم النبات فى سويسرا بالقرب من العالم ديفرنوا d'Ivernois وكنت قد جمعت الاعشاب خلال أسفارى بتوفيق يكفى للامام لا بأس به بمملكة النبات . أما وقد جاوزت الستين ، وأقيم فى باريس ، وقواى آخذة فى الاضمحلال بحيث تمنعنى من ممارسة الاستعشاب على نطاق واسع ، ومع هذا متفرع الى حد كبير لكتابة الموسيقى حتى لا أعقد وفى حاجة لأن أشغل بعمل آخر ، فقد هجرت هذه المتعة التى لم تعد ضرورة بالنسبة لى . لقد بعث معشبنى وبعث كتبى قانعا بأن أعاود أحيانا مشاهدة النباتات الشائعة التى كنت أعثر عليها حول باريس خلال تجولاتى . وخلال هذه الفترة كاد يمضى من ذاكرتى تماما القليل الذى كنت أعرفه ، بل انه انمضى فى سرعة تفوق ما استغرق نقشه عليها .

وفجأة ، وبعد أن انقضت خمسة وستون عاما من عمرى محروما من الذاكرة الضئيلة التى كنت أستمتع بها ومما كان متبقيا لدى من قوى للتجول فى الريف بغير مرشد وبغير كتاب وبغير حديقة وبغير معشب ،

أراني وقد عاودني هذا التهوس ولكن في عنف أشد. كذلك مما انتابني عندما استسلمت له في المرة الأولى . هأنذا مشغول جديا بمشروع حكيم هو استظهار مؤلف « موري » Murray (١) عن المملكة النباتية Regnum vegetable والتعرف الى كافة أنواع النبات المعروفة على سطح الأرض . ولما كنت في حالة لا تسمح بمعاودة شراء كتب النبات فقد أخذت على عاتقي أن أنسخ ما كانوا يعيرونني اياه . ولما كنت أعتزم إعادة انشاء معشب أغني في محتوياته من الاول ، وبأمل أن أضع فيه كل نباتات البحر والألب وكل أشجار الهند ، فأننى أبدأ كعادتي بالرخيص مئبل « الرتم » (عين القط) Mouron (٢) و « الكريزة الخضراء » (المقنونس الافرنجى) cerfeuil و « لسان الثور » Bourrache « والمرار » (حشيشة يعقوب) Seneçon وأنا أجمع العشب عن خبرة فوق قفص طيورى وكلما عثرت على نبتة جديدة من العشب كنت أقول لنفسى فى ارتياح : هاك أيضا نبات آخر .

لست أحاول أن أبرر اختياري لمتابعة تلك الهواية . اننى أجدها معقولة جدا ، وأنا موقن ، فى وضعى الراهن ، ان استسلامى للمتعة التى ترضينى هو حكمة كبيرة بل هو فضيلة كبيرة كذلك : ان هذه الوسيلة التى لا تدع أية جرثومة للانتقام أو الكراهية تتوالد فى قلبى ولكى أجد فى حياتى طعاما لتسليته ما ، يتعين على من غير شك أن يكون هناك طبع مصفى تماما من كل انفعالات الخلق . ان هذا لهو بمثابة انتقام من مضطهدى على طريقتى : ولم أك لأستطيع أن أنزل بهم من العقاب ما هو أقسى من أن أكون سعيدا بالرغم منهم .

أجل ، من غير شك، أن الحكمة تبيع لى بل تملى على أن أستسلم لكل ميل يستهوينى ولا يعوقنى شىء عن الانسياق وراءه ، ولكنها لا ترشدنى عن سبب استهواء هذا الميل لى وعن أى اغراء أستطيع أن أجده فى دراسة عقيمة لا جدوى من ورائها ولا تقدم يرجى لها . وتعود بى الى تمرينات الشباب والى دروس التلاميذ بينا أنا عجوز مخرف . وقد أصبحت متهالكا ثقيل الحركة قد ذهبت مرونتى وذاكرتى جميعا ، واذن فهذه مسألة بها من الغرابة ما أحب أن أفسره لنفسى . ذلك أنه يخيل لى ، حين تنجلي

(١) موري « جوان - اندرياس » Joannes-Andreas Murray طبيب وعالم نبات سويدي ولد في استكهلم سنة ١٧٤٠ ومات في جوتنجة بألمانيا سنة ١٧٩١ وهو واحد من تلاميذ لينية Linné المقربين .

(٢) من «المعجم المصور لاسماء النباتات» : القاهرة : ١٩٢٦ - لارمناك.ك. بديفيان.

تماما ، انها تستطيع أن تلقى ضوءا جديدا على هذه المعرفة لذاتي ، تلك المعرفة التي كرست لتحصيلها أيام فراغى الأخيرة .

لقد فكرت أحيانا تفكيرا عميقا ، ولكن نادرا ما كنت راضيا ، بل كان ذلك في أغلب الاحيان على غير رغبة منى وكانما بالاكراه . ان أحلام اليقظة تريحنى وتسرى عنى ، وأما امعان الفكر فيجهدنى ويحزنى . ان التفكير كان بالنسبة لى على السوام شاغلا شاقا لا سحر فيه . وقد تنتهى أحلام يقظتى أحيانا بالتأمل ، ولكن تأملتى فى أغلب الامر تنتهى بحلم يقظة . وخلال هذا الشرود تهيم روى وتسيح فى العالم على أجنحة الخيال فى نشوات تفوق كل متعة أخرى .

انى كلما تنوقتها فى كل صفائها غدا كل شاغل آخر لا طعم له دائما بالنسبة لى ، ولكن ما أن كان يلقي بى فى المجال الأدبى بسبب دوافع غريبة حتى أحس بالاجهاد من جراء العمل الذهنى ومن عبء شهرة منكودة وحتى أحس فى الوقت نفسه بأحلام يقظتى الحلوة تسقم وتفتت ، وحالما أضطر لاشغل بارغم منى بوضعى المرير لا أعود أستطيع العثور من جديد . الا فى القليل النادر . على هذه النشوات العريضة التى ظلت خلال خمسين عاما تحتل منى مكانة الثراء والمجد ، والتى - من غير أن تقتضىنى سوى الوقت - جعلتنى فى فراغى أسعد الاحياء طرا .

لقد كان ما أخشاه كذلك فى أحلام يقظتى أن يجنح خيالى بنشاطه فى نهاية الامر الى هذه الناحية مذعورا من تكباتى . وان الشسعر المستمر بالآلمى وهى تعتصر قلبى تدريجيا ينوء على فى نهلية الأمر بكل وطأتها . وفى هذه الحالة فرضت غريزة طبيعية لدى - تجعلنى أتحاشى كل فكرة مقبضة - السكينة على خيالى ، وجعلتنى - بتركيز انتباهى على كل ما يحيط بى من أمور - أتناول بالتفصيل للمرة الاولى مشهد الطبيعة الذى لم اكن قد تأملته اطلاقا حتى اذ ذاك الا ككل متكامل .

ان الأشجار والشجيرات والنباتات هى زينة الأرض ودثارها ، وليس من شىء يدعو الى الأسى كمشهد ريف عار أجرد ، لا تعرض للعين منسوى أحجار وطمى ورمال . ولكن ما أن تجيب الطبيعة الأرض فتعاود ارتداء ثوب عرسها بين خرير الماء وأهازيج الطيور حتى تقدم للانسان بين تناسق الممالك الثلاث مشهدا زاخرا بالحياة والاثارة والفتنة هو المشهد الوحيد فى العالم الذى لا تكل منه عيناه وقلبه أبدا .

وكلما كانت للمتأمل روح حساسة كلما استسلم لنشواته التى تثير فيه هذا التوافق . عندئذ يستخوذ على حواسنه حلم يقظة حلو عميق

فيضل بخدر لذيذ في سعة هذا الكون الرائع الذي يحس أنه امتزج به ،
وعندئذ تشرذ منه التفصيلات فلا يرى ولا يحس شيئا سوى ما يداخل
المجموعة . ولا بد من ظرف خاص يلم أفكاره ويحصر خياله حتى يستطيع
أن يلاحظ - مجزءا - هذا العالم الذي كان يجهد نفسه في الاحاطة به .

ان هذا هو ما حدث لي بطبيعة الحال عند ما كان قلبي - وقد حاق
به الضيق - يقارب ما بين ويركز كل انتفاضة من حوله كي يحتفظ
بهذه البقية من الحرارة على أهبة التبخر والضياع في ثنايا الانهيار الذي
كنت انحدر اليه تدريجيا . اننى كنت أتسكع متجولا في تكاسل في
الغايات والجبال ، لا أجسر على التفكير خشية استثارة أوجاعي . وكان
خيالى انذى يتأبى عند الشاق من الامور يدع حواسي تستسلم للانطباعات
الخفيفة ، الحلوة مع ذلك ، لما يحيط بي منها . وكانت عيناي تجولان
باستمرار من شيء الى آخر ، ولم يكن من المستطاع وسط مثل هذا التباين
الكبير ألا يوجد فيه ما يزيد من تركيز انتباهها واستيقافها مدة أطول .

لقد راقت لي رياضة العيون هذه التي تريح وتسلى وتروح عن الدهن
وتوقف الاحساس بالآلام حين يستشعر المرء الشقاء . ان طبيعة الأشياء
تساعد كثيرا على هذه السلوى وتجعلها أشد اغراء . ان الروائح الشذية
والالوان الزاهية والصور البالغة الرشاقة تبدو وكأنما تتنازع حق استرعاء
انتباهنا . وما علينا الا أن نحسب المتعة كي نستسلم الى أحاسيس بهنه
الدرجة من الحلاوة ولو أن هذا الاثر لم يبد على كل من صادفتهم تلك
المتعة فان ذلك يرجع لدى البعض الى انعدام الحساسية الطبيعية ، وهو
لدى الأغلبية يرجع الى أن أذهانهم وقد شغلت بأفكار أخرى لم تعد
تنصرف الا خلسة الى الامور التي تصك حواسهم .

وهناك أمر آخر يسهم كذلك فى ابعاد انتباه ذوى النوق السليم
عن المملكة النباتية ذلك هو اعتياد عدم البحث فى النبات عن غير
العقاقير والادوية . ولقد تناول «ثيوفراست» (1) Théophraste ذلك
من زاوية أخرى . ويمكن اعتبار هذا الفيلسوف كأنما هو عالم النبات
الوحيد فى العصور القديمة ، ولذا فهو لا يكاد يكون معروفا بيننا ، ولكن
بفضل من يدعى «ديوسكوريد» Dioscoride وهو مصنف مشهور لالوصفات
الطبية ، وبفضل شراحه ، استطاع الطب أن يستحوذ على نباتات محولة
الى عقاقير حتى لا يرى المرء فيها سوى ما كان لا يراه فيها أبدا ، بمعنى

(1) ثيوفراست Théophraste فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة لسبوس (حوالى
٢٧٢ - ٢٨٧ ق.م) ، كتب مؤلفا عنوانه Caractères

انه يرى فيها المزايا المزعومة التي ينسبها اليها «فلان أو علان» ولا يسرك المرء أن التنظيم النباتي يستحق في حد ذاته أن ينال عنساية ما . . . الأشخاص الذين يقضون حياتهم في ترتيب القواقع ترتيبا علميا يسعرون من علم النبات كأنما هو دراسة غير ذات نفع وذلك حين لا تلحق بها . . . يقولون بدراسة الخواص ، أي حين لا يهمل المرء ملاحظة الطبيعة التي لا تكذب أبدا والتي لا تروى لنا شيئا من هذا كله ، ليستسلم فقط لرأي الناس وهم كاذبون ، والذين يؤكدون لنا أشياء كثيرة يجب التسليم بها بناء على قولهم الذي يستند في أغلب الأمر على أساس رأي الآخرين . . . قف في مرعى مزهر كي تتفحص تباعا الأزهار التي يزدان بها ، فإن من يروتك كذلك سيظنونك « حلاق صحة » فيسألونك بعض الأعشاب لشفاء « قوبة الزيتونة » للاطفال أو « جرب » الرجال أو « نبي الخيل » .

ان هذا الاعتقاد قد انهار جانب منه في البلاد الاخرى وبخاصة في انجلترا بفضل ليناوس Linnaeus (1) الذي أبطل الى حد ما دراسة النبات في مدارس الصيدلة ناقلا اياها الى حقل التاريخ الطبيعي وميدان الانتفاع الاقتصادي . أما في فرنسا حيث كان تغلغل هذه الدراسة أقل لدى الطبقة المتعدنية ، فقد ظلوا في هذه الناحية من البدائية حتى ليصبح متطرف باريس مندحا ، حين يشهد في لندن حديقة فريدة مليئة بالاشجار والنباتات النادرة ، قائلا : « هاكم حديقة بالغة الجمال لصيدلاني » وعلى هذا الاعتبار كان آدم الصيدلي الاول ، ذلك لانه ليس من اليسور ان نتخيل حديقة تجمع شتات النباتات خيرا من جنة عدن . هذه الافكار الطبية ليست بالتأكيد كفيلة بأن تجعل من دراسة النبات دراسة مستحبة ، فهي تدبل ازدهار المراعى وتالق الزهور وتجفف نضارة الخمائل وتجعل الخضرة والظلال تافهة ممجوجة . ان كل تلك المركبات الرائعة الرقيقة لا تهم بحال من لا يود الا أن يجمع ذلك كله في هاون ، ولن يبحث المرء عن أكاليل للراعيات بين أعشاب لغسيل الامعاء . ان هذه الصيدلة كلها لم تكن تفسد أبدا صور الريف لدى ، فلم يكن هناك ما هو أبعد منها أكثر من « متقوعات الاعشاب » و « اللزقات » وطالما فكرت ، وأنا اتأمل عن كذب الحقول والبساتين والغابات وسكانها العديدين ، أن مملكة النبات كانت مستودعا للمواد الغذائية التي تمنحها

(1) كتاب نظام التقسيم الطبيعي للنباتات Systema naturae هو من تأليف عالم النبات السويدي لينيه Linne (1707 - 1778) نشر الكتاب عام 1735 ، وكان روسر مسجبا به (5)

الطبيعة للانسان والحيوان ، ولكن لم يخطر ببالي مطلقا أن أبحث فيها عن عقاقير وأدوية . ولست أرى شيئا في هذه المخصوصات المتباينة يرشدني الى مثل هذا الاستعمال . ولعلها كانت تحدد لنا الاختيار لو أنها أملت علينا ، كما فعلت بالنسبة للمواد الغذائية ، بل اننى لأحس أن المتعة التى أنالها بتجولى بين الحمائل قد يفسدها الشعور بالضعف البشرى ان هو أتاح لى التفكير فى الحمى والحصوة والتقرس ومرض الشينخوخة . ومن ثم فلن أناقش البتة النباتات فيما ينسب اليها من مزايا ضخمة ، بل سأكتفى بأن أقول : انه بافتراض أن تلك المزايا حقيقية فإنه من الحبث المحض أن يظل المرضى غاى مرضهم لانه من بين كل الامراض التى يتعرض الناس لها ليس هناك مرض واحد لا يقطع دابره عشرون نوعا من الاعشاب .

ان اتجاهات الفكر هذه - التى ترجع دائما كل شىء الى مصلحتنا المادية والتى تدعو الى البحث فى كل شىء عن كسب أو دواء ، والتى كانت حرية بأن تدفع الى النظر الى الطبيعة جميعا بغير تحيز لو أن المرء كان دائما فى ضحة طيبة - لم يكن لى منها نصيب مطلقا . وانى لأحس فى ذلك اننى على تقيض الآخرين ، فان كل ما يتصل بالاحساس بحاجاتى يحزن أفكارى ويفسدها ، ولم أجد مطلقا أى سحر حقيقى فى متع الفكر الا اذا أسقطت من حسابى تماما مصلحة جسدى . وهكذا - حتى حين كنت أومن بالطب ، وحتى لو أن الدواء كان مستساغا - فانى لم أكن لأجد نفسى أشغف مطلقا بهذه المتع يضيفها تأمل خالص مجرد ، ولن تستطيع روى أن تهمل وتحقق فوق الطبيعة ما دمت احس بها تشبث بقيود جسدى .

هذا الى اننى برغم انه لم تكن لى مطلقا ثقة كبيرة فى الطب الا انه كان لى الكثير منها فى أطباء كنت أقدرهم وأحبهم وكنت أترك لهم مطلق الحرية فى التسلط على جسدى بسطان كامل . أن خمس عشرة سنة من التجربة زودتنى بالعلم على حساب نفسى . أما وقد عدت الآن تحت سلطان قوانين الطبيعة وحدها فقد استعدت عن طريقها سابق صحتى . وحين لا يغدو للأطباء شيكاوى أخرى ضدى فمن ذا يستطيع أن يدهش من كراهيتهم ؟ اننى البرهان الحلى على تفاهة فنهم وعلى عدم جدوى جهودهم .

كلا . . ليس هناك أمر شخصى ، وليس هناك من شىء يتصل بمصلحة جسدى يستطيع أن يشغل روى حقا . اننى لا أفكر ولست أحلم مطلقا أحلاما أكثر امتاعا منها الا حين أتناسى نفسى . وانى لأحس انتشاء وسعادة غامرة لا يستطيع التعبير عنهما الى حد اننى أفنى - كما

يقال - في نظام الكائنات حتى امتزج بالطبيعة جمعاء . وطالما كان الناس أخوة لي فقد كنت أشيد مشروعات سعادة دنيوية ، ولما كانت هذه المشروعات دائما متعلقة بالمجموع ، فلم أكن أستطيع أن أكون سعيدا إلا بسعادة الجميع ، ولم يحدث أن مست قلبي مطلقا فكرة السعادة الفردية الا حين رايت اخواني لا يبحثون عن سعادتهم الا في شقوتي . وعندئذ كان من الواجب حتما تجنبهم حتى لا أبغضهم وعندئذ - بالتجائي الى ام الجميع - حاولت بين احضانها أن أفلت مما يصيبني به أبنائها ، وأصبحت منعزلا ، أو كما يقولون ، غير اجتماعي ، كارها للناس ، ذلك لأن أشد ألوان الوحدة قسوة كان يبدو لي أفضل من مجتمع الاشرار الذي لا يفتدى الا بالخيانة والبغضاء .

أما وأنا مضطر الى الامتناع عن التفكير خشية أن أفكر فيما حل بي من شرور على الرغم مني ، ومضطر أيضا الى اختزن مخنقات خيالي الضامك - وان كان فاترا - حتى لتستطيع كل تلك المفزعات أن تنفرني في نهاية الامر ، ومضطر كذلك الى محاولة نسيان أولئك الذين يهيئون على المهانات والسباب خشية أن يثيرني الغضب ضدهم ، فأنى لا أملك مع ذلك أن أتركز كلية في ذاتي ، لان روحى الفياضة تسعى - برغم ما بي - الى أن تبسط مشاعرها وكيانها على الكائنات الاخرى ، ولست أستطيع بعد - كما كانت الحال من قبل - أن أتقى بنفسى مطاطىء الرأس فى محيط الطبيعة الشاسع هذا ، لان ملكاتى - وقد ضعفت ووهنت - لم تعد تلقى أمورا على قدر من التحديد والثبات ، وفى متناولى كذلك ، بحيث أجدتها بها فى عنف ، ولا أحس معها بقوة تكفى لتمكننى من السباحة فى هذا الخضم من نشواتى القديمة . ان أفكارى لم تعد تقريبا سوى مشاعر ، وان مجال ادراكى لا يتعدى الامور التى تحيط بي مباشرة .

أما وأنا هارب من الناس وساع وراء العزلة وعاجز عن التخيل ، وعن التفكير أكثر عجزا وموهوب مع ذلك فى انوقت نفسه مزاجا متوقدا يبعدنى عن البلادة المسقمة المحزنة . . . فقد بدأت أشغل بكل ما يحيط بي ، وفضلت بغيرية طبيعية جدا - الاشياء الأكثر امتاعا ، ولم يكن فى الملكة المعدنية فى ذاتها ما يحجب فيها أو يجذب اليها ، ان ثرواتها المدفونة فى باطن الارض تبدو كأنما أبعدت عن انظار الانسان حتى لا تثير شرهه وهى هناك وكأنما احتفظ بها لتستخدم يوما لتزود الثروات الحقيقية التى هى اقرب الى متناوله والتي يقبذ لذة مذاقها كلما ازداد فسادا ، وعندئذ يجب أن يلجأ الى الصناعة والى الكد والعمل لتتقنه من فاقتة . انه ينقب فى باطن الارض ويتوغل باحثا فى صميمها ، مخاطرا بحياته، وعلى حساب

صحته ، عن ثروات خيالية بدلا من الثروات الحقيقية التي كانت تهبها ايام
عن طواعية عندما كان يعرف طريقه الى الاستمتاع بها . انه يهرب من
الشمس والنهار اللذين لم يعد جديرا برؤيتهما . انه يدفن نفسه حيا ،
وخيرا يفعل ، اذ لم يعد يستحق الحياة في ضوء النهار . . هناك المحاجر
والاغوار وورش الحدادة والافران ومعدات من السندان والمطارق ودخان
ونار ، تخلف جميعها الصور الحلوة للعمل في الحقول . . ان الوجوه
المصفرة لاولئك البؤساء الذين يسقمون من جراء الابخرة الكريهة في
المناجم والخذادين السود والمسوخ المنقرين . . كل اولئك هم المشهد
الذي تحله معدات المناجم - في باطن الارض - محل الخضرة والازهار
ومحل السماء الزرقاء والرعاة العاشقين والفلاحين الاشداء على سطحها .

اننى اعترف انه ايسر للمرء ان يجمع الرمال والاحجار وأن يملأ بها
جيوبه ومكتبه ، وأن يضى على نفسه بذلك سيما دارس الطبيعة . أما
الذين يتعلقون بهذه الالوان من المجموعات ويقتصرون عليها فهم في العادة
اغنياء جهلة لا يرومون من وراء ذلك سوى غرور المظهر . يجب على
المرء أن يكون كيميائيا ومن علماء الطبيعة كى يفيد من دراسة المعادن .

يجب القيام بتجارب شاقة باهظة التكاليف ، والعمل في المعامل
وانفاق الكثير من المال والوقت بين الفحم والبواتق والافران والمعوجات ،
بين الدخان والابخرة الخائفة ، معرضا حياته للخطر على الدوام على حساب
صحته في أغلب الامر . ومن وراء كل هذا العمل الكثيب المرهق يتأتى
عادة من المعرفة اقل بكثير مما يتأتى من الغرور . وأين هو اقل
الكيميائيين شانا الذى لا يظن أنه قد استطاع أن يتغلغل في أعماق العمليات
الكبرى للطبيعة لانه كشف - ربما عن طريق الصدفة - بعض التركيبات
الفنية الصغرى ؟

ان مملكة الحيوان اقرب الينا من غيرها وهى تستحق كذلك من غير
شك أن تدرس دراسة اوفى . ولكن أليست لهذه الدراسة أيضا في النهاية
صعوباتها ومازقها ومنفراتها ومتاعبها ولا سيما بالنسبة لمعتزل ليس له
أن يأمل في عون احد في لهوه أو عمله ؟ كيف يمكن ملاحظة تشریح أو
درس أو التعرف على الطيور في مساربها والاسماك في مسابحها والدواب
أخف من الريح وأقوى من البشر . . . التي لا يزيد استعدادها لان تتقدم
لتعرض نفسها لابعاثى عن استعدادى لتابعتها بغية اخضاعها عنوة
لدراستها ؟ واذن فستكون مصادرى القواقع والديدان والذباب وساقضى
حياتى لاهنا سعيا وراء الفراشات خارقا للحشرات التعسة ومشرحا
للفئران - حين أستطيع الحصول عليها - أو جيف البهائم التي قد أصادفها

ميتة • ان دراسة الحيوان لا تعد شيئا بغير التشريح اذ به يتعلم الانسان كيف يرتبها ويميز بين انواعها وفصائلها ، ويجب ان تكون هناك حظائر واحواض وزرائب كي تدرس من ناحية طبائعها وخصائصها ، كما يجب ان ترغم بطريقة كائنة ما تكون كي تبقى متجمعة جولى • انه ليس لدى من الميل او الوسائل ما يمكننى من ان احتفظ بها حبيسة ، كما انه ليست لدى الخفة اللازمة لتتبعها فى مراحها حين تكون طليفة • واذن فمن اللازم ان تدرس وهى ميتة وان تقطع اوصالها وتنتزع عظامها وينقب بتؤدة فى احشائها النابضة • يا له من جهاز كريبه ، معمل التشريح شذا ! فمن جثث عفنة ولحم رخو وسائل ••• ردم واعماء تثير الاشمزاز وهياكل كريبه وابخرة وبائية ! اقسام بشرفى ان جان جاك لن يلجأ اليها ليسعى وراء ملهاته فيها •

ايتها الزهور المتلألئة ••• يازينة المرعى ! ايتها الظلال الرطبة والجداول والاعراش والخضرة ! تقدمن لتطهير خيالى الملوث بكل هذه الامور الكريهة ! ان روحى اذ تقضى امام كل الاحداث الكبار لم تعد تتأثر الا بالمحسوسات • انه لم تبق لى الا احساسى ، ولم يعد الالم واللذة فى هذه الحياة اذ الدنيا يستطيعان ان ينالا منى الا عن طريقها • اننى حين يجتذبنى المبهج مما يحيطنى من امور اتأملها واشهدها واقارن بينها ثم اعرف اخيرا كيف اصنفها • ثم هانذا فجأة دارس نبات يحتاج الى ان يكونه من لا يود دراسة الطبيعة الا ليجد دائما اسبابا جديدة لتعشقها •

اننى لا ارمى البتة الى ان اتعلم فقد فات اوان ذلك ، هذا الى اننى لم ار مطلقا ان كل ذلك العلم أسهم فى سعادة الحياة ، ولكننى أحاول ان أتزود بالوان من التسلية السارة الميسرة التى أستطيع ان اتذوقها فى غير عناء ، والتى تستطيع ان تلهينى عن متاعبى • لن يكلفنى شيئا او يسبب لى ألما ان اتنقل متكاسلا من عشب الى عشب ومن نبات الى نبات لاتفحصها ولاقارن بين خصائصها المتباينة ولاسجل وجوه التشابه والاختلاف بينها ولالاحظ التنظيم النباتى بحيث أتبع تطور هذه الادوات الحية والدور الذى تقوم به ، وبحيث أوفق أحيانا للكشف عن قوانينها العامة وسبب اختلاف تركيبها والغرض منه ، وبحيث أستسلم لسحر الاعجاب العارف بالفضل لليد التى جعلتنى أستمتع بهذا كله •

ان النباتات تبدو وكأنها قد نثرت بوفرة على الارض كما تنتشر النجوم فى السماء لشدة ان الانسان - باغراء المتعة والفضول الى دراسة الطبيعة ••• أما الكواكب فبعيدة عنا ويتطلب الوصول اليها وتقريبها لنا

معارف أولية وأدوات وآلات وسلالم باللغة الطول . أما النباتات فهي موجودة بالطبيعة هنا . انها تولد تحت أقدامنا وبين أيدينا - كما يقال - ولئن كان صغر أجزائها الأساسية يحجبها أحيانا عن العين المجردة ، فان الأدوات التي تكشف عنها ذات استعمال أيسر بكثير من آلات علم الفلك . ان علم النبات هو مجال دراسة المعتزل الفارغ الكسول ، وان سنا عديبة وعدسة هما كل ما يلزمه من جهاز ليفحص النباتات . انه يتنزه ويتجول بحرية من شيء الى آخر ويستعرض كل زهرة باهتمام وفضول وما ان يبدأ في ادراك قواعد تركيبها حتى يتذوق في ملاحظتها لذة بغير ألم . . شديدة مع ذلك - كما لو كانت قد تكلفت الكثير . ان في هذا الشاغل الفارغ سحرا لا يحسه المرء الا في هدوء العواطف الكامل ، ولكنه يكفي وحده عندئذ ليجعل الحياة سعيدة حلوة ، ولكن ، ما ان يخالطه دافع لمصلحة أو غرور اما لشغل وظائف أو لتأليف كتب . . أى أنه عندما لا يرغب المرء في التعلم الا بقصد التعليم ولا يستعشب الا ليغدو مؤلفا أو معلما حتى يتلاشى ذلك السحر الحلو فلا يعود يرى في النباتات سوى وسائل الهواية ولا يعود المرء يرى متعة حقة في دراستها ، فهو لا يريد بعد أن يعرف ولكنه يظهر أنه يعرف . والمرء في الغاب ، كأنما هو على مسرح الحياة ، مشغول بالعمل على اعجاب الناس به أو هو مقتصر على دراسة النبات في المكاتب أو الحديقة على الأكثر بدلا من ملاحظة النباتات في الطبيعة ، ثم لا يشغل نفسه الا بالطريقة والمنهاج وهما مادة خالدة للجدل لا تعرف نبات جديد ولا تلقى أى ضوء حقيقى على التاريخ الطبيعى أو مملكة النبات . من هنا كانت الكراهية والاحقاد التي يثيرها التنافس على الشهرة لدى المؤلفين من علماء النبات على غرار ما يحدث بين العلماء الآخرين بل أكثر . وبتشويه تلك الدراسة المحببة ينقلونها الى داخل المدن والاكاديميات حيث لا يقل انحطاطها عما تنحط اليه النباتات المجلوبة التي يؤتى بها الى حدائق محبى الاستطلاع .

ولقد أسهمت استعدادات متباينة لتجعل من هذه الدراسة بالنسبة لى نوعا من الهوايات يملا الفراغ الذي خلفته كل الهوايات التي لم يعد لدى منها شيء . . انى أتسلق الصخور والجبال وأتوغل في بطون الوديان، وفي الغابات لاتوارى بقدر الامكان عن تفكير الناس وعن اذى الاشرار . وانه ليخيل الى وأنا في ظلال الغابة أننى منسى ، حر ، هادىء ، كما لو لم يعد لى من أعداء أو كأنما عملت أوراق أشجار الغابة على حمايتى من أذاهم كما تبعدهم عن ذاكرتى . وائنى لاتخيل - فى جهالتى اننى حين أقصيتهم عن تفكيرى سوف لا يفكرون هم فى أيضا . اننى لأجد لذة كبرى فى هذا

الوهم حتى لا كاد أستسلم له كلية لو أن مركزى وضعفى واحتياجاتى كانت تسمح لى بذلك . وكلما أوغلت العزلة التى أحيا فيها فى عمقها ، كلما كان من الضرورى أن يملأ فراغها شىء ما ، فكل من ياباه خيالى أو تطرده ذاكرتى تشغل مكانه النباتات التلقائية التى تعرضها لعينى فى كل ناحية الارض التى لم يسخرها الانسان . ان اللذة فى الخروج الى الصحراء للبحث عن نباتات جديدة تطفى على لذة الهروب من مضطهدى ، وما ان اصل الى موطن لا أرى فيها اى اثر للناس حتى أتنسم الهواء فى حرية اكثر كما لو كنت فى ملجأ لا تلاحقنى فيه بغضاؤهم .

انى سوف أذكر طيلة حياتى استعشابا قمت به يوما من الايام فى ناحية روبىلا Robaila جبل القاضى كلير (Clerc) . لقد كنت وحيدا وتوغلت فى منحنيات الجبل وأخذت أنتقل من غابة الى غابة ومن صخرة الى صخرة حتى بلغت ملاذا بلغ من انزوائه اننى لم أشهد فى حياتى من قبل منظرا أكثر استيعاشا منه . كانت أشجار الشوح السوداء تختلط بأشجار الزان الضخمة التى تهاوى العديد منها من الشيخوخة وتشابكت ببعضها البعض حتى احتجرت هذا الملاذ بحواجز لا يمكن اختراقها ، وكانت بعض الفتحات التى تتخلل هذا الحاجز المظلم لا تعرض للناظر من ورائها سوى صخور قطعت عموديا وسوى هوى مخيفة لم أكن لأجرؤ على النظر اليها الا ان انبطحت على بطنى ، وكان البوم والمصاصة وعقاب البحر يتردد صدى نعيقها فى صدع الجبال وكان يخفف مع ذلك من وحشة هذه العزلة قليل جدا من الطيور الصغيرة المعروفة ، وقد وجدت هناك حشيشة السنان السباعية *Dentaire heptaphyllos* وبخور مريم (سيكلامان) *Ciclamen* وعش النحل (سرخس عش الترن) *Nidus avis* وعشبا من الاعشاب الراتنجية والخيمية يشبه البقدونس *Grand laserpitium* وبعض نباتات أخرى فتنتنى وأدخلت السرور الى نفسى طويلا . ولكننى ، وقد سيطر على الطابع القوى لهذه الاشياء دون أن أشعر ، نسيت علم النبات والنباتات وجلست على حشيات من المساكينة (رجل الذئب) *Lycopodium* والعشب الندى والطحلب وأخذت أحلم فى مزيد من الراحة ، أرائى وكأنى فى ماوى مجهول من العالم جميعا حيث لا يستطيع مضطهدى أن ينتزغنى منه ، وسرعان ما خالطت ذلك الحلم نزعته غرور فكنت أقارن نفسى بأولئك الرحالة الكبار الذين يكتشفون جزيرة مهجورة ، وكنت أحدث نفسى فى اعجاب قائلا : « لا ريب اننى أول كائن وصل الى هذا المكان ، وكتبت أجدا فى شخصى (كولومب) آخر . وبينما أنا أختال فى هذا التفكير ، ستمت على مبعدة قليلة منى قرقة ما خيل الى اننى أعرفها . فأصغيت ، وتكررت

الصوت نفسه وتضاعف فقامت من مكاني دهشا يحدوني الفضول ونفنت من خلال أجمة من الاعشاب في اتجاه مصدر الصوت ولاحظت وجود مصنع للجوارب في منخفض يبعد عشرين خطوة من المكان نفسه الذي كنت أحسبني أول من ارتاده .

ولست أستطيع أن أعبر عن الاضطراب الغامض المتناقض الذي أحسسته في قلبي عند هذا الاكتشاف ، كان أول ما انتابني شعور بالفرح حين وجدتني بين آدميين في مكان كنت أحسبني وحيدا فيه . ولكن هذا الاحساس - في أسرع من البرق - سرعان ما أفسح مكانا لشعور ألبم بطول مدى كما لو كنت لا أستطيع في مغاور جبال الألب نفسها أن أفلت من القبضة القاسية لأولئك المتجسسين لتعذبي ، ذلك لانتى كنت واثقا تماما أنه ربما لم يكن هناك رجلان في هذا المصنع لم يسهما جديا في المؤامرة التي كان يتزعمهما الواعظ (مونتولين) Montmolin (١٥) والتي كان يحرك من بعيد دوافعها الأولى ، وسرعان ما أبعدت هذا الحاطر الكئيب وانتهى الامر بي الى ان اضحك في سريرتي واضحك من غروري الصبياني ومن الطريقة الهزلية التي عوقبت بها من أجله .

ولكن في الواقع من ذا الذي كان يتوقع أن يجد مصنعا في هوة سحيقة ؟ انه ليست هناك في العالم سوى سويسرا التي تستطيع أن تعرض هذا الخليط من الطبيعة البرية والصناعة الانسانية . وليست سويسرا بأكملها - على حد القول - سوى مدينة كبيرة ، شوارعها أكبر ز أطول من شوارع سانت أنطوان Saint-Antoine تنتشر فيها الغابات وتتخللها الجبال وتصل الحدائق الانجليزية ما بين بيوتها المتناثرة المنعزلة عن بعضها وبهذه المناسبة تذكرت استشعابا آخر كان دي بيرو du Peyrou وديشرني d'Escherny والكولونيل بيوري colonel Pury والقاضي كلير justicier Clere وأنا ، قد قمنا به منذ وقت على جبل Chasseron شاسيرون(٢) الذي يكشف المرء من قمته سبع بحيرات . وقد قيل لنا انه لم يكن هناك فوق هذا الجبل سوى بيت واحد ولم يكن في استطاعتنا التكهن على وجه الدقة بمهنة ساكنه لو لم يصف الى ذلك القول بأنه كان

(١) كانت خطبة الواعظ مونتولين Montmolin ضد روسو سببا في خروج اهل موتييه Motiers غاضبين فالتقوا بالحجارة على نوافذ بيت روسو في اليوم الاول من سبتمبر عام ١٧٦٥ .

(٢) لا يقصد هنا جبل شاسيرون Chasseron بل شاسيرال Chasseral ومن هذا الجبل يمكن مشاهدة البحيرات السبع .

كتيبا وأنه كان يباشر أعماله كذلك بنجاح كبير في الاقليم . ويخيل الى أن واقعة واحدة من هذا النوع تعرفنا بسويسرا أكثر من كل ما يقدمه المسافرون من أوصاف .

وهاك واقعة أخرى من هذا النوع - أو تكاد - ليست أقل تعريفا لنا بشعب مختلف عنا تماما : ذلك أنه خلال اقامتي في جرنوبل Grenoble كثيرا ما كنت أقوم باستشعابات صغيرة خارج المدينة مع السيد بوفيه Bovier (1) المحامي بذلك الاقليم لا لأنه كان يحب علم النبات أو كان على دراية به ، ولكن لأنه نصب من نفسه حارسا لي وآلى على نفسه ألا يتركني خطوة واحدة ما استطاع الى ذلك سبيلا . وذات يوم كنا نتنزه على ضفة نهر الايزير L'Isère في منطقة حافلة بالصفصاف الابري ورايت على هذه الشجيرات فاكهة ناضجة ، وتملكني الفضول لتذوقها ، ولما وجدت بها بعض الحموضة التي راقت لي جدا ، أخذت آكل من هذه الثمار لانعش نفسي . وكان السيد بوفيه واقفا الى جوارى دون أن يقلدني ودون ان يقول شيئا . وفجأة أقبل أحد اصدقائه الذي ما أن رأى التقط هذه الثمار حتى قال : ايه يا سيدي ! ما هذا الذي تفعله ؟ الا تدري أن هذه الفاكهة سامة ؟ فصحت دهشا جدا : هذه الفاكهة سامة ! فأجاب : ما في ذلك من ريب ، وكل الناس يعلمون ذلك تماما حتى ان واحدا من الاقليم لم يفكر في تذوقها. فنظرت الى السيد بوفيه وقلت له : لم اذن لم تنبهني الى ذلك ؟ فأجابني باحترام قائلا : آه يا سيدي ! انني لم أكن أجروؤ لأسمح لنفسى بهذه الحرية . فأخذت أضحك من هذا التواضع الخاص بمقاطعة دوفينييه Dauphiné وأنا أتوقف مع ذلك عن الاستمرار في تناول هذه الوجبة الصغيرة . وكنت مقتنعا - كما لا أزال - ان كل انتاج للطبيعة مستساغ الطعم لا يمكن ان يسبب اذى للجسم ، أو هو - على الاقل - لا يؤذيه الا بالاغراط فيه. ومع ذلك فأعترف انني طاوعت نفسي قليلا بقية اليوم وان خالط ذلك بعض القلق وتناولت وجبة عشاء في شهية كبيرة وثمت خيرا من ذلك وصحوت في الصباح وأنا أكمل ما أكون صحتة بعد أن التهمت في اليوم السابق خمس عشرة أو عشرين ثمرة من ذلك الفاسول الرومي hippophoeه الفظيخ الذي تكفى منه كمية ضئيلة جدا للتسمم ، على نحو ما قاله لي

(1) رواية المحامي بوفيه Bovier حوالي عام 1802 تختلف عن رواية روسو ، وذلك في A. Jevy : Un document inédit sur le séjour de J.J. Rousseau à Grenoble en 1768 Vitry — le — Français, 1898, p.p. 42 - 8,

اذ يقول فيها انه لم يقرأ تفسير روسو لتلك الحادثة الا بعد نشر « الامتزازات » التي تلها « أحلام اليقظة » .

الجميع في جرنوبل في اليوم التالي: وقد بدت لي تلك المغامرة من الطرافة بحيث لا أذكرها أبدا دون أن أضحك من الحذر المستغرب الذي أبداه السيد بوفيه الملقى .

كانت كل جولاتي لدراسة النبات والانطباعات المختلفة لمواطني الأشياء التي أثرت في ، والأفكار التي بعثتها في نفسي ، والاحداث التي خالطتها، كل ذلك خلف في نفسي انطباعات تتجدد بمشاهدة النباتات التي تستعشب من تلك المواطن نفسها .

انني سوف لا ارى مطلقا هذه المناظر الريفية الرائعة وهذه الغابات وهذه البحيرات وهذه الاعراش وهذه الصخور وهذه الجبال التي طالما مست رؤيتها شغاف قلبي . أما الآن وأنا لا أستطيع بعد أن أجوب هذه البقاع السعيدة فلست أملك سوى أن أفتح معشبي وسرعان ما ينقلني اليها . ان اجزاء النباتات التي جمعتها منها تكفي لتذكرني بذلك المشهد الرائع . ان هذا المعشب بالنسبة لي بمثابة يوميات استعشاب تجعلني أعاوده بسحر جديد ، ولها من الاثر ما هو بمثابة المنظار الذي يعيد تصويرها أمام عيني .

هذه هي سلسلة الافكار الثانوية التي تربطني بعلم النبات . انها تجمع وتعيد الى خيالي كل تلك الافكار التي تزيد من ارضائه . فالراعي والأمواه والغابات والعزلة ثم السلام بصفة خاصة والراحة التي يلقاها المرء خلال هذا كله . . انها جميعا تعاد الي ذاكرتي باستمرار عن طريق هذه السلسلة من الافكار الثانوية . . وهي تجعلني أنسى اضطهادات الناس وكراهيتهم واحتقارهم وامتهاناتهم وكل الإلام التي قدموها ثمنا لتعلقى الحثون الصيادق بهم . . انها تنقلني الى ديار هادئة بين قوم بسيطاء طيبين كأولئك الذين عشت معهم في سالف الزمان . . انها تذكرني بإيام شبابي ومغنى البريئة ، وتجعلني أستمتع بها من جديد ، وهي غالبا كذلك ما تجعلني سعيدا في ثنانيا قدر أشد ما يكون تكندا يمكن أن يكون قد ابتلى به الإنسان .

الجملة الثامنة

كلما أعمت الفكر في حالات نفسي وفي كل مواقف حياتي ، أدهشني للغاية أن أرى مبلغ ضالة التناسب بين تدابير قدرتي المختلفة وبين مشاعري المعتادة - من هناء أو شقاء - التي اعتدتني بسبب تلك المواقف . ان الفترات المختلفة لهنائي القصير لم تترك لي تقريبا أية ذكرى حلوة للاحساس الكامن المقيم الذي كانت تؤثر على به ، بل وعلى العكس من ذلك كنت أحسنى على اللوام ، خلال ما انتاب حياتي من مكاره ، مفعما بمشاعر رقيقة مثيرة حلوة ، كانت تبدو - وهي تسكب بلسما شافيا على جراح قلبي المضمي - وكأنما تحول الالم الى لذة تعاودني ذكرها المحببة وحدها مجردة من ذكرى الآلام التي كنت أستشعرها في الوقت نفسه . انه يخيل الى انني تفوقت من حلوة الوجود أكثر مما عشت حقيقة ، وذلك حين صحت يد القدر - كما يقال - مشاعري حول قلبي . فلم تكن لتبدد خارجة حول أمور هي موضع تقدير الناس لا تستحق لذاتها منه سوى القليل وهي الشغل الشاغل لأناس يظن انهم سعداء .

حين كانت الامور منتظمة من حولي ، وحين كنت راضيا عن كل ما يحيط بي وعن الوسط الذي كان على أن أعيش فيه ، كنت أملؤه بمحبتتي . وكانت روحى الفياضة ترفرف فوق أشياء أخرى . ولما كان يباعد بيني وبين ذاتي الف لون من الميول عن طريق روابط الود التي كانت تحتل قلبي على اللوام ، كنت أتناسى نفسي بصورة ما وكنت أفرغ كلبية لكل ما استغرب من أمر على ، وكنت أحس في اضطراب قلبي المستمر بكل تقلبات الامور الانسانية . ان هذه الحياة العاصفة لم تدع لي سلاما في الداخل أو راحة في الخارج . كنت سعيدا في مظهرى ولم تكن لدى عاطفة تقوى على احتمال محنة التفكير استطيع بها حقا ان أرضى عن نفسي . اننى لم أستشعر قط رضا كاملا عن الآخرين أو عن نفسي ، كان صخب الناس يطمش صوابي وكنت أضيق بالعزلة . كنت دائما في حاجة الى تغيير المكان ولم أكن أحس بالراحة في أى مكان . ومع ذلك فقد كتبت موضع الترحيب وكان الناس يودونني ويحسنون استقبالى ويدلونني في كل

مكان لم يكن لي من عدو أو حقد أو حسود ، ولما كان الناس لا يسهون الا لاسداء المعروف لي ، فأننى غالباً ما كنت احسن بلذة اسداء المعروف لكثير من الناس . كنت بغير مال او وظيفة ولم يكن هنالك من يرعاني ولم تكن لدى مواهب كبيرة احسنت تنميتها أو التعرف عليها ، وكنت أستمتع بالمزايا المتصلة بذلك كله ولم أرى أحداً في أية حال له من الحظ أفضل من حظي ، واذن فماذا كان ينقصني لأكون سعيداً ؟ أننى لاجهل ذلك ، ولكننى اعلم أننى لم اكن سعيداً . ماذا ينقصني اليوم لاكون أتعس الخلق طراً ؟ لا شيء من كل ما استطاع البشر اضافته من عنده للوصول الى ذلك . واذن ففي هذه الحالة التى تستحق الرثاء لن اغير كذلك من حالى أو قدرى مقابل أسعدهم حظاً بل اننى أفضل أكثر من ذلك لو ظلمت أنا نفسى بكل شقوتى على أن أكون أياً من أولئك الناس بكل هنائهم . . . وباقتصادى على نفسى وحيدى ، فأننى أعتدى حقاً على الغذاء الخاص بى . . . ولكن هذا الغذاء لا ينفد . . . اننى أكفى نفسى بنفسى ولو اننى اجترت . كما يقال . على لا شيء ، وان خيالى الذى نصب وافكارى التى خدمت لم تعد تمد قلبى بزاد . . ان روحى المثقلة التى تعطلها أعضائى تنهار يوماً بعد يوم ولم يعد لها . تحت وطأة هذه الأثقال . من قوة تستطيع معها ان تنطاق ، كما كان العهد من قبل ، خارج رداثها البالى .

ان هذا الرجوع الى أنفسنا هو ما تضطرننا اليه الشدائد ولعل ذلك ما يجعلها أقل ماتكون احتمالاً لدى معظم الناس . أما بالنسبة لى . أنا من لا أجد فى لوم نفسى سوى هفوات . فأننى أتهم ضعفى من أجلها ، واتعزى لان شراً مذبراً لم يخامر قلبى قط .

ومع ذلك . فما لم اكن غيبياً . انى لى أن أتأمل موقفى لحظة واحدة دون أن أراه كذلك مريباً كما شاء لهم أن يجعلوه ، ودون أن أقضى حزناً وبأساً ؟ اننى بدلاً من ذلك ، وأنا أشد الناس حساسية ، أتأمله ولا أتأثر له ، كما اننى بغير صراع او مجاهدة مع ذاتى أرى نفسى بغير مبالاة تقريبا فى حال قد لا يستطيع أى انسان آخر ان يحتمل مشهدها دون فزع .

كيف وصل بى ذلك الى هذا المدى ؟ لقد كنت أبعد ما أكون عن هذه الحالة الأمانة لدى أول شك فى المؤامرة التى حيكت خيوطها من حولى منذ امد بعيد دون أن أتنبه اليها مطلقاً . لقد قلب هذا الاكتشاف الجديد كيانى رأساً على عقب ، وفاجأتنى النبذالة والخيانة على حين غرة . ترى أية نفس فاضلة هيئت لهذه الألوان من العذاب ؟ انه كان يجب أن تستحقها

حتى تتنبأ بها . لقد سقطت في كل الشراك التي حفرت تحت أقدامى ،
واستحوذ على الغيظ والغضب والهديان ففقدت اتزانى . لقد اضطرب
عقلى ، ومن خلال غياهب الظلمات الموحشة التى لم يكفروا عن ابقائى
مغربقا فيها .. لم اعد المح بصيصا من النور اهتدى به او سندا او
متنفسا استطيع بهما ان اظل ثابتا وان اقاوم الياس الذى كان
يشدنى اليه .

كيف استطيع المرء ان يعيش سعيدا وهادئا في مثل هذه الحالة
البشعة ؟ اننى لا ازال اعانيها ولازال غارقا اكثر من ذى قبل . ولقد
وجدت فيها الهدوء والسلام وهانذا أعيش فيها سعيدا آمنا وهانذا اسخر
مما يسببه مضطهدى لانفسهم من عذاب مقيم ؛ لا استطاع تصديقه .
في حين انا احيا في سلام مشغولا بالازهار ونصالها واللهو البريء ، بل
ولا افكر فيهم .

فكيف تم هذا الانتقال ؟ لقد تم ذلك طبيعيا ، دون ان اشعر وبغير
مشقة . لقد كانت المفاجأة الاولى مروعة ؛ لقد وجدتنى انا الذى كنت
احسب نفسى جديرا بالحب والتقدير ، انا الذى كنت اعتقد اننى مبجل
معزز لاننى كنت استحق ذلك .. لقد وجدتنى فجأة فى اهاب وحش مرعب
لم يك له من قبل ضريب .

اننى لارى جيلا كاملا يندفع بأسره نحو اعتناق هذا الراى العجيب
دون تفسير او شك او خجل ، ودون ان استطيع ان اصل قط الى معرفة علة
هذا الانقلاب الغريب . لقد ناضلت في عنف ، وكاتما ثم اعلم الا على
احكام قيدي . لقد أردت ان اضطر مضطهدى الى التفاهم معى ؛ ولكنهم
لم يابهاوا ، وبعد ان طال تعديبى دون نتيجة كان لابد لى من ان استرد
أنفاسى ، ومع ذلك فقد ظل الامل يراودنى دائما . وكنت احدث نفسى
قائلا : « ان خيلا على هذا القدر من التبلد ، وتمنعا على هذا القدر من
الستخف ، لا يستطيع ان يشتمل الجنس البشرى قاطبة ، فهناك ذور عقول
لا يسهمون في هذا البنيان ، وهناك نفوس عدول تمقت المخاتلة والخونة .
فلأبحث على القى فى نهاية المطاف انسانا فان وجدته فقد افحموا ،
لقد بحثت عبثا ولكننى لم اجده مطلقا . ان التحالف شامل بغير استثناء
او رجعة واننى لوائق من أننى سأختتم حياتى فى هذا المعزل المخيف دون
ان أنفذ أبدا الى خفائه .

اننى فى هذه الحالة التى تستحق الرثاء ، بعد مخاوف طويلة ، وجدت
بدلا من الياس الذى كأنما كان يجب ان يكون نصيبى فى نهاية الامر ،
وجدت من جديد الصفاء والأمن والسلام بل السعادة ما دام كل يوم من

أيام حياتي يذكرني في غبطة بالامس الدابر حتى لا أطمع في غدى في أكثر من ذلك .

من أين يأتي هذا الاختلاف ؟ من أمر واحد : ذلك اننى تعلمت كيف أحمل نير الحاجة دون تدمر ، ذلك اننى كنت أجهد فى أن أظل متعلقا كذلك بألف شيء ، وانه حين أفلتت منى تلك الدعائم تباعا واقتصررت على نفسى وحدى لقيت الاستقرار أخيرا . أما وقد ضيق على الخناق من كل جانب فاننى أحتفظ بتوازنى لاننى لا أعلق بشيء بعد ولا أعتمد على غير ذاتى .

اننى حين كنت أثور فى كثير من الحماس ضد الراى العام كنت أحمل كذلك نيره دون أن أفطن الى ذلك . ان المرء ليود أن ينال التقدير ممن يقدرهم ، وكلما استطعت أن أظن بالناس ، أو ببعضهم على الاقل خيرا لم يكن ممكنا أن أهمل آراءهم كذلك بالنسبة لى . لقد كنت أرى أن حكم الراى العام عادل فى أغلب الامر ، ولكننى لم أكن أرى أن تلك العدالة نفسها كانت نتيجة مصادفة ، وأن الأسس التى يقيم عليها الناس آراءهم ليست مستمدة الا من أهوائهم أو من معتقداتهم التى هى ثمرتها (أى الأهواء) ، وانه حتى عندما يصيبون فى أحكامهم فانه غالبا ما تصدر كذلك هذه الاحكام الصائبة عن مبدأ فاسد كما يحدث عندما يتظاهرون بتشريف قدر امرى لنجاح وصل اليه ، لا بروح من العدالة ولكن ليتخذوا مظهر عدم التحيز وهم يفتابون نفس الشخص من نواح أخرى كما يروق لهم .

ولكننى حين رأيتهم - بعد كل هذا البحث الطويل العقيم - يظنون جميعا بغير استثناء فى أشد النظم ظلما وسخفا استطاعت روح الشر أن تمنشق عنها .. وحين رأيت انه عندما يتعلق الامر بنى يطرد العقل من الرءوس والعدالة من القلوب جميعا ، وحين رأيت جيلا متهورا يستسلم بأسره لفضبة قادته العمياء ضد تعس لم يرتكب أبدا ، ولم يرد ، ولم يسبب اذى لانسان ، وحين - بعد أن جهدت عبثا فى البحث عن انسان ، كان من الواجب على فى نهاية الامر ان اطفىء سراجى وأصيح قائلا : لم يعد هناك بعد من انسان . عندئذ بدأت ارانى وحيدا على الارض وأدركت ان معاصرى لم يكونوا بالنسبة لى سوى كائنات آلية لا تتصرف الا بقوة الاندفاع التى لم اكن بمستطيع ان أقوم بعملية حسابية لحركتها الا عن طريق «قوانين الحركة» . ان أية نية أو أية عاطفة كنت أستطيع افتراضها فى نفوسهم لم تك أبدا لتفسر لى مسلكهم نحوى فى صورة أستطيع ان أدركها ، ومن ثم توقفت دخائل نفوسهم عن أن تكون شيئا ما بالنسبة لى . اننى لم أعد أرى فيهم سوى كتل متفساوتة الحركة مجردة امامى من كل قيمة خلقية .

اننا ننظر أكثر ما ننظر حين يصيبنا الاذى الى النية أكثر من نظرنا الى الأثر . ان قطعة من القرميد تسقط من سقف قد تكون اصابتها أشد ، ولكنها لا تسبب من الأيلام ما تسببه قطعة من الحجر تسدد عن قصد بيد شريرة . ان الضربة قد لا تصيب الهدف أحيانا ولكن القصد لا يخطيء مرماه أبدا . فالآلم الحسى هو أقل ما يحسه المرء من اصابات القدر . وحين لا يعرف الاشقياء الى من يعزون ما يحسون من شقاء فانهم ينسبون الى القدر الذى يمثلهونه شخصا ، والذى يعبرونه عيوننا وادراكنا يستطيع بها إيلائهم عن قصد . وهكذا يستشيط اللاعب غيظا حين يصيبه الغم من جراء الحسارة دون أن يدري على من يصب جام غضبه . انه يتخيل قدرا يعتمد التحرش به عامدا لإيلامه ، وحين يجد ما يغذى غضبه ، يحتد وتشتعل ثورته ضد العدو الذى توهمه . أما الرجل العاقل الذى لا يرى فى كل ما يحل به من رزايا سوى ضربات الضرورة العمياء فانه لا تعتريه هذه الاهتياجات المجنونة . انه يصرخ فى ألمه ولكن دون هياج وبغير غضب ، وهو لا يحس من الألم الذى غدا فريسة له بغير الإصابة المادية ، أما الضربات التى يتلقاها فمهما أصابت جسده فانها لا تصل قط الى قلبه .

انه لكثير أن يصل الأمر فى ذلك الى هذا الحد ، ولكن ليس هذا كل شيء ان توقف عنده . ان فى هذا ايقافا للآلم ولكن ذلك يعنى ترك الجذور ذلك لان هذه الجذور ليست فى الكائنات الغريبة عنا بل هى فى ذواتنا وهنا يتحتم العمل على اقتلاعها نهائيا . ان ذلك هو ما استشعرته جليا منذ بدأت اعود الى نفسى . ان عقلى لا يرى سوى سخافات فى كل التفسيرات التى كنت أحاول أن أرجع اليها كل ما يحل بى . اننى أدركت أن أسباب هذا كله وأدواته ووسائله كان يجب أن تكون عدما بالنسبة لى ما دامت مجهولة لى ولا يستطيع تفسيرها ، وانه كان يتعين على أن أعد تفاصيل ما حل بى كما لو كانت من فعل القدر وحده ، وما كان على أن أفترض توجيهها أو قصدا أو دافعا خلقيا ، وانه كان يجب على أن أخضع لها دون تفكير ودون تمرد لان ذلك لم يكن مجديا ، وان كل ما كان على كذلك أن أقوم بعمله فى هذه الدنيا ، اذ اعتبر نفسى فيها ككائن سلبى سلبية مطلقة ، هو اننى يجب ألا أستنفد فى مقاومة غير مجدية لقدرى ما كان باقيا لى من قوة تعيننى على احتمالها ، ذلك ما كنت أحدث نفسى به وكان عقلى وقلبى يؤمنان عليه ، ومع ذلك فقد كنت أحس بهذا القلب لا يزال يتدمر . . من أين جاء هذا التدمر ؟ لقد بحثت عنه ووجدته ، ان مصدره عزة النفس التى - بعد ان استثيرت ضد الناس - ظلت تقاوم العقل .

ان هذا الكشف لم يكن من السهولة بالقدر الذى قد يظنه المرء لان بريثا مضطهدا يظل طويلا ينظر الى زهو فرديته الضئيلة كأنما هي حب مجرد للعدالة . ولكن ما أن يعرف كذلك النبع الحقيقى معرفة تامة حتى يغدو من اليسير انضابه او - على الاقل - تحويله . ان احترام المرء لنفسه هو أكبر محرك للتنفوس العزيزة، كما أن حب الذات - الغزير فى أوهامه - يتخفى ليتبدى للمرء وكأنما هو هذا الاحترام للنفس ، ولكن ما أن ينكشف ذلك الغش فى نهاية الامر ، ولا يعود حب الذات يستطيع أن يستخفى ، حتى لا يعود هناك اذ ذاك ما يخشى منه ، ومع أن المرء يقضى عليه فى صعوبة الا أنه يقهره على الاقل فى يسر .

انه لم يكن لدى أبدا ميل كبير للاعتداد بالنفس ولكن هذه العاطفة المصطنعة كانت تتوقد فى نفسى حينما كنت فى المجتمع وبخاصة حين غدوت مؤلفا . ربما كان حظى منها لا يزال أقل مما لدى غيرى ومع ذلك فقد كان لدى منها قدر هائل .

ان الدروس القاسية التى تلقيتها سرعان ما احتجزته فى حدوده الاولى انه (أى الاعتداد بالنفس) ابتداء بالثورة ضد الظلم ولكنه انتهى بأن احتقره . وهو بانعكاسه على روىه وبقطعه للعلاقات الخارجية التى تجعله كثير المطالب وبغزوفى عن المقارنات والمفاضلات قنع بأن أكون طيبا بالنسبة لنفسى ، وعندئذ - وقد أصبح (الاعتداد بالنفس) حبا لذاتى - انتظم فى سلك الطبيعة ثانية وخلصنى من نير عرف المجتمع .

منذ ذلك الوقت استعدت سلام الروح بل وما يكاد يكون الهناء بعينه ، ذلك لانه فى أى موقف يجد المرء نفسه ، فانه لا يشقى دائما الا بسببه (الاعتداد بالنفس) وحين يصمت ، والعقل يتكلم ، فان العقل يعزينا فى نهاية الامر عن كل الآلام التى كان تجنبها يتوقف علينا بل وانه يقضى مادامت لا تؤثر علينا فورا ، ذلك انه من المؤكد عندئذ أن المرء يستطيع أن يتجنب أشد اصابتها ايلاما بالكف عن الاهتمام بها . أنها لا شىء بالنسبة لمن لا يفكر فيها . ان الاساءات والاحن وهضم الحقوق والاهانات والمظالم ليسب شيئا لمن لا يرى فى الآلام التى يقاسيها سوى الألم نفسه ، لا النية فيه ، ولن لا تعتمد مكانته فى تقديره الشخصى على ما يروق للآخرين أن يأذنوا له به . وكيفما يود الناس رؤيتى فانهم سوف لا يستطيعون تغيير ذاتى . اننى برغم قوتهم وبرغم كل دسائسهم الدفينة سأظل - مهما فعلوا - كما انا ، بالرغم منهم . حقا ان ميولهم من ناحيتى تؤثر على مركزى الفعلى . ان الحاجز الذى اقاموه بينهم وبينى بسببى كافة موارد القوت والمعونة فى شيخوختى وعوزى . انه يجعل

من المال نفسه شيئا غير ذي نفع مادام لا يقوى على ان يوفر لى المطلب
الضرورية . انه لم تعد هناك صلات ولا مساعدات متبادلة ولا مراسلات بينهم
وبيني . اما وقد غدوت وحيدا بينهم فانه لم يعد لى من مورد سوى ذاتى فقط
وهذا المورد شحيح فى سنى هذه وفى الحالة التى أنا عليها . ان هذه
الآلام بالغة ولكنها فقدت كل وطأتها على منذ عرفت كيف احتمالها دون ان
اثور بسببها . ان النواحي التى نستشعر فيها الحاجة الملحة نادرة دائما ؛
ويضاغف منها التبصر والخيال ؛ وان المرء يستشعر القلق ويشقى نفسه
بسبب استمرار هذا الاحساس . واما بالنسبة لى فمهما أعلم اننى ساقسى
فى الغد فانه يكفى ؛ لاكون هادئا ؛ الا اقاسى اليوم . اننى لا اتأثر اطلاقا
عما أتوقعه من شر ولكن فقط مما أحس ، وذلك ما يجعله أمرا تافها ، وما دمت
وحيدا ومريضا ومهملا على سريرى ؛ فاننى أستطيع ان أموت فوقه . فاقه
وبردا وجوعا دون ان يشق ذلك على أحد . ولكن ما أهمية ذلك ان لم
يشق على أنا نفسى ، وكان اهتمامى بمصيرى ، مهما يكن ، أقل من اهتمام
الآخرين به ! أليس هذا عبثا ، وعلى الاخص فى سنى هذه ؛ اننى تعلمت
ان أرى بغير اكتراث الحياة والموت والمرض والصحة ، والغنى والفقر ،
والمجد والعار على السواء . ان الشيوخ الآخرين جميعا يتوجسون من كل
شئ ، واما أنا فلا يقلقنى أى شئ ، اذ يستوى لى كل ما يستطيع أن يحل
بى ، وليس عدم المبالاة هذا ثمرة حكمتى ولكنه من عمل أعدائى اذ هو
يصبح تعويضا عن الآلام التى يسببونها لى ؛ اما وقد جعلونى لا اتأثر
بالشدائد فانهم أحسنوا الى أكثر مما لو أنهم جنبونى رمياتها ، فقد كنت
سأظل أتهييها ما دمت لم أجربها بدلا من أن أقهرها فلا أعود أخشاها .

ان هذا الميل يسلمنى ، وانا بين ما يعترض حياتى من صعاب ؛ الى
احمال ذاتى اهمالا يكاد يكون مطلقا كما لو كنت احيا أحيانا حياة رضية
تماما . وفيما عدا اللحظات القصار التى يردنى فيها وجود الاشياء الى أشد
ألوان الحيرة الموجهة ، فانه فيما بقى من زمن - وقد أسلمتني ميولى الى
العواطف التى تجتذبني - يغتنى قلبى كذلك على المشاعر التى كان مخلوقا
من أجلها فأستمتع بها مع الكائنات الخيالية التى تخلقها ، والتى تتقاسمها
كما لو كانت تلك الكائنات موجودة فعلا . انها كائنة بالنسبة لى أنا من
خلقتها ، فانا لا أخشى أن تخوننى أو تهجرنى ، انها ستظل قائمة ، ما دامت
شعرتى ، وستكون كقيلة . بأن تنسينى اياها .

ان كل شئ يعود بى الى حياتى السعيدة الحلوة التى ولدت من أجلها ؛
اننى أقضى ثلاثة أرباع حياتى اما مشغولا بأمور ثقافية ، لطيفة مع ذلك ،
أسلم لها فى لذة فكرى وحواسى ، أو فى صحبة بنات خيالى التى خلقتها

وفق رغبة قلبي ، والتي يغدو اتصالي بها مشاعره ، او مع نفسي فقط راضيا عن ذاتي وقد افعمت هناء احس انني استحقته . كان حبي لذاتي في هذه الامور جميعا يقوم بكل المهمة ، اما عزة النفس فليس لها دخل في ذلك . وليس الامر كذلك في اللحظات الكثيرة التي اقضيها كذلك بين الناس العوبة للملاطفاتهم الخداعة ومجاملاتهم المنتفخة الفارغة ومكرهم المعسول . وعلى أي وجه تلقيتها فانه كان للكرامة عندئذ دورها . فالكراهية والضغينة اللتان اشهدتهما في قلوبهم من خلال هذا الغلاف الغليظ تمزقان قلبي اسي ، هذا الى ان انسياقهم في غباء وراء فكرة اعتباري مغفلا تضيف الى هذا الاسى كذلك قدرا تافها من الغم هو ثمرة اعتداد بالنفس ابله ، احس بكل حماقته وان كنت لا أستطيع التغلب عليه . ان الجهود التي بذلتها لا تجلد امام نظراتهم الشامتة والهائنة لا يمكن تصورها . لقد مررت مائة مرة بالمتنزهات العامة وبالاماكن التي يكثر تردد الناس عليها وليس لي من هدف سوى رياضة نفسي على هذه المعارك المريرة ولكنني لم أعجز عن الوصول الى ذلك فحسب بل انني لم أتقدم البتة كذلك ، وقد خلفتني كل جهودى المضنية ، الفاشلة مع ذلك أيضا ، وقد أصبحت كما كنت من قبل من السهل ازعاجي واغاظتي واثرتي .

وحيث كانت تسيطر على حواسي لم أكن أستطيع اطلاقا - مهما فعلت - ان اقاوم انطباعاتها ، ولطالما اثر الشيء عليها (على الحواس) فان قلبي لا يفتأ يتأثر بها ، ولكن تلك العواطف العابرة لا تدوم الا بقدر ما يدوم الاحساس الذي يسببها . ان وجود الرجل الحقود يؤثر في تأثيرا عنيفا ، ولكن ما ان يختفي حتى تتوقف الانطباعة ، وحالما لا أعود اراه . . لا أفكر فيه بعد ، ومهما أعلم انه سيشغل بي فلن أستطيع ان أشغل به .

ان الالم الذي لأحسه الآن مطلقا لا يؤثر في علي أي وجه ، وان مضطهدا لأراه مطلقا ، هو لاشيء بالنسبة لي . انني احس فضل ما يضيفه هذا الموقف على من يتصرفون في مصيري . فليتصرفوا اذن كما يروق لهم بل انني افضل كذلك ان يعذبوني دون مقاومة علي أن أكره على التفكير فيهم لأحتمى من ضرباتهم .

ان تأثير حواسي هذا على قلبي يسبب العذاب الوحيد في حياتي . انني حيث لا يقع نظري على انسان لأفكر البتة في مصيري فلا أعود احس بهذا المصير ولا أعود أتألم . انني سعيد وراض حين لا يكون هناك شاغل او عقبة ، ولكنني نادرا ما أفلت من ضربة محسوسة ، وحين يكون تفكيري فيه ضئيلا فانه تكفي لازعاجي ايماءة او نظرة حقد ألحها أو كلمة مسمومة تلتقطها أذني أو خبيث القاه ، وكل ما أستطيع عمله في مثل هذه الحالة

أن أنسى سريعا جدا وأن أهرب . ان اضطراب قلبي يختفى باختفاء دافع الاضطراب وأعود الى السكينة حالما أكون وحيدا . ولئن أقلقنى أمر ما فهنا الخوف من أن ألقى فى طريقى أمرا جديدا موجعا ، وعندئذ يكون عذابى الوحيد ، ولكنه يكفى ليبدل من سعادتى . اننى أقطن فى وسط باريس ، وعند خروجى من منزلى أتعسر على الريف والوحدة ، ولكن ، على أن أبحث عنهما بعيدا حتى انه قبل أن أستطيع أن أتلفس كما أشاء أجد فى طريقى الف شيء يعتمر قلبي . وينقضى نصف النهار فى هموم قبل أن اصل الى الملاذ الذى أسعى اليه وأكون سعيدا على الاقل اذا ما تركت أكمل طريقى . ان اللحظة التى أفلت فيها من موكب الاشرار لى لحظة ممتعة ، وحالما أجد نفسى تحت الاشجار وسط الخضرة أحسب اننى فى جنة على الارض وأتذوق متعة داخلية قوية كما لو كنت أسعد الاحياء طرا .

اننى لأذكر تماما أنه خلال فترات هنائى القصار كانت هذه الجولات الانفرادية نفسها التى أجدها اليوم بهذه الممتعة ، لاطعم لها بل وتثير ضيقى رحين كنت فى زيارة أحد الناس بالريف كانت تدفعنى الحاجة الى القيام بشيء من الرياضة وتنفس الهواء الطلق الى الخروج وحيدا فى أغلب الامر فكنت أخرج للتنزه - هاربا كلص - منطلقا الى الحدائق أو الريف . ولكن بدلا من أن أجد فيها الهدوء الممتع الذى أتذوقه فيها اليوم كنت أحمل اليها ثورة الافكار والتافهة التى كنت أشغل بها فى المجتمع ، وكانت تلاحقنى هناك ذكرى الرفاق الذين خلفتهم ورائى . وفى عزلتى كانت عنجهية عزة النفس وصخب الناس تطفئ فى ناظرى نضارة الأعراش وتزعج أمن الانعزال . ومهما كنت أوغل هاربا فى أعماق الغابة كانت تلاحقنى حيثما ذهبت جماعة ثقيلة فتعجب عنى الطبيعة جميعا . ولم يحدث اننى عدت فوجدتها بكل مفاتها الا بعد أن تخلصت من العواطف الاجتماعية ومن موكبها التعس .

ولما كنت مقنعا باستحالة اشتمالى لهذه الحركات البدائية غير الارادية ، فقد كفت عن بذل جهودى فى هذا المضمار . اننى أدع دمي يتقد ، والغضب والاستنكار يستحوذان على حواسى لدى كل لطة . اننى أترك للطبيعة هذا الانفجار الاول الذى لم تكن قواى جميعا لتستطيع ايقافه أو تعطيله . اننى أحاول فقط ايقاف ما يستتبعه ذلك قبل أن يكون له أى أثر . ان العيون التى يتطاير منها الشرر ، واحتقان الوجه ، وارتعاش الاطراف ، والخفقان الحائق . . كل هذا يرجع الى الحس وحده ولا يملك التعقل حيالها شيئا . ولكن بعد أن يترك للسجية أن تطلق انفجاراتها الاولى لتعمل عملها ، يستطيع المرء أن يصبح مرة أخرى سيد نفسه الحقيقى

وهو يستعيد حواسه شيئاً فشيئاً . ان ذلك هو ما حاولت عمله دهرًا طويلًا دون أن أنجح ، ولكن وفقت اليه في نهاية الامر . وبعد أن توقفت عن استخدام قوتي في مقاومة غير مجدية ، أراني أنتظر لحظة الانتظار تاركًا التصرف لعقلي ، ذلك لأنه لا يتحدث الى الا حينما يستطيع أن يجعلني أصغى اليه . ايه ماذا أقول ؟ وأسفاه . . عقلي ؟ انني لاكون جد مخطيء كذلك ان أنا نسبت اليه شرف هذا الانتصار . ذلك لأنه لانصيب له فيه : ان بكل شيء يصدر كذلك عن مزاج متقلب تهزه ريح عاتية ولكنه يعود الى الهدوء في اللحظة التي تكف فيها الريح عن الهبوب . انه طبعي المتوقد الذي يثيرني ، وانه لطبعي المتراخي الذي يهدئني . انني لأستسلم لكل الحوافر الحالية : ان كل صدمة تمنحني حركة قوية وقصيرة ، وما الا تعود هناك صدمة حتى تتوقف الحركة ، ولا يمكن أن يطول أمد أي من آثارها في نفسي ان كل احداث القدر وكل مؤامرات البشر قلما تستطيع أن تنال من امرىء بهذا التكوين . كان من الواجب ان تتجدد الانطباعة في كل لحظة كي يدوم احساسى بالآلام ، ذلك لان الفترات مهما قصرت تكفى لتعيدني الى نفسي . انني ما يرضاه الناس طالما استطاعوا التأثير على حواسي ، ولكنني أصبح نانية ما أرادته الطبيعة بمجرد تراخيهم ، وتلك - مهما كان في مقدورهم أن يفعلوا - حالي الأكثر استقرارا التي أتذوق عن طريقها - برغم القدر - سعادة أحس انني خلقت لها . لقد وصفت تلك الحالة في واحد من أحلام يقظتي (١) وانه ليروقني جدا حتى انني لا أرغب في أمر آخر سوى دوامها ولا أخشى الا ان أراها تتكرر . أما الألم الذي سببه الناس لي فلا يؤثر في بآية حال . ان الخوف وحده من الألم الذي لا يزال في امكانهم أن يسببوه لي هو الكفيل وحده بأن يثيرني ، وأما وقد غدوت على ثقة من أنهم لم تعد لديهم من وسيلة جديدة للنيل مني يستطيعون عن طريقها أن يؤثروا في باحساس مقيم ، فانني لأسخر من كل مكائدهم وأستمتع بذاتي بالرغم منهم .

(١) يقصد روسو هنا ما كتبه في معنى السعادة في الجولة الخامسة .

الجولة التاسعة

السعادة حالة مقيمة لا تبدو وكأنها هيئت للانسان في الحياة الدنيا .
ان كل ما على الارض في مد متواصل لا يسمح لشيء بأن يتخذ سمة ثابتة .
ان كل شيء يتغير من حولنا . انا انفسنا نتغير وليس هناك من يستطيع
ان يطمئن الى أنه سيحب في الغد ما يحبه اليوم ، ومن ثم كانت كل
مشروعات الهناء لهذه الحياة اوهاما . فلنغتنم رضا النفس حين يقبل
ولنحذر من أن نباعد فيما بيننا وبينه بخطئنا ، ولكن لا ينبغي أن نقدم على
مشروعات تقيدنا لان تلك المشروعات محض جنون . اننى قلما رأيت قوما
سعداء بل ربما لم التقي بانسان سعيد ، ولكننى طالما شهدت قلوبا راضية .
ومن بين كل ما أثر فى كان ذلك الذى ارضانى شخصيا أكثر الرضا اننى
أعتقد أن هذا تتابع طبيعى لسلطان الاحاسيس على مشاعرى الداخلية . ان
السعادة ليست لها دلالة خارجية ، ولكى نتعرف عليها يجب أن نطالع
قلب الانسان السعيد . أما الرضا فيقرأ فى العينين وفى المظهر وفى
اللهجة وفى السلوك ويبدو وكأنما ينتقل الى من يلاحظه . أهناك فرحة
أحلى من أن نرى شعبا بأكمله ينغمس فى المرح يوم عيد ، ومن أن نرى
كل القلوب تتفتح للأشعة المنتشرة ، للمتعة التى تمر سريعة ، ولكن قوية ،
فى ثنايا سحائب الحياة ؟

حدث منذ ثلاثة أيام ان جاء م.ب. M.P. فى عجلة غير عادية ليرينى
ماكتبه السيد دلامبير M. d'Alembert (١) فى مديح مدام جيوفرين
L'Eloge de Mme Geoffrin

(١) دالامبير D'Alembert (١٧١٧ - ١٧٨٢) ، كاتب وفيلسوف فرنسى أحد
مؤسسى دائرة المعارف الفرنسية L'Encyclopédie وعضو باكاديمية العلوم .
والتصود هنا خطابان أرسلهما الى كوندورسيه Condorcet نشر عام ١٧٧٧ .
(كوندورسيه فيلسوف فرنسى كان مسكربرا دائما لجمع العلوم)
(Oeuvres postumes de l'Alembert, Paris. T.I. p.p. 132 - 271.)
واما مدام جيوفرين Mme Geoffrin فهى سيدة صديقة للفلاسفة كانت تستقبلهم
فى « صالونها » =

وقد سبقت المطالعة قهقهات طويلة مدوية على الجديد المضحك مما جاء في هذه القطعة ، وعلى التلاعب الهازل بالالفاظ الذي قال انها زخرت به . وقد بدا القراءة وهو لا يزال يضحك وكنت أصغى اليه في جند ساخرا منه وحين رأى اننى لا اجاربه مطلقا توقف في نهاية الامر عن الضحك . وكانت الفقرة الأطول والاكثر تكلفا من هذه القطعة تدور حول المتعة التي كانت تحسها مدام جيوفرين عند رؤيتها للاطفال ودفعهم للحديث . وقد استقى الكاتب - عن وجه حق - دليلا على كرم الطبع من وراء هذا الميل . ولكنه لم يكن يقف عند هذا الحد فكان يتهم في اصرار بلووم الطبع والشر كل من لم تكن لهم نفس الميول حتى انه قال ان المرء لو سأل من يقادون الى المشنقة أو عجلة التعذيب فانهم جميعا سيجمعون على انهم لم يكونوا يحيون الاطفال . كان لهذه المزايم اثر فريد في المكان الذي جاءت به . وعلى فرض ان ذلك كله صحيح أفكانت تلك مناسبة قوله ؟ أو كان من الواجب أن يفسد مديح امرأة لها تقديرها بصور عن الاعداء والمذنبين ؟ لقد أدركت في يسر سبب ذلك التصنع القبيح ، وحين انتهى م.ب. M.P. من القراءة كاشفا عما ظهر لي طيبا في المديح ، علقت بأن الكاتب حين كان يسطر ما كتب كان يحمل في قلبه من الود اقل مما يحمل من الكراهية . وفي اليوم التالي ، وكان الجو لطيفا - ولو أنه كان باردا - قمت بجولة حتى المدرسة الحربية (1) وفي حسابي ان أجد هناك طحالب

= وهذا بعض ما كتبه دالامير :

« كان لمدام جيوفرين كل ميول روح حساسة حلوة . لقد كانت تحب الاطفال بشغف ولم تكن ترى من بينهم واحدا دون أن ترق له . كانت تهتم ببراءة وضعف هذه السن . وكانت تحب أن تلاحظ فيهم الطبيعة التي - بفضل عاداتنا - أصبحت لا ترى الا في الطفولة . كانت تسر من التحدث معهم ومن توجيه الاسئلة اليهم وكانت تنسيق بالمربيات اللواتي كن يوحين اليهم بالاجابة . وكانت تقول لهم : « اننى افضل اجاباتهم الساذجة عما تملين عليهم » . وتضيف قائلة « وددت لو وجه هذا السؤال الى كل من التفساء الذين سيلقون الموت بسبب جرائمهم : هل أحببتم الاطفال ؟ واننى لواقفة أن الاجابة ستكون نفيا » .

ويستطيع المرء أن يحكم من ذلك بأنها كانت تنظر الى الابوة كألا متعة في الطبيعة ولكن كلما ازدادت قداسة هذه المتعة لديها وددت لو كانت ظاهرة خالية من المنقصات . ومن أجل ذلك كانت ترجو من لم يكن لديهم مال من بين اصداقائها الا بزوجوا وكانت تقول لهم « ماذا سيكون مصر اطفالكم الفقراء ان فقدوكم في سن مبكرة ؟ فكروا في الرعب الذي يستولى عليكم في ساعاتكم الاخيرة حين تركونهم اشقياء من بعدكم ... اولئك الذين كانوا أعز الناس لديكم » .

(1) المدرسة الحربية في وسط باريس وتمتد منها الى « شان دومارس Champ de Mars

مروج خضراء لا يزال معظمها موجودا الى الآن .

مزهرة ، واثناء ذهابي ، استفرقت في حلم موضوعه زيارة الامس وما كتبه مسيو دالمبير M. d'Alembert حيث كنت أعتقد تماما أن التركيبات الاضافية لم توضع بغير هدف ، وان مجرد التكلف لاحضار هذه الجزازة (الملزمة) لي - لي أنا من يخفون كل شيء عنه - عرفني تماما ماذا كان الهدف منها . لقد كنت وضعت صفارى في ملجأ اللقطاء (١) وكان هذا كافيا كي ابدى في صورة اب فاسد ، ومن ثم - فبالتمادي في هذه الفكرة واحتضانها - يستطيع المرء أن ينتزع منها تدريجيا نتيجة بديهية هي أنني كنت أكره الاطفال . وبتتبع سلسلة هذه المراحل عن طريق الفكر ، كنت معجبا بالفن الذي تستطيع به الصناعة الانسانية ان تحول الأشياء من الأبيض الى الأسود . ذلك لانني لأعتقد مطلقا ان هناك انسانا أحب أكثر مني رؤية الصفار يمزحون ويلعبون معا ، وغالبا ماتوقفت في الطريق وفي نزواتي لأشهد مداعباتهم والعبهم الصغيرة في شغف لا ارى غيري يشاركني فيه . وفي اليوم نفسه الذي قدم فيه م . ب . M.P. - قبل زيارته بساعة - كان في زيارتي صغيران من أبناء سوسوا Sousoi هما اصغر اولاد مضيقي ، وكان اكبرهما يناهز السابعة من عمره ، وقد قدما لتقبيلي في اخلاص . . . وبادلتها بحنان كبير ملاطفتها حتى بدأ عليهما - رغم فارق السن - سرور صادق بصحبتى . واما بالنسبة لي فقد طرت فرحا حين أدركت أن شكلي العجوز لم ينقرهما ، بل ان الاصغر بدأ وكأنما تقدم نحوي مختارا حتى أنني أحسست في طفولة تزيد عن طفولتهما بأنني قد تعلقت به مفضلا اياه ونظرت اليه وهو يبرح المكان في أسف وكأنما كان ابنا لي . انني أدرك أن اللوم على وضع أطفال في ملجأ اللقطاء ، انحدر في يسر مع قليل من التحوير ، الى لوم على أنني اب فاسد وعلى كراهية للاطفال ، ومع ذلك فمن المؤكد أن الخوف من مصير أسوأ ألف مرة بالنسبة لهم - ويكاد لا يمكن تحاشنيه بأية وسيلة أخرى - هو أشد ما جعلني اصر على اتخاذ هذه الخطوة . وما دام لا يعينني ماذا كان يمكن أن يصبحوا .

(١) ملجأ اللقطاء Les Enfants Trouvés مؤسسة يرجع انشاؤها الى القرن السابع عشر ، اودع فيه روسو كما يقول اولاده الخمسة وظل ضميره يؤنبه على فعلته طيلة حياته ، وقد أثار روسو بنفسه تلك المسألة الهامة عدة مرات : مرة في الجولة الرابعة في « احلام اليقظة » ، واخرى في الاشرافات « الكتاب السابع والثامن » ، وفي كتابه « اميل » (الجزء الاول) . . . وفي خطاب الى مدام دوفرائكي Mme de Francueil في ٢٠ من ابريل ١٧٥١ . وكذا في خطاب الى مدام دوشوفنسوه Mme de Chenonceau في ٧١ من يناير ١٧٧٠ والى المسيو دوسانجرمان Mr. de Saint-Germain في ٢٦ من فبراير ١٧٧٠ ولها جميعا يحكم روسو على نفسه بناء على احساساته ومشاعره لا على إهبطه .

ومادمت غير قادر على تنشئتهم بنفسى ، فانه كان من الواجب فى موقفى أن
أدع أمر تنشئتهم لامهم ، التى ربما أفسدتهم ، ولأسرتها التى ربما جعلت
منهم شياطين . اننى لا أزال أرتعد كلما فكرت فى ذلك . إن ما صنعه
محمد بسعيد (١) ليس شيئا بجانب ما كان يمكن أن يصنع بهم حىالى
وان الشرك التى نصبت لى فيما يتصل بذلك الامر فيما بعد تؤكد لى الى
حد كبير أن الخطة كانت معدة من قبل . والحقيقة اننى كنت أبعد من أن
أتكهن حينئذ بهذه الدسائس الفظيعة ، ولكننى كنت أعرف أن أقل أنواع
التربية خطيرة بالنسبة لهم هى تربية ملجأ اللقطاء فاودعتهم اياه . وربما
كنت أعاد فعل ذلك وبقدر من التردد أقل بكثير أيضا اذا ما استوجب
الامر ذلك . وانى لأعلم تمام العلم أنه ما من أب أشد حنانا مما كان من
الممكن أن يكونه بالنسبة لهم مهما ضؤل عون الاعتياد للطبيعة .

لئن كنت قد أحرزت بعض النجاح فى معرفة القلب الانسانى فإن
السرور الذى كنت أحسه لدى رؤية الاطفال وملاحظتهم هو ما أكسبني
هذه المعرفة ، ونفس هذا السرور فى شبابى هو الذى وضع فى طريقها نوعا
من العقبات ، ذلك لاننى كنت ألهو مع الاطفال فى مرح شديد وبنفس
خالصة حتى لم أكن أفكر مطلقا فى أن أدرسهم . ولكن حين تقدمت بى
السن ولاحظت أن شكلى المتهم يزعمهم امتنعت عن مضايقتهم ، وفضلت
أن أحرم من متعة عن أن أكرر عليهم صفوهم . وأما وقد قنعت بارضاء
نفسى بمشاهدة العابهم وكل تصرفاتهم الصغيرة ، فقد وجدت التعويض عن
تضحيتى فى الأضواء التى يسرت لى الحصول عليها هذه الملاحظات عن
الحركات الاولى والحقيقية للطبيعة ، هذه الحركات التى لا يعرف كل علمائنا
عنها شيئا . ولقد ضمننت كتاباتى الدليل على اننى قمت بهذا البحث فى
عناية بالغة لا يمكن معها أن أكون قد قمت به بغير لذة . ومن المؤكد أنه
سيكون من أبعد الأمور تصديقا أن الـ «هلويز» Heloise و «اميل» Emile
كانا من عمل رجل لم يحب الاطفال .

انه لم يكن لى أبدا حضور البديهة ولا زلاقة اللسان ، ولكن منذ أن
حلت بى المصائب تزايد ارتباك لسانى وعقلى . ان الفكرة واللفظ المناسب
يضيعان منى على السواء ، فما من شىء يتطلب تمييزا أفضل ، أو اختيارا
لتعبيرات أدق ، أكثر من الاحاديث التى تتبادلها مع الاطفال ، ومما يزيد
أيضا من هذا الارتباك لدى هو اصغاء المستمعين ، وما يصفونه من تأويلات

(١) نحن لاندري ما يقصده روسو هنا بما صنعه النبى محمد بشخص يدعى سعيد ، وربما
كان ذلك مثلا يتداول فى ذلك الوقت دلالة على نوع من التعصب الدينى ولو أن
الديانة الاسلامية تخلق تماما من مثل ذلك .

روزن لكل ما يصدر عن شخص يفترض فيه ، وقد كتب خصيصا للأطفال؛
الا يخاطبهم الا وحيا . ان هذا الحرج البالغ وما أسستشعره من عجز .
يربكنى ويحيرنى وربما كنت أروح نفسا أمام أحد ملوك آسيا منى أمام
طفل على أن أستدرجه الى الثرثرة ؛

وهناك عائق آخر يبقينى الآن أكثر بعدا عنهم . اننى منذ حلت بى
المصائب أراهم بنفس السرور دائما ، ولكن لم تعد لى بهم نفس الألفة . ان
الاطفال لا يحبون الشيخوخة . ان منظر الطبيعة الآفلة كرية فى عيونهم .
ان نفورهم الذى الحظه يحزننى ، واننى لأفضل أن أمتنع عن ملاطفتهم عن
أن أسبب لهم ضيقا أو اشمئزا .

ان هذا الدافع الذى لا يؤثر الا فى النفوس المحبة حقا لا قيمة له لدى
كل علمائنا وعالماتنا . ولم تكن مدام جيوفرين لتضيق الا أقل القليل بأن
يجد الاطفال متعة فى صحبتها مادامت تجد هى هذه المتعة معهم ، وأما
بالنسبة لى فان هذه المتعة تكون أسوأ من عدمها . انها سلبية حينما
تعوزها المشاركة ، فأنا لم أعد بعد شى مركز أو سن أرى فيهما القلب
الصغير لطفل يتفتح مع قلبى . لئن أمكن حدوث ذلك لى أيضا فان هذه
المتعة - التى أضحت أشد ندرة - لاتصبح بالنسبة لى الا أكثر قوة وكنت
أحسها تماما ذلك الصباح بسبب ما لقيته من ملاطفة صغار عائلة سوسوا
Sousoi لان الخادمة التى كانت تصحبهم لم تثر احترامى ، واننى لم أكن
أحس بالحاجة الى أن يصغى الى أمامها ، بل كذلك لان الروح المرحة التى
صاحبت اقترابهم منى لم تبرحهم قط ، ولانهم لم يظهروا استياء أو ضيقا
وهم فى صحبتى .

آه لو كانت لاتزال لدى بضع لحظات من ملاطفات بريئة صادرة عن
القلب قد لاتصدر الا عن طفل لا يزال صغيرا ! لو أمكننى أن أرى أيضا فى
بعض العيون الفرحة والرضا بوجودها معى فكم اذا من شرور وآلام كانت
تعوضنى عنها انصاحات قلبى القصيرة ، الحلوة مع ذلك ! آه : اننى لن
أكون مضطرا الى البحث بين البهائم عن نظرة العطف التى أباهها على الآدميون
منذ الآن . اننى أستطيع أن أدلل على ذلك بقليل جدا من الامثلة : لنى هى
دائما عزيزة بين ذكرياتى . وهالك مثلا كان حريا أن أنساه تقريبا فى أية مناسبة
أخرى يصور الأثر الذى خلفه فى كل ما أعانيه من شقاء . حدث منذ عامين
وأنا ذاهب لآتنزه فى ناحية نوفيل فرانس Nouvelle France أن توغلت
مبعدا ثم إنعطفت يسارا مستهدفا الدوران حول مونمارتر Montmartre
فاخترقت قرية « كلينيانكور Clignancourt » وكنت أسير لاهيا وحالما ، دون

ان انظر الى ما حولي ، حتى احسنت فجأة بركبتي وقد أمسك بهما ، ونظرت فوجدت طفلا صغيرا بين الخامسة والسادسة يحيط بركبتي بكل قوته وهو يتطلع الى في ألفة وحنان حتى تحركت جوارحي ، فأخذت أقول لنفسي : انه كان من الممكن ان أعامل على هذا النحو من صغاري . وأخذت الطفل بين ذراعي وقبلته مرات في فرح شديد ثم تابعت مسيرى . وأحسنت خلال ذلك اننى أفتقد شيئا ما ، وردتني على أعقابى حاجة طارئة . لقد كنت اليوم نفسى على تركى الطفل فجأة على هذه الصورة واعتقدت اننى أرى فى عمله - بغير سبب ظاهر - نوعا من الوحي لا تجدر الاستهانة به . وأخيرا وقد استسلمت للاغراء ، ارتددت على أعقابى وركضت نحو الطفل وعاودت تقبيله ومنحته ما يشترى به من قطائر نانثير Nanterre التى كان يمر باقها هناك مصادفة . وبدأت أدفعه للثرثرة ، فسألته عن مكان أبيه فدلتنى على أنه هو ذلك الذى يحزم البراميل ، وكنت أتهدى لترك الطفل لأتوجه للتحدث معه عندما وجدت أنه قد سبقتنى اليه رجل عابس الوجه بدا لي وكأنما هو احدى تلك الحشرات التى يطلقونها الناس فى أعقابى .

وبينما كان هذا الرجل يسر اليه شيئا فى أذنه إذ شاهدت عيني حازم البراميل تستقران على فى انتباه بنظرة ليس فيها شيء من الود . وقد اعتصر قلبي هذا الامر على الفور . فتركت الأب والطفل فى سرعة تزيد عما استغرقتة فترة ارتدادى على أعقابى اليه من قبل ، ولكن نى قلق - أقل بعثا للرضا - غير من مشاعرى جميعا . ومع ذلك فغالبا ما أحسنت بها تبعث فى نفسى من جديد منذ ذلك الحين . لقد عاودت المرور كثيرا بـ « كلينيانكور Clignancourt بأمل معاودة رؤية ذلك الطفل ، ولكن لم أعد أراه لا هو ولا أباه ولم يبق لى من تلك المقابلة سوى ذكرى حية تختلط دائما بالحلاوة والمرارة ككل الانفعالات التى لا تزال تنفذ أحيانا حتى قلبي .

ان هناك عزاء عن كل شيء : لئن كانت لحظات سرورى نادرة وقصيرة فاننى أتذوقها - حين تمر بى - فى لذة أشد مما لو كانت بالوقفة لدى . اننى اجترها - كما يقال - عن طريق الذكريات الكثيرة ، ومهما تبلغ ندرتها فربما أكون أكثر سعادة - اذا كانت نقيية خالصة - متى فى أسعد أوقاتي . ان المرء يحسن العنى فى القليل حين تبلغ الفاقة به أشدها ، وان الصعلوك الذى يعثر على قطعة écu (١) من العملة يتأثر بذلك أكثر من تائر غنى يعثر على كينيس من الذهب . ان المرء ليضحك ان شهد فى نفسى

(١) l'écu قطعة من العملة الفضية القديمة .

الانطباع التي تخلفها أقل المسرات من ذلك النوع ، والتي أستطيع أن
اختلفها برغم يقظة مضطهدى . وقد عرضت واحدة من أمتعها منذ أربع
أو خمس سنوات لا أكاد أذكرها الا وأحس بنشوة الراحة لأننى قد
استمتعت بها تماما .

لقد توجهنا - زوجتى وأنا - ذات أحد لتناول طعام الغذاء عند بوابة
مايو Maillot واخترقنا بعد الغذاء غابة بولونى Bologne حتى لامبيت
La Muette وهناك اقتعدنا الاعشاب فى الظل فى انتظار مغيب الشمس
حتى نعود بعد ذلك الهويانا عن طريق باسى Passy . وجاءت عشرون فتاة
تشرف عليهن راهبة وجلس بعضهن وأخذ البعض الآخر يمرحن على مقربة
منا . وفى أثناء لعبهن مر بائع حلوى يحمل « طبلته واسطوانته ودولابه »
باحثا عن مشتريين ، وقد لاحظت أن الفتيات الصغيرات كن يشتين كثيرا
قرطيسه ، ويبدو أن اثنتين أو ثلاثة منهن كن يحملن معهن بعض الـ
« ليارات liards (١) » فسألن الاذن باللعب ، وفى حين كانت المشرفة
تتردد وتناقش . . ناديت بائع الحلوى وقلت له : دع كلا من هاتى الأنسات
تسحب بدورها وبأدفع لك عن الجميع . وقد أشاعت هذه الكلمة الفرحة
فى الجماعة كلها ، هذه الفرحة التي كانت وحدها تعدل أكثر مما فى كيس
نقودى لو اننى استخدمت كل ما به للحصول عليها . ولما رأيت كل واحدة
منهن تتعجل دورها باستعمال شىء من الفوضى ، رتبتهن جميعا - بعد
موافقة المشرفة - فى صف فى ناحية واحدة ، ثم أمرتهن الى الناحية المقابلة
الواحدة بعد الاخرى بمجرد أن يقمن بالسحب . وبرغم أنه لم تكن هناك
تذكرة بيضاء وأنه كان من نصيب كل منهن قرطاس على الاقل اذا لم يقدر
لبعضهن الفوز حتى لا تعود واحدة منهن غير راضية تماما ، فقد أسررت
الى بائع الحلوى - مستهدفا أن أزيد من فرحة المناسبة - أن يستخدم
مهارته المعتادة فى اتجاهها المضاد ، وذلك بأن يسقط بقدر المستطاع أكثر
ما يمكن من الأنصبة الطيبة ، واننى سأراعى ذلك عند محاسبته . وقد
وزع من طريق هذا التدبير ، ما يقرب من مائة قرطاس بالرغم من أن
واحدة من الفتيات لم تسحب أكثر من مرة واحدة، ذلك لأننى كنت اذ ذاك
حازما بحيث لم أكن أود تحبيذ الافراط أو اظهار مفاضلات قد تبعث على
الاستياء . وقد أوحى زوجتى الى من كان من حظهن أنصبة طيبة أن يشركن
فيها زميلاتهن حتى تكون الأنصبة شبه متساوية وحتى تكون الفرحة أعم .
وقد رجوت الراهبة أن تسحب بدورها ، وأنا شديد الخشية أن
ترفض عرضى باحتقار ، ووافقت فى رقة وسحبت ، كما فعلت الطالبات ،

(١) Le liard قطعة من العملة النحاسية القديمة .

وأخذت من غير كلفة ما جاءها ، واعترفت لها بفضل بالغ ووجدت في ذلك نوعا من التهذيب شد ماراتنى ، وأعتقد انه يفوق أدب تكلف الرفض .
وخلال كل هذه العملية وقعت منازعات عرضت على محكمتى وجاءت هذه الفتيات تدافع كل بدورها عن قضيتها وأعطيننى بذلك فرصة للاحظ انه برغم عدم وجود واحدة جميلة بينهن فان رقة بعضهن كانت تنسى المرء قبحهن .

وأخيرا افترقنا وكل راض جدا عن صاحبه . وكان عصر ذلك اليوم واحدا من تلك الايام فى حياتى التى أستعيد ذكراها بأكبر قدر من الارتياح . فضلا على ذلك فان الاحتفال لم يفلسنى اذ انه مقابل ثلاثين « صلديا sols (١) » على أكثر تقدير حصلت على ما يساوى أكثر من مائة « ليار » liards من السرور ولو أن المتعة فى الواقع لا تقاس بما ينفق فى سبيلها ، والفرحة أشد صداقة لـ « ليار » منها للجنه . لقد عدت مرات كثيرة الى المكان نفسه فى الساعة نفسها أملا أن ألقى هناك مرة أخرى المجموعة الصغيرة ولكن هذا لم يحدث أبدا .

ان هذا يذكرنى بتسلية أخرى من النوع نفسه تقريبا ظلت ذكراها مقيمة أمدا أطول من هذه : كان ذلك فى العهد المنكود عندما كنت ، وأنا أخالط الاغنياء والادباء ، مضطرا الى مشاركتهم متعهم الكئيبة . كنت فى « لاشفريت La Chevrette (٢) » فى وقت عيد رب الدار وكانت أسرته بأكملها مجتمعة لاحتياته واستخدمت لهذه المناسبة كل مظاهر السرور الصاحب فلم يدخر شيء من تمثيل الى مادب الى صواريخ نارية ، ولم يكن هناك فراغ ليلتقط المرء أنفاسه بل انه كان يسلى نفسه بدلا من أن يمتعها . وبعد الغذاء خرجنا لاستنشاق الهواء فى الطريق حيث أقيم نوع من السوق هناك . وكان رقص ، وتنازل السادة فراقصوا الفلاحات ، أما السيدات فقد احتفظن بوقارهن وكانت تباع هناك فطائر حلوى des pains d'épice وخطر لشباب من الجماعة أن يشتري منها ليقذف بها الواحدة بعد الأخرى فى وسط الحفل ، وقد سر الناس كل السرور برؤية كل هؤلاء الاجلاف يتدافعون ويتضاربون وينقلبون ليحصلوا عليها ، حتى ود الجميع لو ينغمسون فى المتعة نفسها . . . واستمرت الفطائر تتطاير يمنا ويسرة ، وظلت الفتيات والصبية يجرون ويتساقطون فوق بعضهم البعض ويتداهسون وكان هذا يبدو رائعا للجميع . وفعلت مثلما فعل الآخرون بدافع الاستحياء وان كنت - فى قرارة نفسى - لم أتسل بقدر ما فعلوا ،

(١) الصلدى le sol عملة قديمة تعول ٥ سنتيم او واحد على عشرين من الفرنك .

(٢) لاشفريت La Chevrette هو نصر مدام ديناى d'Épinay بالقرب من مونودونسى .

ولكن حالما تضايقت بسبب نفاذ مالى فى سبيل دهس الناس ، خلفت هناك الصحاب وذهبت لاتجول وحيدا فى السوق . وقد أدخل تنوع المعروضات السرور فى نفسى طويلا ، ولاحظت من بين الموجودين خمسة أو ستة من أهل سفوا Savoyards يتحلقون فتاة صغيرة كان لا يزال على سفطها دسته من التفاح الضامر كانت تود لو أنها تخلصت منها . وكان السفواثيون من جانبهم يودون لو أنهم خلصوها منها . ولكن لم يكونوا يملكون جميعا سوى « ليارين » أو ثلاثة وهذه لم تكن مخرجا كبيرا لاستخلاص التفاح . كان هذا السفط بالنسبة لهم حديقة هسبريد Hespérides (١) وكانت الفتاة هى التنين الذى يحرسها . وقد تسليت طويلا بهذه المزحة ووضعت خاتمة لها فى نهاية الامر ، وذلك بأن دفعت ثمن التفاح للفتاة الصغيرة وجعلتها توزعه على الصبية الصغار . وعندئذ شهدت واحدا من أحلى المناظر التى تستطيع أن تبهر قلب المرء ، هو رؤية القرحة ممزوجة ببراعة السن تنتشر من حولى . ذلك لان الشهود أنفسهم شاركوا فيها حين رأوها ، وأما أنا الذى شاركت فى هذه القرحة بهذا الثمن الضئيل فقد زادت عليها لدى فرحة الاحساس بأنها كانت من صنيعى .

عند مقارنة هذه التسلية بنظائرها التى خلفتها للتو أحسست فى رضا بانفارق بين الميول السليمة والمتع الطبيعية وبين تلك التى تكون وليدة الشراء والتى ليست سوى متع ساخرة وميول خاصة هى ثمرة الاحتفار . ذلك لأن أى نوع من السرور ذلك الذى يستطيع المرء أن يجده فى مشاهدة قطعان من البشر أذلهم البؤس ساقطين فوق بعضهم البعض ويختنقون ويتداهسون فى خشونة لينتزعوا فى نهم بضع لقيمات من الفطائر وطنتها الاقدام وغطاها الوحل ؟ .

وأما من ناحيتى فأنى حين فكرت جيدا فى نوع اللذة التى كنت أتذوقها فى هذه الأنواع من المناسبات ، وجدت أنها تكمن فى عاطفة عمل الخير. أقل منها فى متعة التطلع الى وجوه راضية . ان لهذا المشهد فى نفسى سحرا - برغم نفاذه الى قلبى - يبدو كأنما هو صادر عن الحب وحده . ولئن لم أرى الرضا الذى أكون مبعثه - حتى ولو كنت مستوثقا منه - فابنى لا أستمتع به الا نصف استمتاع . بل هو كذلك بالنسبة لى متعة غير مفرضة لا تتوقف على مبلغ نصيبى منها ، ذلك أنه من بين الاحتفالات الشعبية ، كان دائما أشد ما يجذبنى بقوة اليها هو الاحتفال الذى أشهد فيه وجوها مستبشرة . ومع ذلك فإن هذه البغية طالما حرمت من تحقيقها

(١) هسبريد Hespérides من ثلاث بنات لملك خرافي يدعى أطلس Atlas من يملكن حديقة تنتج اشجارها ثمار تفاح من الذهب كان يحرسها تنين له مائة رأس .

فى فرنسا ، ذلك لان هذا الشعب الذى يدعى المرح قلما يبرزه فى العابه .
اننى غالبا ما كنت اذهب فيما مضى الى المراقص الماجنة لأشهد هناك افراد
الطبقات الدنيا من الشعب يرقصون ، ولكن رقصاتهم كانت من الكتابة ،
كما كان مظهرهم من الذبول والارتباك ، بحيث كنت اخرج محزوننا اكثر
منى مستمتعا . ولكن فى جنيف وفى سويسرا حيث لا يتصاعد الضحك
باستمرار فى خبث شديد فان كل شىء يعبر عن الرضا والمرح فى الأعياد .
ان الشقاء لا يظهر هناك مطلقا بمظهره البشع كما ان التعاضم لا يبين عن
محبة . فالامن والاخوة والترابط تهيبء القلوب للتفتح وكثيرا ما نشهد
فى غمرة المرح البرىء الاغراب يجلسون متجاورين متعانقين داعين بعضهم
البعض الى الاستمتاع سويا بمباهج اليوم . ولم أكن فى حاجة الى أن
أكون واحدا منهم لأستمتع بهذه الحفلات اللطيفة ، بل كان حسبى أن
أشهدهم فأشارك فيها بمشاهدتى اياهم ، واننى لشديد الثقة بأنه من بين
كل الوجوه الضاحكة ليس هناك قلب أشد سعادة من قلبى .

وبالرغم من أن هذه ليست سوى متعة حسية فان لها من المؤكد علة
روحية ، والدليل على ذلك أن هذا المشهد نفسه بدلا من أن يطربتنى ويعجبينى
يستطيع أن يمزقنى ألما وغضبا حين أدرك أن دلائل السرور والفرح هذه
على وجوه الاشرار ليست سوى علامات على أنهم أشبعوا ما بنفوسهم من
خبث .

إن المرح البرىء هو الذى تطرب دلائله قلبى ، أما دلائل المرح
الوحشى الساخر فانها تمزقه وتحزنه برغم أنه قد لا تربطنى به أية صلة
مطلقا . ولا شك أن هذه الدلائل قد لا تكون هى نفسها تماما اذا ما صدرت
عن مبادئ على هذا النحو من التباين : ولكن على أية حال . . . سواء . . .
فى دلالتها على المرح ، وما من شك أن ما فيها من تباين محسوس لا يتناسب
وتباين الانتفاضات التى تثيرها فى نفسى :

أما دلائل الألم والعذاب فانا أشد حساسية بالنسبة لها كذلك ، حتى
أنه يستحيل على أن أتحملا دون أن أهتز أنا نفسى بانفعالات قد تكون
كذلك أكثر حرارة من تلك التى ترمز اليها . ان الخيال بتدعيمه للحس ،
يوحد ما بينى وبين المعذب من الناس ويسبب لى غالبا رعبا أشد مما يحس
به هو نفسه . ان وجهها ساخطا هو كذلك منظر يستحيل على احتمالها
وبخاصة ان كان هناك ما يحدونى الى الظن أن هذا السخط يتعلق بى .
اننى لن أستطيع أن أقول كم من نقود ابتز منى الغلمان الذين يلوح على
سيماهم التذمر والاكتئاب وهم يقومون بالخدمة متهجمين فى المنازل التى
بلغت منى حماقة فيها مضى حد الاستسلام لمن يقودوننى اليها ، وحيث
جعلنى الخدم دائما أدفع غالبا جدا ثمن ضيافة السادة . ولما كنت دائما

شديد التأثر بالامور الحساسة ، وبخاصة ما يحمل منها دلالة اللذة أو الألم ، العطف أو البغضاء ، فاننى انقاد لهذه الانطباعات الخارجية دون أن أستطيع مطلقا أن أتجاهها بغير طريق الهرب . ان اشارة أو ايماءة أو نظرة من مجهول تكفى لتعكر على صفو سرورى أو تسكن من آلامى . اننى لا أكون ملك نفسى الا حين أكون وحيدا ، وأما فيما عدا ذلك فانا العوبة فى يد كل من يحيطون بى .

كنت فيما مضى أعيش مسرورا بين الناس حين كنت لا أرى فى كل العيون سوى عطف أو - على أسوأ احتمال - عدم مبالاة فى عيون أولئك الذين كنت مجهولا منهم . أما اليوم ، وهم لا يجدون مشقة فى تنبيه الناس الى وجهى أقل مما يجدون فى وضع قنساع على طبعى ، فاننى لا أستطيع أن أخطو بقدمى فى الطريق دون أن أراى محوطا بأشياء موجهة . اننى أتعجل الوصول الى الريف بخطا واسعة وحالما أرى الحضرة أبدأ فى التنفس . أمن عجب بعد ، اننى أحب العزلة ؟ اننى لا أرى على وجوه الناس سوى الضنن ، أما الطبيعة فانها تضحك لى دائما . واننى اشعر مع ذلك أيضا - ويجب أن أعترف بهذا - بمتعة فى الحياة بين الناس طالما كان وجهى مجهولا لديهم ، ولكنها متعة لا تتاح لى مطلقا . لقد كنت منذ بضع سنوات ما أزال أحب أن أجول فى القرى وأن أشهد فى الصباح المزارعين يصلحون مدقاتهم والنساء على أبوابهن مع أطفالهم . ولست أدرى ماذا كان يمس شغاف قلبى فى ذلك المنظر كنت أتوقف أحيانا دون أن أنتبه لذلك لا تطلع الى ما يقوم به هؤلاء القوم من أعمال صغيرة . وكنت أجدنى أتهدد دون أن اعرف لذلك سببا . وما أعلم اذا كان أحد قد رأى شغفى بهذه المتعة المتواضعة واذا كان أحد قد لحرمنى منها كذلك ، ولكنى من التغير الذى الحظه على الوجوه عند مرورى ومن الطريقة التى ينظر الى بها ، أراى مضطرا أن أدرك أنهم حرصوا جد الحرص على حرمانى من هذا التخفى . ولقد حدث نفس الامر لى ، وفى صبورة أكثر وضوحا ، فى الانفتاليد Invalides (١) . ان هذه المؤسسة الجميلة كانت دائما محل اهتمامى واننى لا أشهد دائما الا بحنان وتوقير تلك الجماعات من المستعنين الطيبين الذين يستطيعون أن يرددوا ما ردهه شبيوخ لاسيديمونيون Lacédémone (٢) .

(١) الانغاليد Les Invalides بنى اترى لى باريس من عهد لويس الرابع عشر كان قد أتاحه لأيواد مشوهى الحرب عام ١٦٧٠ م ، وقد حول فيما بعد (منذ ١٨١٠ م) الى مكان يضم رفات كبار قواد فرنسا وعلى رأسهم نابليون .
(٢) لاسيديمونيون La cédémone (او أسبرطه Sparte) مدينة قديمة من مدن اليونان .

لقد كنا في سالف الزمان

شباناً شجعاناً جسورين

كانت واحدة من جولاتي المفضلة جولتي المفضلة حول المدرسة الحربية وكنت أقابل مسرورا هنا وهناك بعض مشوهي الحرب وقد احتفظوا بشهامتهم العسكرية القديمة فكانوا يحيونني أثناء مرورهم . كانت هذه التحية التي يردها قلبي مضاعفة مائة مرة تطربني وتزيد من السرور الذي كنت أحسه لدى رؤيتهم . ولما كنت لا أعرف كيف أخفي شيئا مما يؤثر في فائتي غالبا ما كنت أتحدث عنهم ، وعن كيفية تأثير منظرهم في نفسي ، ولم يكن الامر يتطلب أكثر من ذلك . وبعد فترة من الزمان لاحظت أنني لم أعد مجهولا لديهم ، أو بالاحرى أنني غدوت أكثر من ذلك بالنسبة لهم ماداموا كانوا ينظرون الى بنفس العين التي ينظر عامة الناس الى بها فلم تعد هناك لا شهامة ولا تحايا . وقد حل محل ما كانوا عليه من تهذيب في اول الامر روح جفاء ونظرة شذراء . ولما كانت الصراحة القديمة التي تتسم بها مهنتهم لا تسمح لهم - كالأخرين - بأن يعجبوا ضغنهم بقناع هازيء خداع فانهم اظهروا لي بوضوح مبدئ أعنف كراهية ، وهذه هي قمة شقائي ، حتى لأجدني مكرها على أن أميز ، في تقديري ، أولئك الذين يخفون عني سخطهم أقل من غيرهم .

منذ ذلك الحين وأنا أتزده ، في متعسنة أقل ، بناحية الانفاليد ، ومع ذلك فما دامت مشاعري نحوهم لا تعتمد على مشاعرهم نحوى فائتي لا أنظر أبدا بغير احترام وبغير اهتمام الى هؤلاء القدامى من الدائدين عن أوطانهم ، ولكن من أقسى الامور على أن أجزى من ناحيتهم أسوأ الجزاء مقابل الضائى اياهم ، ولئن حدث مصادفة أن لقيت من بينهم واحدا يخرج على التعليقات المشتركة ، أو أنه لعدم معرفته صورتي لم يظهر نحوى اية بغضاء ، فإن التحية الصادقة من هذا وحده تعوضنى عن مسلك الآخرين الخشن ، اننى لأنسأهم حتى لا اشغل بسواه وائتى الأتخيل أن له واحدة من هذه النفوس التي تشببه نفسى حيث لا تستطيع الكراهية أن تنفذ اليها .

وقد سعدت كذلك بهذه المتعة في العام الماضى حين كنت أعبر الماء لأذهب للتنزه فى جزيرة البجع وكان هناك محارب فقير مسن فى قارب ينتظر مرافقا للعبور ، فتقدمت وطلبت الى صاحب القارب أن يرتحل . وكان التيار شديدا وابتغرق العبور زمنا طويلا ، ولم أجد فى نفسى جراءة كافية للتحدث الى هذا المحارب ، وربما كان ذلك خوفا من أن

أزجر وأصمد كما هي العادة . ولكن هيئته النبيلة طمأننتي فتجاذبنا أطراف الحديث ، وقد بدا لي رجلا على عقل وخلق ، ودهشت وفتنت بلهجتته الصريحة الودية ولم أكن معتادا على مثل هذا العطف . ولكن دهشتي توقفت حين علمت أنه وصل حديثا من الاقاليم ، وفهمت منه أن أحدا لم يرشده بعد عنى ، أو يعطيه تعليماته . فاغتنمت هذا التخفى لالتحدث بضع لحظات مع انسان ، وأحسست من وراء العذوبة التي لقيتها كم تكون ندرة المتع الاكثر شيوعا قادرة على رفع قيمتها . وأثناء مبارحة القارب كان يعد « لياريه » البائسين ولكنني دفعت أجرة العبور ورجوته أن يعيد صر نقوده وأنا أرتعد خوفا من أن أستفزه . ولكن هذا لم يحدث، بل بالعكس فانه بدا متأثرا من لفتتي هذه ، ثم بنخاسة من لفتة أخرى ، ذلك أنه لما كان أكبر منى سنا ، فقد عارنته على مغادرة القارب . من ذا يصدق أنني تصرفت كطفل حتى بكيت من الهناء ؟ لقد كنت شديد الرغبة في أن أضع في يده قطعة من ذات الاربعة والعشرين « صلديا » ليشتري تبغا ولكنني لم أجرؤ أبدا . كان نفس الخجل الذي ردني هو الذي كثيرا ما كان يزودني عن القيام بأطيب الاعمال التي كانت كفيلة بأن تغمرني بالبهجة والتي لم أمتنع عنها الا وأنا أندب غبائي . وفي هذه المرة - بعد أن تركت محاربي القديم - سرعان ما تعزيت وأنا أفكر في أنني - كما يقال - ربما كنت أتصرف ضد مبادئ الخاصة وأنا أخلط بالشريف من الامور نمنا من المال يحط من نبلها ويدنس من نزاهتها . انه من الواجب أن يتعجل المرء مد يد المساعدة الى أولئك الذين هم في حاجة اليها . ولكن لندع في اتصالات الحياة العادية العطف الطبيعي والتهذيب يقوم كل بعمله دون أن يكون هناك مطلقا نهاز أو جشع يجرؤ أن يقترب من منبع بهذا الصفاء ليفسده أو يشوهه . انه يقال ان القوم في هولندا يتقاضون ثمن اخطارك بالوقت أو ارشادك الى الطريق ، ولا بد أنه شعب يستحق بالغ الاحتقار ذلك الشعب الذي يتجر على هذا النحو بأبسط الواجبات الانسانية . لقد لاحظت أنه ليست هناك سوى أوربا وحدها التي يباع فيها كرم الضيافة . أما في كل آسيا فانهم يستضيفونك بدون مقابل . واننى أدرك أن المرء لا يجد هناك كل راحته ، ولكن أليس هذا الا كما لو قال المرء لنفسه : اننى انسان وهأنذا أستقبل من ذوى الانسانية ، انها الانسانية الخالصة التي تمنحني القوى ؟ ان الحرمان القليل يحتمل دون عناء اذا ما عومل القلب خيرا مما يعامل الجسد .

الجولة العاشرة

اليوم - يوم عيد الفصح المزهر - مرت خمسون سنة منذ اول
معرفة نى بمدام دوفواران Mme de Warens (١) وكانت نى ذلك
الوقت فى الثامنة والعشرين اذ انها ولدت مع مولد هذا القرن (٢) ، ولم
أكن شارفت عندئذ السابعة عشرة ، وكان ميلى الوليد - وان كنت لا أزال
أجهله مع ذلك - يمد بحرارة جديدة قلبا مليئا بطبيعته بالحياة . ولئن
لم يكن عجيبا أنها أحست بعطف نحو شاب مليء بالحياة ، وديع حيا
ذى طلعة حسنة مع ذلك ، فانه كان أقل عجباً أن امرأة فاتنة ذكية رقيقة
توحى الى - الى جانب اعترافى بفضلها - بمشاعر أكثر حثانا لم أكن
أميزها . ولكن ما ليس طبيعيا أيضا ، هو أن هذه اللحظة الأولى كانت
حاسمة فى حياتى كلها وأنها خطت - بسحر لا يمكن الفكك منه - مصيرى
بقية أيامى . ان روحى التى لم تكن أعضائى البتة قد أنمت أعلى
ملكاتها ، لم تكن لها بعد أية صورة واضحة الحدود . انها كانت تنتظر
فى نوع من القلق اللحظة التى يجب أن تعطىها اياها . وهذه اللحظة ،
وقد عجلت بها هذه المقابلة ، لم تأت مبكرة برغم ذلك . ولقد لاحظت
لأمد طويل - وأنا فى بساطة الطباع التى منحتنى اياها تربيتى - هذه
الحال الهائنة ، السريعة مع ذلك ، حيث يستقر الحب والبراعة فى القلب
نفسه . كانت قد أبعدتنى ، وكان كل شىء يذكرنى بها فكان من الضرورى
أن أعود إليها ، وقد حددت مصيرى هذه العودة . وقبل أن تكون لى
بزمن طويل كذلك لم أكن أعيش الا بها ومن أجلها . أه لو اننى أشبعت
قلبها ، كما أشبعت هى قلبى ! كم من أيام آمنة حلوة كان من الممكن أن
نمضيها معا ! لقد قضينا أمثالها ولكنها كانت قصيرة سريعة ، وأى قدر

(١) التقى روسو بمدام دو فواران de Warens فى انسى Annecy فى عام ١٧٢٨ .
وإذن فتاريخ كتابه الجولة العاشرة الثانى من ابريل عام ١٧٧٨ وهى بذلك ترد
ما لجاء بالكتيب الثالث الى السادس من « الاعترافات » .
(٢) ولدت مدام دوفواران عام ١٦٦٩ .

ذلك الذى تبعها ! ما من يوم لا أتذكر فيه بنشوة وحنان هذه المرحلة الوحيدة القصيرة من عمري التى كنت فيها بكل كيانى خالصا لذاتى بغير شائبة أو عائق ، وحيث أستطيع أن أقول اننى عشت ، اننى أستطيع أن أقول تقريبا كما قال مدير المحكمة الذى عزل فى عهد فسبازيان (١) *Vespasien* وذهب يختم أيامه فى سلام فى الريف ، د لقد قضيت فوق الأرض سبعين سنة عشت منها سبعا ، اننى بغير هذه الفترة القصيرة الثمينة مع ذلك ، ربما بقيت غير مستوثق من نفسى ، ذلك لأننى فى كل بقية حياتى ، وقد كنت ضعيفا لا أقاوم ، كانت أهواء الآخرين تهيجنى وتتقاذفنى وتتجادبنى حتى أننى وقد غدوت شبه سلبي فى حياة عاصفة على هذه الصورة كان من الصعب أن أميز ما هو ذاتى فى سلوكى الشخصى ، من فرط ما ظلت الحاجة القاسية تبهظنى . ولكن خلال هذا العدد القليل من السنين : وقد أحببتنى امرأة مليئة باللفظ والرقفة فعلت ما كنت أريد فعنله وكنت ما أريد أن أكسون ، وعرفت - عن طريق استخدام أوقات فراغى ، تعاونتى فى ذلك دروسها والمثل الذى تقدمه - كيف أعطى لروحي التى كانت لا تزال بريئة جديدة الصورة التى كانت تناسبها أكثر من غيرها والتى احتفظت بها دائما . لقد ولد فى قلبى الميل الى العزلة والتأمل مع مولد الشاعر الفياضة الحنون التى خلقت لتكون غذاء له . ان الصخب والضجيج تحصرها وتقضى عليها أما الهدوء والسلام فيبعثان فيها الحياة وينعشانها . اننى فى حاجة الى أن اعتكف كى أحب . لقد حثت « أمسى » (٢) الى أن تعيش فى الريف ، وكان ماوانا بيت منعزل فى سفح واد ، وهنالك - مدى أربع أو خمس سنوات - استمتعت بقرن من الحياة والهناء الصافى المطلق الذى يسبح فتنته على كل ما لحظى الحالى من بشاعة . كنت فى حاجة الى صديقة توائم قلبى ، وقد كانت لى . كنت راغبا فى الريف وقد حصلت عليه . اننى لم أكن أستطيع أن أحتمل الخضوع وقد كنت حرا تماما ، وأكثر من حر ، ذلك لأننى وقد خضعت لاهوائى وحدها لم أكن أعمل سوى ماكنت أريد عمله . كان وقتى كله مفعما برعاية تزخر بالحب أو بشواغل فى الحقول . اننى لم أكن أريد شيئا سوى استمرار حالى بهذه الهناءة ، ولكن الى الوحيد كان الخوف من ألا تستمر طويلا ، وهذا الخوف الناشء

(١) فسبازيان *Vespasien* احد أباطرة الرومان حكم من ٦٦ - ٧٦ م .

(٢) لما رأى روسو مدام دوفواران غارقة فى اللبون فكر فى مورد يعينها عن طريقه فوضع طريقة جديدة لرقم الموسيقى بدلا من السلم الموسيقى المعتاد ثم سافر الى باريس ليعرض مشروعه على أكاديمية الفنون .

عن حرج موقفنا لم يكن بغير أساس . وقد فكرت منذ ذلك الحين لى أن أمنح نفسى فى الوقت نفسه ألوانا من التسلية تلهينى عن هذا القلق ، وموارد تعينتنى على تفادى اثره . لقد فكرت فى أن رصييدا من المواهب هو أكثر الموارد أمانا ضد البؤس فعزمت على أن أستغل أوقات فراغى فى اعداد نشى لاكون قادرا - ان كان ذلك ممكنا - على أن أرد يوما من الايام الى أكرم النساء ما تقبلت منها من معونة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٣
مقدمة وتعليق	١١
تقديم للجولات	٣٥
الجولة الاولى	٣٩
الجولة الثانية	٤٢
الجولة الثالثة	٤٥
الجولة الرابعة	٥٠
الجولة الخامسة	٥٣
الجولة السادسة	٥٧
الجولة السابعة	٦١
الجولة الثامنة	٦٥
الجولة التاسعة	٦٨
الجولة العاشرة	٧٣
طباع روسو وحالته النفسية في آخر حياته	٧٧
أحلام اليقظة بين مؤلفات الكاتب الاخرى	٨٣
أصالتها وأثرها الادبي	٨٧
الجولة الاولى	٩٥
الجولة الثانية	١٠٣

الصفحة	الموضوع
١١٣	الجملة الثالثة ..
١٢٧	الجملة الرابعة ..
١٤٣	الجملة الخامسة ..
١٥٣	الجملة السادسة ..
١٦٣	الجملة السابعة ..
١٧٧	الجملة الثامنة ..
١٨٧	الجملة التاسعة ..
٢٠٦	الجملة العاشرة ..

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

